في الميزان

ابن الجوزي

عصره - حياته - آثاره

الدكتور شوقي أبو خليل

دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

دار الفكر
دمشق - سورية

بسم الله الرحمن الرحيم

ابن الجوزي

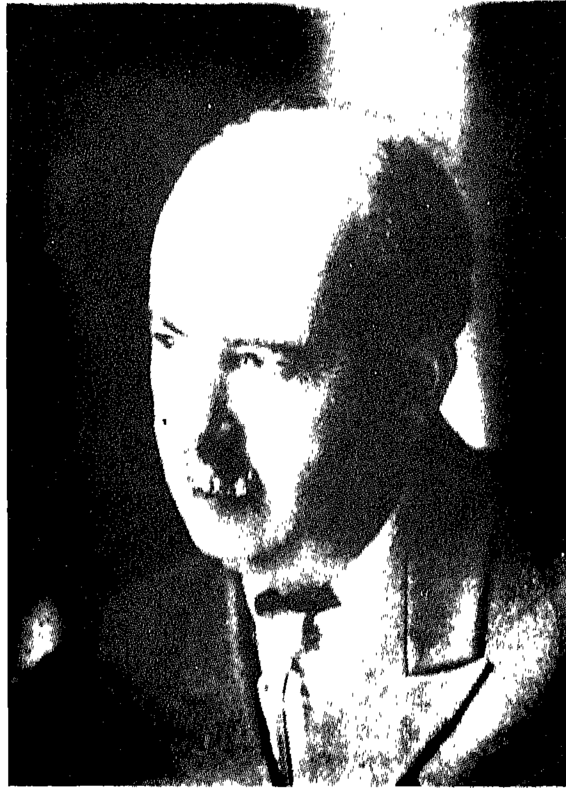
عصره - حياته - آثاره



الكتاب ٨٨٧
الطبعة الأولى ١٤١٣ هـ = ١٩٩٣ م

سورية - **دمشق** - برامكة مقابل مركز الانطلاق الموحد - ص.ب (٩٦٢)
برقياً: فكر - س.ت ٢٧٥٤ هاتف ٢٢٩٧١٧، ٢١١١٦٦ - تلكس FKR 411745 Sy

الصف التصويري: دار الفكر بدمشق
الطباعة (أوفست): المطبعة العلمية بدمشق



الأُستاذ الدُّكتور

بَنْدَلي صَلِيبا الْجَوْزي

[١٨٧١ - ١٩٤٢ م]

تنويه :

كان صلب هذا الكتاب وأفكاره الرئيسية أُطروحة نلت عليها (الدكتوراه في التاريخ الإسلامي) من أكاديميَّة العلوم في أذربيجان ، ولقد قدّمت وعُمّمت تحت عنوان : « **تاريخ الإسلام والمقاطعات الشّرقيّة للخلافة الإسلاميّة في مؤلّفات بندلي الجوزي** » ، والنسخة العربيّة هذه نسخة معدّلة عن الأُطروحة كما قُدّمت لتتناسب مع سلسلة في الميزان .

بسم الله الرّحمن الرّحيم

مُقدّمة :

بدأ اهتمامي بالأُستاذ الدكتور بندلي الجوزي سنة ١٩٨٢ ، حين كنت في ندوة تربويّة في محافظة الرقّة (في سوريّة) ، فلقد صادف وجودي في مدينة الثّورة ، وجود معرض للكتاب التّقدّمي فيها ، فاخترت من هذا المعرض - مساء الاثنين ٢٢ شباط (فبراير) ١٩٨٢ - كتاب : (بندلي صليبا الجوزي : دراسات في اللّغة والتّاريخ الاقتصادي والاجتماعي عند العرب) ، ثمّ حصلت على كتاب الأُستاذ بندلي الأهم : (من تاريخ الحركات الفكريّة في الإسلام) بتاريخ الخميس ٣ نيسان (إبريل) ١٩٨٦ م .

لقد قرأت الأُستاذ بندلي ، فأعجبني منه ثقافته الواسعة ، وشخصيّته المطّلعة ، وإن كنت أختلف معه في نقاط كثيرة ، وقد تكون جوهريّة ، لكن (اختلاف الرّأي لا يفسد للودّ قضيّة) ، يكفيه أنّه لا يحمل خلفيّة الاستشراق الموظّف لخدمة التّبشير ، ولا يلجأ إلى نقل النّصوص محرّفة مبتورة من المصادر ليثبت استنتاجاتِهِ وآراءَه . لقد نقل بأمانة ، وكتب قناعاته دون تعصّب ، وسجّل تحليلاته بهدوء ، وحاور معترضيه من غير عنف ، فرحت منذ سنة ١٩٨٦ أُعدّ بطاقات دراسة نتاجه ، على أمل إصدار كتاب عن الأُستاذ بندلي ، ضمن سلسلة (في الميزان) الّتي صدر أوّل أجزائها سنة ١٩٨٠ تحت عنوان (جرجي زيدان في الميزان) ، ولأُمور لا أستطيع تحديدها ، أو أعرف ماهيّتها ، صدر لي منذ ١٩٨٦ ، وحتّى بداية ١٩٩٠ : فيليب حِتّي ، وكارل بروكلمان ، وغوستاف لوبون (في الميزان) ، كما صدر لي في الفترة ذاتها كتاب جامعي عنوانه : (الحضارة العربيّة الإسلاميّة ، وجزآن من سلسلة المعارك الكبرى ..) ، هما عمّوريّة ، ووادي المخازن ، ولم تصدر دراستي عن الأُستاذ بندلي ، لماذا ؟ لا أدري ، و

القدر خبّأ لي أمراً ، وهو أن تكون أُطروحتي للدكتوراه ، دراستي عن الأُستاذ (بندلي الجوزي) .

الأُستاذُ بَنْدَلي بين مُؤَيِّديهِ وَمُعارِضِيهِ :

كَتَبَتْ عن الأُستاذ بندلي صحفٌ ومجلّاتٌ وكتبٌ .. أهمها : (الأديب) البيروتيّة ، نيسان (إبريل) ١٩٦٨ ، و (فلسطين الثّورة) ٢ شباط (فبراير) ١٩٧٥ ، العدد ١٢٨ ، و (السّفير) البيروتيّة ٣ أيار (مايو) ١٩٧٧ ، و (البعث) الدمشقيّة ، ١٨ أيلول (سبتمبر) ١٩٧٧ ، و (الوطن) ٨ أيار (مايو) ١٩٨٤ ، و (أخبار الأُسبوع) ٧ حزيران (يونيو) ١٩٨٤ ، و (الهدف) ٢٧ آب (أُغسطس) ١٩٨٤ ، و (الاتّحاد) الحيفاويّة ٢٥ آذار (مارس) ١٩٨٧ ، والموسوعة الفلسطينيّة ١٣٨/١ و ٦٢/٢ و ٦٣ و ٦٤ ، ومصادر الدراسة الأدبيّة ، ليوسف أسعد داغر ٢٧٩/٢ و ٢٨٠ ، ومحاضرات في الاتّجاهات الأدبيّة الحديثة في فلسطين والأُردن ، للدكتور ناصر الدّين الأسد ..

يقول الأُستاذ جلال السّيّد : « ولم يقف جوزي عند التّفسير التقليدي للتّاريخ الإسلامي ، بل نظر إليه على أساس العامل الاقتصادي والاجتماعي ، وتتبّع ذلك بدراسة للجزية والخَراج والضّرائب المفروضة ، والتّفرقة بين دافعيها ، وعزا تدهور الدّول الإسلاميّة إلى معالجتها الاقتصاديّة ، وعدم المساواة في تحمّل الأعباء الضّريبيّة ، ومهما كانت درجات الاتّفاق والاختلاف حول ما طرحه جوزي في كتابه ، إلاّ أنّه ظلّ ـ ولفترة طويلة ـ رائداً هاماً في هذه النّظرة لتاريخنا الإسلامي ، واستفادَ منه كثير من المؤرّخين ، بل وفتح الباب أمام دراسة (القرامطة) ، و (الزّنج) ، و (الإسماعيليّة) ، و (إخوان الصّفا) ، وقد اختلف عن المفكّرين الليبراليّين بنزعته الماركسيّة وتأثره بها ، وتميّز عن القوميّين ـ في تلك الفترة ـ في بعده عن التّعصّب ، مع الدّعوة للوحدة العربيّة ، وأمله الدّائم في تطوير الأُمّة العربيّة وتقدّمها ، مستنداً في

ذلك إلى تاريخها وتراثها ، محذّراً مما يسبب الضّعف والفرقة ، متصدّياً للآراء الاستعماريّة الّتي تناولت تراثنا وحضارتنا والأمم الشّرقيّة جميعها ، وكان يقف ضدّ فكرة تفرّد حضارة عن أخرى ، بل ينطلق من فكرة الحضارة الإنسانيّة الشّاملة ، الّتي ساهمت كلّ أمّة فيها بنصيبها ، بتأثيرها والتّأثّر بغيرها » .

ويرى الأستاذ حسين مروة : « أن تحديد الباحث موقفه على أساسٍ من كشفه كل معطيات القضيّة ، مهما اختلفت وتناقضت ، ثمّ رؤية الاتّجاه الواقعي لهذه المعطيات ، ثمّ النّظر إلى هذا الاتّجاه من منظار مصلحة التّطوّر والتّقدّم ، إنّ تحديد الموقف على أساس من هذا كلّه ، هو المصداق الفعلي لمفهوم (الانحياز) بمستواه العلمي .. ولقد كان بندلي جوزي يمارس هذا المفهوم بحذق وصدق وحماسة في دراساته التّاريخيّة كلّها ، ولا سيما دراساته في حقل التّراث الفكري العربي ـ الإسلامي ، وليس يعيبه ـ في رأينا ـ أن يغيب التّحليل وإصابة الاستنتاج عن بعض ممارساته في هذا الحقل ، كما في محاولته إسقاط الفكر الاشتراكي ، بمفاهيمه المعاصرة ، على بعض الحركات الفكريّة الّتي تناولها بالدّرس في كتابه الرّائد الّذي نتحدّث عنه ، أي تلك الحركات الّتي تنتسب إلى زمن يبعد عن زمننا بنحو ألف عام .

وهذا النّقص لا يعيبه ، لأنّه صادر عن إدراك الظّروف الموضوعيّة والذّاتيّة الّتي هي مصدر النّقص ، وإنّ مجمل هذه الظّروف من ذروة الهرم البشري ، وبعضها في أدنى درجات الهرم ، وبعضها بين هذه وتلك .. » .

أمّا عبد اللّطيف الطّيباوي ، فيرى أنّ الأستاذ بندلي « تطرّف في التّفسير للتّاريخ الاقتصادي » . ويرى الدكتور ناصر الدّين الأسد أن الأستاذ بندلي : « كان من كبار علماء اللّغات والتّاريخ ، ومؤلّفاته تدلّ على صبر وجَلَد على جمع النّصوص والرّوايات وتتبّعها واستقصائها ، إلاّ أنّه حين يكتب عن العرب والمسلمين ، كان يميل مع الهوى ، وينحو نحواً أبعد ما يكون عن التّجرّد والعلم » .

وعلى الرغم من هذه الآراء ، الَّتي تراوحت بين الإبداع والاتهام ، أرى أن الأُستاذ بندلي وَثِقَ في دراسات المستشرقين واعتمد عليها ، إلى درجة استقاء المعلومات الرَّئيسة عن تاريخ العرب ، والحركات الفكريَّة في الإسلام من دراسات المستشرقين ، مثل لامانس ، وفلهاوزن ، ونولدكه ، وكولدسيهر ، ودي خويه ... وهو الَّذي نبَّه إلى أخطائهم وتجنِّيهم على تاريخ الشَّرق وأهله ، وهو الَّذي يدرك أنَّ جهات عالميَّة وراء صناعة أفكارهم وطروحاتهم ونتاجهم ، وهو الَّذي يعلم أنَّ الشَّرق مهضوم الجانب في أوربَّة ، فالغرب لا يعرف عن الشَّرق حقائقه وحقيقته ، لأنَّ معظم ما كتب ويكتب هناك ، موجَّه ضدَّ الشَّرق وأهله ، ومشوَّه له .

عَوَامِلُ بِناء شخصِيَّة الأُستاذ بَنْدَلي :

عوامل عديدة ساهمت في بناء شخصيَّة الأُستاذ بندلي وتشكيلها ، أهمها :

١ ـ يُتْمُهُ ـ الأُمُّ ثمَّ الأب ـ في وقت مبكِّر من حياته ، فتأثَّر بأخيه قسطندي ، وبأُختيه كاترينا وهيلانة ، وبخاله نقولا عنصرة تاجر العاديات .

ولعل هذا اليُتْم ، هو الَّذي رسم صورةَ الحزم الدَّائم ، ومسحة الحزن العميق في النَّفس ، الَّتي انعكست انزواءً عن الأقران في طفولته ، والالتفات إلى القراءة والمطالعة ، حيث هناءة النَّفس ، وراحة الفكر ، في تَوَحُّده هذا .

٢ ـ كما تأثَّر بمدارس الإرساليات الأجنبيَّة ، لقد درس في دير (المُصَلَّبة) في القدس ، والعائد إلى الرُّهبان الأُرثوذكس ، فتلقَّى علوم اللاَّهوت الَّتي أتمَّها في دير (كفتين) قرب طرابلس الشَّام .

ثمَّ سافر إلى روسية لمتابعة دراسته الَّتي بدأها في (المصلَّبة) و (كفْتين) ، فاعتنق الماركسيَّة ، ولكنَّ هذا الاعتناق لم يلغِ أو يمسحْ نهائياً الإيمانَ الَّذي كان في القلب في المرحلة المبكِّرة من حياته ، وظلَّ بقيَّة حياته (ماركسيّاً ـ مؤمناً) ، فهو يقول : (في مقالاته الَّتي جمعت في كتاب يحمل اسمه) :

« سنُفْرِد للسُّفياني وأخباره مقالة خصوصيَّة ننشرها على صفحات المقتطف إن شاء الله » ، [الصَّفحة ٦٧] .

« كما سنبيِّنه في مقالة خصوصيَّة عن القِصّاص عند العرب إن شاء الله » ، [الصفحة ٢٨٩] .

وفي معرض حديثه عن كراتشكوفسكي وأشهر آثاره في خدمة الأدب العربي : « فكم له من أيادٍ بيض على بعض أفراد هذه الأُمَّة ، وكم له من دفاع مجيد عن مصالحها الحيويَّة وحسن سمعتها ، جزاه الله خَيْرَ الجزاء ، ومدَّ في عمره .. » ، [الصفحة ٣١٧] .

٣ ـ الأحوال الاجتماعيَّة والاقتصاديَّة الَّتي سادت بلاد الشَّام في أواخر القرن التَّاسع عشر ، ومطلع القرن العشرين ، من جهلٍ وأُمِّيَّة ، وتأخُّر وفاقة ، وتعصُّبٍ لكلِّ ما هو تركي حتَّى اللُّغة ، والطَّائفيَّة المذمومة المدمِّرة ، مع ظلم بعض الولاة في جباية الضَّرائب ...

وعلى الرغم من ذلك كلِّه ، عمَّت بلاد الشَّام ، في القرن التَّاسع عشر نهضةٌ أدَبيَّةٌ وفكريَّةٌ ، كان روّادها متعطِّشين للمعرفة ، فجمعوا العلم إلى الأدب والفكر ، وغاصوا في ثقافة العصر ، المحلِّي منها والعالمي ، وتشاء الأقدار أن يكون الأُستاذ بندلي عالماً متميِّزاً بين علماء بلده ، يفرح لفرحه ، ويألم لألمه ، خصوصاً وقد شهد ما لحق به من أحداث : الحرب العالميَّة الأُولى وانتهاء حكم العثمانيين ، ثمَّ الانتداب وما تبعه من فتح أبواب الهجرة اليهوديَّة على مصراعيها .

« قَهْوَةُ الصَّعاليك » والأستاذ بندلي :

وهي مقهى شعبي يقع في باب الخليل في القدس الشَّريف ، اسمه (قهوة الصَّعاليك) ، كان يجتمع فيه عدد كبير من رجالات السِّياسة والعلم والأدب ، كانوا

يتحلّقون حول خليل سكاكيني - مع عدد كبير من الشُّبّان - يستمعون إلى آرائه في السّياسة والأدب واللّغة العربيّة .

وذكر الأُستاذ خليل سكاكيني في كتابه (ما تَيَسَّر) بعضَ إيماءات من مجالسه الأدبيّة والسّياسيّة ، الّتي كانت تجري في (قهوة الصّعاليك) ، والّتي كوّن لها مبادئ على (الصّعاليك) أن يسيروا بموجبها ، وأهمها : لا رئيس لهذا الحزب ، ولا سكرتير ، ولا أمين صندوق ، ولا نَادِيَ ، كلٌّ صعلوك للصّعاليك نسيب قريب ، ولا يقيم هذا الحزب حفلات استقبال ، أو حفلات وداع ، ولا يقبل الدّعوة إليها . وفي إحدى المواد يقول : طريق الإصلاح في نظر الحزب (التّربية والتّعليم) ، وهو يصرٌّ على أنّ المدارس تكون في يد الأُمّة .

كان المقهى مُلْكاً لمختار الطّائفة الأرثوذكسيّة[1] ، الّتي من أبنائها الأُستاذ بندلي ، وفي إحدى زواياه منضدة عليها مصنّفات أبناء الطّائفة ومعاملاتهم ، وفي زاوية أُخرى عدد كبير من الصّحف والمجلاّت .

هذا المقهى المتواضع ، كان ملتقىً لعدد كبير من الأُدباء والسّياسيّين ، وعدد أكبر من الشُّبّان الّذين يؤمّونه للاستفادة من الأبحاث الّتي كان يديرها أصحاب الرّأي ، ومن الّذين كانوا يتردّدون عليه بصورة مستمرة : خليل السّكاكيني ، يعقوب فرّاج ، يوسف العيسى (صاحب جريدة ألف باء) ، وعيسى العيسى (مؤسّس جريدة فلسطين) ، وعادل جبر ، وأنسطاس حنانيا ، ورفيق الحسيني ..

في هذا المقهى ، وفي عامَيْ ١٩٢٨ و ١٩٣٠ ، كان الأُستاذ بندلي يجتمع بصديقه خليل السّكاكيني ، فيتحلّق حوله العشرات من الأُدباء والشّعراء والمحامين والأطبّاء والصّحفيّين .. ليستمعوا إلى آرائه التّحرّريّة ، منبّهاً إلى الأخطار الّتي تحيط بالوطن

---

(١) واسمه (عيسى الطبة) مختار الطّائفة الوطنيّة الأرثوذكسيّة .

العربي عامّة ، وبفلسطين خاصّة ، ويدعو النّاس أن يستيقظوا من سباتهم العميق ، ويدرسوا قوّة عدوّهم ، الّذي يسعى إلى تشريدهم وطردهم من أراضيهم .

واستناداً إلى ما سبق ، يمكن القول : إن أحداث العالم في مطلع القرن العشرين ، وأحداث فلسطين بشكلٍ رئيسٍ ، كانت عاملاً هامّاً في بناء شخصيّة الأُستاذ بندلي وفكره ، الّتي عبّر عنها بوضوح وجلاء في (قهوة الصّعاليك) ، وكان ذلك سبباً مباشراً فيما بعد ، لإبعاده عن موطنه الأصلي (فلسطين) .

يقول الأُستاذ نصري الجوزي[1] : « كان عمّي بندلي ـ كما تقول عمّتي الأكبر منه سنّاً ـ لا يحبّ اللّعب كثيراً مع أقرانه ، ويكتفي بالقليل منه ، وحين ابتدأ يعرف القراءة والكتابة ، راح ينزوي في ركنٍ قصيٍّ للمطالعة ، وكان في كثير من الأوقات يتأخّر عن تلبية الدّعوة إلى الطّعام نظراً لاستغراقه في القراءة .

دخل دير المصلّبة ، وهو دير كان يضمّ عدداً محدوداً من الطلاّب الأذكياء رغبة في ضمّهم يوماً من الأيّام إلى سلك الكهنوت ، وفعلاً أُرسل بندلي إلى روسية ليتعلّم الكهنوت ، وليصبح راهباً ، ودرس اللاّهوت في روسية مدّة ثلاث سنوات ، ثمّ وجد أنّ الموضوع لا يناسبه ، وأنّ القائمين على إدارة المعهد الدّيني لا يؤدّون الرّسالة الدّينيّة كما يجب أن تؤدّى ، فتحوّل إلى الأدب والتّاريخ ، ولعلّ الحياة الّتي عاشها في الدّير بين عدد من الرّهبان والطّلاّب ، كان لها بعض الأثر في تحوّله عن خرافاتٍ يظنّونها من الدّين ، كما أن مكوثه سنوات ثلاثاً بين عدد كبير من رجال الدّين في موسكو ، كان له الأثر الكبير في انتهاج منهج جديد ، وتغيير آرائه السّابقة .. ولا ننسى طفولته الّتي لم تكن سعيدة كسائر الأطفال في ذلك الوقت ، كلّ ذلك كان له أبلغ الأثر في حياته المستقبليّة ، وفي الاتّجاه العلمي الّذي تبعه » .

---

(١) أحتفظ بأقواله هذه مكتوبة بخطّ يده ، أمدّ الله في عمره ، وجزاه خيراً .

هذه جوانب من شخصيّة الأُستاذ بندلي ، الّذي كان في تحوُّله من اللاَّهوت إلى الماركسيَّة منسجماً مع ذاته ، فكتب قناعاته . ونحن في هذه المقدّمة نقول :

سيصادف العام القادم مرور ١٢٠ عاماً على ولادة الأُستاذ بندلي الجوزي ، أو ٥٠ عاماً على وفاته ، وبهذه المناسبة ، وإحياء لذكراه فهو شخصيَّة ليست عاديَّة ، نقدّم هذه الدّراسة الموسّعة والموثّقة عن : عصره ، وحياته ، وآثاره ، وهي دراسة لم يسبقنا إليها أحد قط ، سنذكر ماله وما عليه ، بموضوعيَّة وإنصاف ، فلقد أُمرنا ألاَّ نبخسَ النّاس أشياءَهم .

سنختصر أحداث عصره السّياسيَّة ، لنقف مع النُّخبة الّتي صادقها وحاورها آنذاك ، ولنقف أيضاً مع حنينه إلى القدس الشّريف ، مسقطِ رأسه ، هذا الحنين الّذي تجسَّد بزياراته المتكرّرة إلى القدس ، والجلوس في (قهوة الصّعاليك) مطوّلاً ، ثمّ مغادرة بلده آسفاً حزيناً متألّماً مضطّراً إلى باكو ، مقيماً فيها حتّى انقضاء أجله ، وحتّى صار يعرف في الصّحافة العربيَّة : « بندلي الجوزي (الفلسطيني ـ السّوفياتي) » ، بل كان يعرفه بعضهم : « (المستشرق الرّوسي) بندلي الجوزي » .

واليوم .. إحياء ذكرى الأُستاذ بندلي الجوزي له دلالاته المهمّة ، فالمؤسّسات الثّقافيّة الفلسطينيّة ، وأعلام فلسطين ، يتعرّضون إلى حرب مدمّرة لطمس كلّ ماهو فلسطيني ، وعلى وجه الخصوص المفكّرين المثقّفين الفلسطينيّين الأعلام ، وتنبّه إلى ذلك العرب الفلسطينيُّون في الأرض المحتلّة ، فنشرت صحيفة (الاتّحاد) الصّادرة في مدينة حيفا بتاريخ ٢٥ آذار (مارس) ١٩٨٧ مقالةً عن الأُستاذ بندلي الجوزي ، بعد أن جمع الأُستاذان ناجي علّوش وجلال السّيّد مقالات الأُستاذ بندلي المنشورة في الصّحف والمجلات ، وأصدراها في بيروت في كتاب عنوانه : « بندلي صليبا الجوزي ، دراسات في اللّغة والتّاريخ الاقتصادي والاجتماعي عند العرب » .

وهكذا .. لم يُنْسَ (بندلي) ، من قِبَلِ أُمّته العربيّة عامّة ، وشعبه الفلسطيني

خاصّة ، لقد جُمِعَ نتاجه الفكري ونُشِر ، وكتبتْ عنه الصّحافةُ المقالات العديدةَ ، وذكرته كتبُ التّراجم والموسوعات .

والجديد القريب ، والحديث جداً ، تسمية شارع في عاصمة عربيّة هي عمّان ، عاصمة المملكة الأردنيّة الهاشميّة ، باسم (بندلي الجوزي) ، [انظر الصورة] .

وأخيراً .. كُرّم الأُستاذ بندلي الجوزي من قبل دولة فلسطين ، بمنحه (وسام القدس للثّقافة والآداب والفنون) ، وذلك باحتفال مهيب ، ضمّ عدداً كبيراً من الأُدباء والعلماء .. العرب الفلسطينيّين في القاهرة يوم السّبت ١٣ كانون الثّاني (ينـاير) ١٩٩٠ م ، ولقد فوّضت رسميّاً من قبل منظمة التّحرير الفلسطينيّة بدمشق ، بتسليم (وسام القدس) إلى ابنه السّيّد فلاديمير بندلي الجوزي أثناء مناقشة أُطروحتي هذه ، الّتي موضوعها :

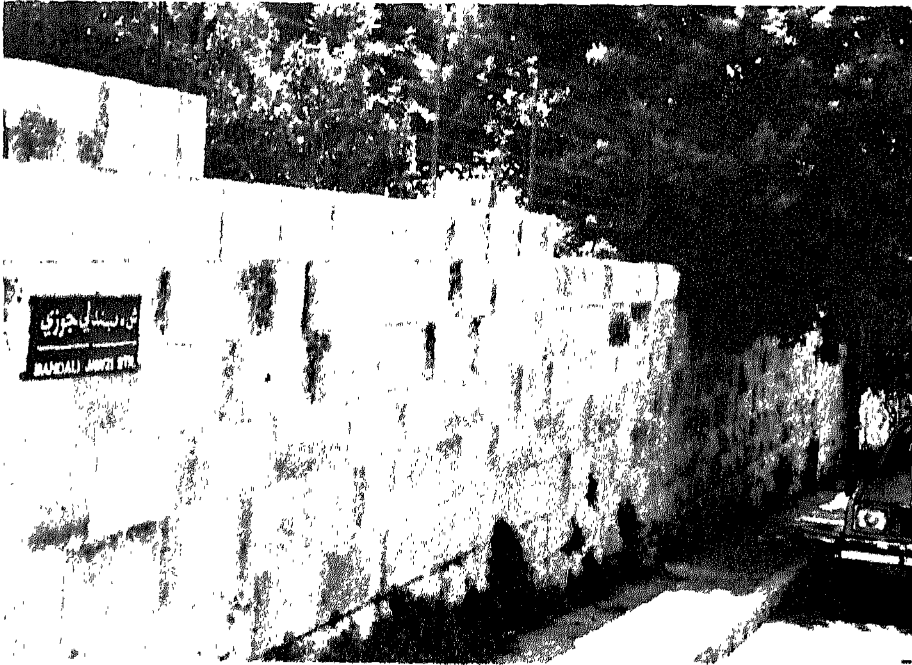
« **بندلي الجوزي** : عصره ، حياته ، آثاره » .

☆ ☆ ☆

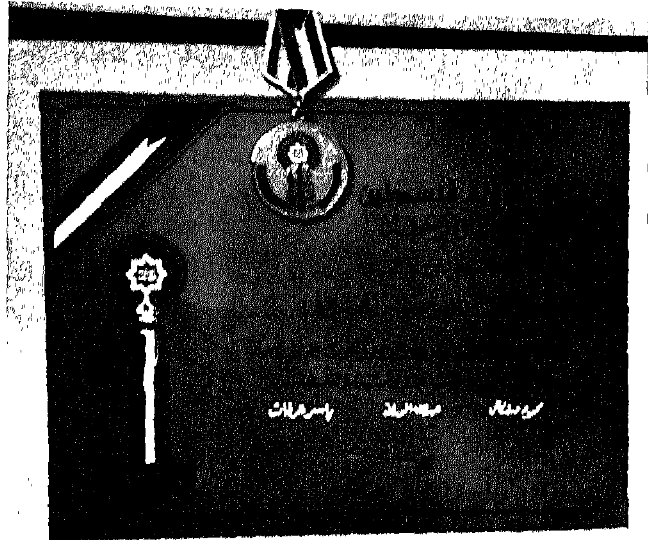
ولا بُدّ لي في ختام هذه المقدّمة ، من تقديم الشُّكر لكلّ من أعانني أثناء جمعي لمصادر هذه الأُطروحة ، وأخصّ بالشُّكر أكاديميّة العلوم في أذربيجان (بَاكُو) ، الّتي قدّمت لي هذه المنحة ، فالشُّكر كلّ الشُّكر للجميع ، وللدُّكتور المشرف الأُستاذ ضياء بونياتوف ، آملاً أن تساهم هذه الدّراسة في أُطروحتي بإنصاف الأُستاذ بندلي الجوزي ، والاهتمام بآثاره وفكره الّذي قدّمه ، فاتحاً آفاق الدّراسة الموضوعيّة المتجرّدة من كلّ تحيُّز مسبق .

شوقي أبو خليل

دمشق : ١٠ رمضان المبارك ١٤١٠ هـ ،
الموافق ٥ نيسان ١٩٩٠ م .



شارع باسم الأُستاذ بندلي الجوزي (عمّان)



وِسام القدس
الّذي مُنِحَ للأُستاذ بندلي الجوزي
بتاريخ ١٩٩٠/١/١٣ م



الأستاذ نَصْري الجَوْزي

بَنْدَلي الجوزي
عَصْرُهُ

فلسطين

لَمْحَةٌ جُغْرافِيَّةٌ

(فِلَسْطِين) ، ذكرهـا الجغرافيُّون والمـؤرّخـون العرب ، بكسر الفـاء وفتـح الـلاّم وسكون السّين ، ثمّ طاء وياء ونون ، وقـد عُرِفت خلال تـاريخها الطّويل بـأنّها الجزء الجنوبي من بلاد الشّـام من الوطن العربي ، في جنوبي غرب قـارّة آسيـة ، فهي تقع بين درجتي عرض ٢٩,٣٠َ° و ٣٣,١٥َ° شمالي خـطّ الاستـواء ، وبين خطّيْ طـول ٣٤,١٥َ° و ٣٥,٤٠َ° شرقي خطّ غرينتش ، مشكّلة جسراً بين آسية وإفريقية .

يحدُّ (فلسطين) بموجب اتّفاقيّـة سـايكس ـ بيكو سنـة ١٩١٧ ، ومنـذ سنـة ١٩٢٠ حيث خضعت للانتداب البريطاني بموافقة عصبة الأُمم :

غرباً : البحر المتوسّط بساحل طوله ٢٢٤ كم ، يمتد من رأس النّاقورة شمالاً ، وحتى رفح على الحدود المصريّة جنوباً .

وشمالاً : لبنان بحدود طولها ٧٩ كم ، من رأس النّـاقورة في الغرب ، وحتّى قريـة المطلّة في الشّرق .

وشرقاً : سوريّة والأُردن ، حيث يبلغ طول الحدود السُّوريّـة ٧٦ كم ، من المطلّـة شمالاً إلى بلدة الحمّة .

أمّـا الحـدود مع الأُردن فتبلغ طولها ٣٦٠ كم ، وتبـدأ من نقطـة تلاقي نهر اليرموك بنهر الأُردن جنوبي بحيرة طبريّـة ، ثمّ تسير جنوبـاً في منتصف مجرى نهر الأُردن والبحر الميّت ، ووادي عَرَبَة حتّى خليج العقبة ، على بُعد مِيلَيْن غربي مدينة العقبة الأُردنيّة ، وقـد عيّن الحـدود مـع الأُردن المنـدوب السّـامي البريطـاني لفلسطين وشرقي الأُردن في ١ أيلول (سبتمبر) ١٩٢٢ م .

جنوباً : خليج العقبة ، حيث يبلغ طول ساحل فلسطين عليه ١٠ ½ كم ، ومصر بطول ٢٤٠ كم ، من مدينة رفح ، وحتّى رأس طابا على خليج العقبة .

تقع فلسطين ضمن إقليم البحر المتوسّط ، الّذي ينقسم إلى فصْلَيْن رئيسيّيْن ، وهما :

- شتاء معتدل ممطر يمتد من تشرين الثّاني (نوفمبر) ، وحتّى أوائل نيسان (إبريل) ، والرّياح الماطرة هي الرّياح الجنوبيّة الغربيّة ، ويبلغ عدد الأيّام الماطرة من ٤٠ إلى ٦٠ يوماً .

- وصيف حار وجاف يمتد من أواسط حزيران (يونيو) ، وحتّى أواسط أيلول (سبتمبر) .

مساحة فلسطين ٢٧٠٠٩ كم٢ ، تقسم إلى المناطق الطّبيعيّة التّالية :

١ - **المنطقة السّاحليّة** : وهي المنطقة المحصورة بين البحر المتوسّط من الغرب ، والمنطقة الجبليّة وهضبة النّقب من الشّرق ، وتقسم إلى قسمين :

أ - السّاحل : ويمتدّ من رأس النّاقورة شمالاً ، وحتّى رفح جنوباً ، ويتّصف بأنّه ساحل رملي خالٍ من الرّؤوس والخلجان الطّبيعيّة ، باستثناء خليج عكا ، ورأس الكرمل .

ب - السّهل السّاحلي : ويلي السّاحل شرقاً ، قسمه الشّمالي يعرف بسهل عكّا ، ويتراوح عرضه بين ٨ - ١٦ كم ، ثمّ يضيق عند رأس الكرمل إلى أقلّ اتّساع له (١٨٠ م فقط) ، ثمّ يبدأ بالاتّساع باتّجاه الجنوب ، حيث يبلغ عرضه عند يافا ٢١ كم ، ويزيد عن ذلك عند غزّة حيث يتداخل مع منطقة بئر السّبع ، فيصل حتّى ٣٢ كم .

يروي السّهل نهران رئيسيّان ، هما : نهر المُقَطّع ، ونهر العوجاء .

وتختلف كمّيّة الأمطار في المنطقة السّاحليّة بين الشّمال والجنوب ، فهي تزداد من الجنوب إلى الشّمال كما يلي : غـزّة ٣٧٠ ملم ، يـافـا ٥٥٠ ملم ، حيفـا ٦٣٥ ملم ، أمّـا حرارتها ، فهي لطيفـة شتـاءً ، ومتوسّطها ١٣ ـ ١٨ درجة مئويّـة ، ومرتفعـة نسبيّـاً صيفاً ، مع رطوبة عالية .

أهمّ زراعاتها : الخُضَر والحمضيّات ، وأهمّ مـدنها : عكّا ، حيفا ، يافا ، غزّة ، طولكرم ، اللّد ، الرّملة ..

٢ ـ المنطقة الجبليّة والسّهول الّتي تتخلّلها : تشغل وسط فلسطين ، وتشرف في الغرب على المنطقة السّاحليّة بسفوح ضعيفة الانحدار ، بينما تشرف في الشّرق على منطقة الغور الانهداميّة بسفوح شديدة الانحدار ، وتقسم من الشّمال إلى الجنوب إلى الأقسام التّالية :

أ ـ جبال الجليل : وتبدأ من الحدود اللّبنانيّة وحتّى سهل مرج ابن عـامر ، وتتألّف من قسمين : الجليل الأعلى وفيه أعلى جبـال فلسطين ، وهو جبل الجرمق (١٢٠٨ م) ، والجليل الأدنى : وهو أقلّ ارتفاعاً ، إذ يصل في جبل طـابور إلى ٥٦٢ م .

ب ـ سهل مرج بني عـامر : وهو سهل متطـاول من الشّرق إلى الغرب بطـول ٤٠ كم ، وعرض ١٩ كم ، متوسّط ارتفاعه ٦٠ م ، يجري فيه نهر المقطّع الّذي يصبّ في المتوسّط ، ونهر جالود الّذي ينتهي بنهر الأُردن .

جـ ـ جبل الكرمل : (٥٢٦ م) قرب حيفا عند رأس الكرمل ، طوله ٢٢ كم ، وعرضه من ٦ إلى ٨ كم .

د ـ جبال نابلس والقدس والخليل : ومتوسّط ارتفاع جبال نـابلس ٩٤٠ م (جبل عيبـال) في الشّمال ، و ٨٨١ م جبل جرزيم في الجنوب ، وبينهما مدينة نـابلس في وادٍ

ارتفاعه ٥٧٠ م . أمّا جبال القدس ففيها جبل تل العاصور ١٠١٦ م ، وجبل الطُّور (أو الزّيتون) ٨٢٦ م المطل على القدس من الشّرق ، وجبل المكبّر ٧٩٥ م ويقع جنوبي القدس ، أمّا جبال الخليل (١٠٢٠ م) ، فسفوحها الشّرقيّة المطلّة على البحر الميّت ، شديدة الانحدار ، كثيرة الأخاديد ، جرداء .

مناخ المنطقة الجبليّة : تتراوح أمطارها من ٥٠٠ إلى ٩٠٠ ملم ، تتزايد من الجنوب إلى الشّمال ، الخليل ٥٠٠ ملم ، القدس ٥٨٣ ملم ، نابلس ٦٣١ ملم ، المطلّة ٩١٢ ملم ، أمّا الحرارة ، فمعدّلها دون ١٠ درجات مئويّة شتاءً ، وصيفاً ٢٤,٧ درجة .

زراعتها : تنتج المنطقة الجبليّة : الزّيتون والفواكه ، حيث تسود المنطقة حياة زراعيّة نشطة ، وخصوصاً زراعة الأشجار .

وأهم مدنها : صفد ، النّاصرة ، جِنِين ، نابلس ، رام الله ، القدس ، بيت لحم ، الخليل .

٣ - **منطقة الغور** : تمتدُّ من سفوح جبل الشّيخ شمالاً ، وحتّى خليج العقبة جنوباً ، على امتداد الحدود السّوريّة والأردنيّة مع فلسطين ، ومن أهمّ تضاريسه : سهل الحولة ، بحيرة طبريّة ، غور الأُردن ، البحر الميّت (-٣٩٢ م) وهي أخفض منطقة على سطح اليابسة ، ووادي عربة .

ورغم قلّة أمطار منطقة الغور ، إلاّ أنّه يجري فيها أهمّ أنهار فلسطين ، وهو نهر الأُردن وروافده .

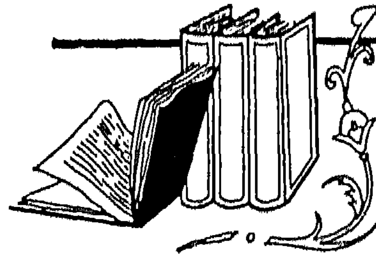
ويوصف الغور بارتفاع دائم في حرارته ، وذلك بسبب انخفاضه عن سطح البحر ، فمتوسّط درجة حرارته صيفاً من ٣٦ و ٤٠ درجة مئويّة ، وتصل عند البحر الميّت إلى ٥٠ درجة مئويّة في الظّلّ ، أمّا شتاؤه فدافئ حيث يتراوح معدّل درجة حرارته بين ١٣ و ١٧ درجة مئويّة ، أمّا أمطار الغور ، فهي قليلة بشكل عام إذا

قيست بـالمنطقـة الجبليّـة المجـاورة ، فهي في الجنوب ٥٠ ملم (في العقبـة) ، وتزداد كلّما اتّجهنا شمالاً حيث تبلغ ٥٠٠ ملم في سهل الحولة .

نشطت في الغور الحياة الزّراعيّة ، وخصوصاً زراعة الخضار الباكوريّـة ، كـذلـك تزرع فيه أشجار المناطق الحارّة ، وأهمّها : الموز ، الحمضيّات ، قصب السّكّر ، النّخيل .

وأهمّ مدن الغور : طبريّة ، بيسان ، أريحا ، العقبة .

٤ ـ **هضبَـةُ النّقب** : وتشكّـل القسم الجنـوبي من فلسطين ، متـوسّـط ارتفـاعهـا ٤٠٠ م ، يسيطر عليهـا المنـاخ الصّحراوي ، لا تتجـاوز كمّيّـات الأمطـار ٥٠ ملم في الجنـوب ، و ٢٥٠ ملم في الشّمال عنـد بئر السّبـع ، تـزرع القمـح والشّعير ، لكن العمـل الرئيسي لسكّانها فهو رعي الأغنام والإبل ، أمّا عاصمة النّقب فهي بئر السّبع .



موجز تاريخ فِلَسْطِين

في القرن التّاسع عشر ومطلع القرن العشرين

سياسيّاً واقتصاديّاً واجتماعيّاً

فلسطين ، مسقط رأس الدكتور بندلي الجوزي ، فيها وُلِد ، وفي بيئتها السّياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة عاش ، حيث رُسِمَت السّمات الأُولى الشخصيّة ، وعلى ذلك ، كان لابُدّ من استعراض العصر الّذي عاشه سريعاً .

ولكن إلى أيّ مدىً يمكننا أن نكتب تاريخاً لفلسطين ، خلال فترة معيّنة هي القرن التّاسع عشر ومطلع القرن العشرين ، حيث لم تكن هناك وحدة إداريّة بهذا الاسم ، وكانت حدود هذه المنطقة الجغرافيّة موضعاً للأخذ والرّد ؟

يقول شفيبل Schwobel : « هناك فلسطين واحدة فقط ، والكلّ يعرف أين تقع ، ولهذا فقد نظنّ أنّ إيراد معطيات أدقّ حول موقع هذا الإقليم وحدوده ، هو من فضول القول ، بيد أنّ الأمر ليس كذلك ، فالواقع أنّه لا مناص لنا من تقديم تعريف أدق لما نعنيه بـ (فلسطين) ، لأنّ تحديد هذا المدلول ليس واحداً في كلّ مكان مطلقاً »[1] .

إنّ عدم وجود وحدة إداريّة ، ووحدة جغرافيّة تميّز عرب فلسطين عن غيرهم من عرب بلاد الشّام في القرن التّاسع عشر ومطلع القرن العشرين ، يجعلنا نتحدّث عن فلسطين ، ذلك الكيان السّياسي الّذي برز كوحدة قائمة بذاتها بعد تقسيم الولايات العربيّة التّابعة للحكم العثماني إلى مناطق نفوذ بين فرنسة وبريطانية ، بموجب اتّفاقيّة

---

(١) تحوُّلات جذريّة في فلسطين ، الكزاندر شولش ، صفحة ١٩ ، منشورات الجامعة الأردنيّة ـ عمّان : ١٩٨٨ م .

سايكس ـ بيكو[1] في ربيع ١٩١٦ م ، ثمّ عُيّنت الحدود الإقليميّة في معاهدات ما بعد الحرب العالميّة الأولى .

وعندما رُسِمَت حدودُ منطقة الانتداب ، لم تكن نتاجاً اعتباطيّاً ، بل إنّ فلسطين كانت قد اتّخذت ببطء خلال القرن التّاسع عشر ، وأوائل القرن العشرين ، شكلاً محدّداً في تصوُّر سكانها ، ووعي الحكومة المركزيّة في إسطنبول أيضاً .

وكان جميع الأوربيّين تقريباً في أواخر القرن التّاسع عشر ، ومطلع القرن العشرين ، يفكّرون تفكيراً توراتيّاً تاريخيّاً ، وهم يحاولون تعيين حدود (الأرض المقدّسة) ، وبعبارة أخرى (فلسطين) ، الّتي تمتدّ من (دان) في الشّمال[2] حتّى (بئر السّبع) في الجنوب ، ومن البحر المتوسّط في الغرب حتّى بادية الشّام في الشّرق ، أي أنّه كان يشمل قطعة من الأرض المسكونة على جانبي نهر الأردن .

نشرت (المقتطف)[3] سنة ١٨٧٨ م مقالاً تحت عنوان : (خريطة فلسطين) ، وصفت فيه أعمال صندوق استكشاف فلسطين[4] ، الّذي يمسح البلاد من (دان) إلى (بئر السّبع) ، ومن الأردن حتّى البحر المتوسّط ، وقد ظهر المفعول السّياسي الكامل لهذا التّصوُّر بعد الحرب العالميّة الأولى ، عندما جرت في أعقاب مؤتمر الصّلح في فرساي سنة ١٩١٩ م مناقشة الحدود الممكنة لفلسطين (بريطانيّة ـ يهوديّة) ، وبعث لويد

---

(١) في آذار (مارس) ١٩١٦ قدِم إلى بطرسبرغ المبعوثان الخاصّان ، سايكس عن انكلترة ، وبيكو عن فرنسة ، وفي مجرى المفاوضات الّتي قاما بها ، وُضِعَت الاتّفاقيّة المعروفة بـ (اتّفاقيّة سايكس ـ بيكو) .

(٢) دان : تل القاضي ، حيث منبع نهر الدّان ، بين بانياس والمطلّة ، (انظر المصوَّر ١) .

(٣) (المقتطف) : المجلّد ٣ ، الصّفحة ١٥٤ ، لسنة ١٨٧٨ م ، والمقتطف من أمّهات المجلاّت العربيّة ، أسّسها في بيروت يعقوب صرّوف وفارس نمر سنة ١٨٧٦ ، ثمّ نقلاها إلى القاهرة ، توقّفت عن الصّدور سنة ١٩٥٢ م .

(٤) The Palestine Exploration Fund

جورج[1] برقيّة إلى لندن ، طلب فيها إرسال نسخة من كتاب جورج آدم سميث[2] ، المعنون تحت اسم : Historical Geography of The Holy Land ، وكذلك الأطلس الملحق به ، إلى كُلّ مشترك من المشتركين في مؤتمر الصُّلح ، لكي يتسنّى النّظر في الحدود الدّقيقة الّتي تترتّب في الواقع من (دان) ، إلى (بئر السّبع) .

الحدود الغربيّة (البحر المتوسّط) ، لم تكن تمثّل مشكلة في وقت من الأوقات .

أمّا الحدود الشّرقيّة ، فبعض الأوربيّين جعلوا نهاية الأرض المقدّسة عند نهر الأُردن ، وآخرون جعلوا شرائط عريضة من الأرض في بلاد شرقي الأُردن ، قلّت أو كثُرت ، تابعة لفلسطين ، فجنوبي شرقي الأُردن يتبع نابلس في نطاق سنجق البَلْقاء .

بَيْدَ أنّ حماية طريق الحج ، كانت تُعَدُّ على الدّوام من أبرز الواجبات الّتي يضطلع بها حاكم دمشق ، ومن هنا كان الأمر يقتضي بالفعل الإشراف الإداري المباشر لدمشق على هذه المنطقة ، وتمّ وضع ترتيب إداري نهائي سنة ١٨٨٧ م ، واتّجهت شرقي الأُردن بوصفها الجزء الجنوبي من ولاية الشّام تماماً نحو دمشق ، أمّا المنطقة الواقعة بين نهر الأُردن والبحر المتوسّط ، فقد انقسمت منذ الرّبع الأخير من القرن التّاسع عشر ، إلى قسمين : الجنوب ، وكان يتبع بوصفه سنجق القدس المستقل منذ سنة ١٨٧٤ م البابَ العالي في اسطنبول مباشرة ، والشّمال ، الّذي أصبح تابعاً لولاية بيروت منذ سنة ١٨٨٧ م ، وبهذا المعنى الإداري ، أصبح نهر الأُردن يشكّل الحدّ الشّرقي لفلسطين .

---

(١) لويد جورج Lioyd George : [١٨٦٣ - ١٩٤٤ م] ، رجل دولة إنكليزي ، ورئيس حزب الأحرار ، رئيس وزراء : ١٩١٦ - ١٩٢٢ ، كان له دور مهم في مفاوضات مؤتمر الصُّلح في فرساي سنة ١٩١٩ م .

(٢) جورج آدم سميث Adam Smith : [١٨٤٠ - ١٨٧٦ م] ، أثري إنكليزي ، اكتشف في نينوى (العراق) اللّوح المتمّم لقصّة الطّوفان باللّغة المسماريّة ، وهو الآن في المتحف البريطاني .

إنَّ غـزّة كانت تـدار من القـدس ، والعريش كانت تـدار من القـاهرة[١] ، وكانت النّقب وسيناء للبدو الّذين اعترفوا للسُّلطان العثماني بالتّبعيّة ، ولكنّهم مـا كانوا يـأبهون للحكّـام المصريّين والعثمـانيّين سواء بسـواء ، إذ كانت تحكم حيـاتهم ونمـط عيشهم قـوانين أُخرى[٢] ، لكن مصر كانت لهـا بـالفعل مصلحـة في حكم سينـاء ، من حيث إنَّ طريـق الحج من السُّويس إلى مكّة كان يمرُّ من سينا

أمّا مسألة (حدود فلسطين) الشّماليّة ، فقد وحّد البابُ العالي فلسطينَ بـأكملهـا ، أي سنـاجق القـدس ونـابلس وعكّـا تحت لواء حـاكم عكّـا ، لتعزيز الجبهـة العسكريّـة والسّياسيّة في وجه أطماع محمّد علي باشا[٤] .

ومؤتمر لندن ١٨٤٠/٩/١٧ م عندمـا عرض على محمّـد علي بـاشـا أن يحكم عكّـا مـدى الحياة ، وأن يعهد إليه بإدارة سوريّة الجنوبيّة ، عيّن خطَّ الحدود كالتّالي : « هذا الخطُّ الّذي يبدأ عند رأس النّاقورة ، على شاطئ البحر المتوسّـط ، سيمتـدُّ مبـاشرة من هنـاك حتّى مصبِّ نهر سَيْسَبـان في أقصى الطّرف الشّمالي لبحيرة طبريّـة ، وسـوف يمرُّ على امتـداد الشّـاطئ الغربي للبحيرة ، ويتبع الضّفّـة اليمنى لنهر الأُردن ، والشّـاطئ الغربي للبحر الميّت ، ومن هنـاك سيمتـدُّ مستقيمـاً إلى البحر الأحمر ، حيث يلتقي معـه عنـد النّقطة الشّماليّة لخليج العقبـة ، ومن ثمَّ سيتبع الشّـاطئ الغربي لخليج العقبـة ، والشّرقي

---

(١) في منتصف الطّريق بين غزّة والعريش ، كان يرتفع نحو السّماء عمودان قديمان من الغرانيت (عُمُد رفح) ، وهمـا عـلامـة الحدود بين مصر وفلسطين ـ سوريّـة ، (انظر مصوّر : ولايـة الشّـام سنـة ١٨٨٠ م) .

(٢) تحوُّلات جذريّة في فلسطين ، ص ٢٢ ، عن : (تاريخ بئر السّبع) ومصادر أُخرى .

(٣) من السُّويس إلى النّخل Kalaat en Nachl ، فالعقبة ، حيث يتّجه بعدها جنوباً إلى الحجاز .

(٤) تحوُّلات جذريّة في فلسطين ، ص ٢٣ ، عن :

. Abu Manneh, «The Rise of Sanjak of Jarusalem»

لخليج السُّويس لغاية السُّويس »[1] ، وهكذا فقد كان محمّد علي باشا سيتولّى بوصفه حاكمًا لعكّا ، إدارة فلسطين حتّى رأس النّاقورة في الشّمال ، وحتّى نهر الأُردن والبحر الميّت في الشّرق ، بالإضافة إلى النّقب وسيناء .. بيد أنّ هذا الامتداد للحدود ، لم يتحقّق لا في ظلّ محمّد علي باشا ، ولا في ظلّ خلفائه .

وفي تموز (يوليو) سنة ١٨٧٢ م ، أعلن القناصل الأُوربيّون ارتياحهم الكبير لتوحيد سناجق القدس ونابلس وعكّا في ولاية القدس ، أو في ولاية فلسطين ، فأعلن الباب العالي في إسطنبول إلغاءَ ولاية القدس ، وجعل متصرفيّة القدس تابعة لدمشق .

لماذا وَحّدت ؟ ولماذا فُصِلَت ؟

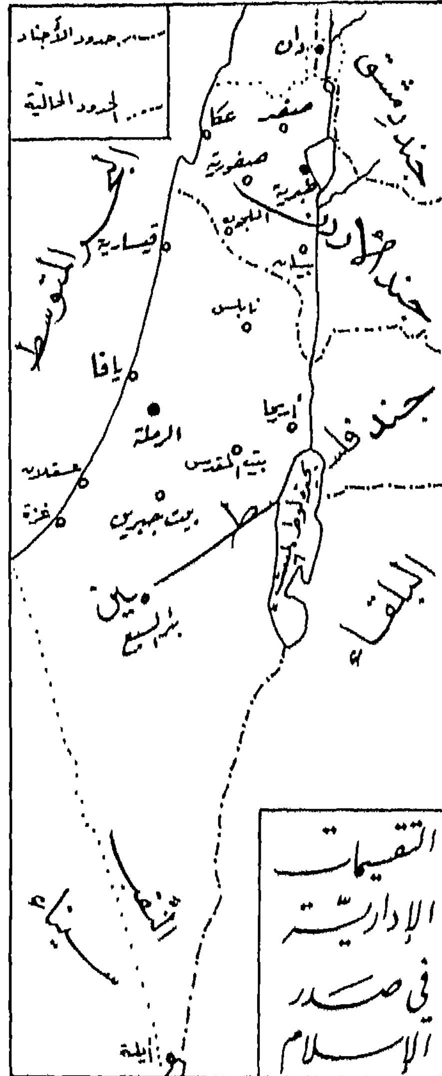
إنّ نظرة الأُوربيّين التّرحيبيّة لإقامة ولاية فلسطين ، من حيث إنّها الولاية الّتي شملت جميع الأماكن المقدّسة (المسيحيّة واليهوديّة) ، كانت النّظرة نفسها الّتي دعت الباب العالي إلى إلغاء الإجراء الّذي اتّخذه ، فالأُوربيّون يرغبون في التّعامل مع حاكم واحد فقط يتبع إسطنبول مباشرة ، وأراد الباب العالي أن يقيم تقيدات إداريّة في وجه التّغلغل الأُوربي في الأرض المقدّسة .

وهكذا .. فإنّ الباب العالي قام منذ سنة ١٨٣٠ م بعدّة محاولات لتوحيد فلسطين إداريّاً ، ولحكمها دون وساطة واليَيْ بيروت ودمشق ، ولكنه تباطأ في ذلك لكي لا يسهّل الأُمور أمام التّغلغل الأُوربي ، وهو عندما وضعَ القدسَ تحت حكم إسطنبول المباشر ، رأى في ذلك حلاً وسطاً .

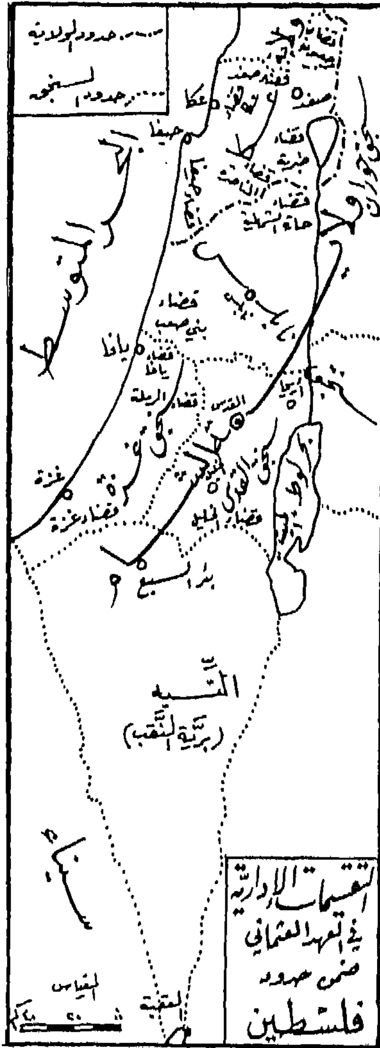
وَصَفَ القنصلُ الألماني سنة ١٨٨٢ م فلسطينَ (التّاريخيّة) ، وفلسطين (السّياسيّة) كما يلي : « إنّ فلسطين التّاريخيّة ، الّتي تمتدُّ في الشّمال حتّى سفح جبل لبنان ، وفي الجنوب حتّى حافة الصّحراء ، والّتي يحدُّها من الغرب البحر المتوسّط ،

---

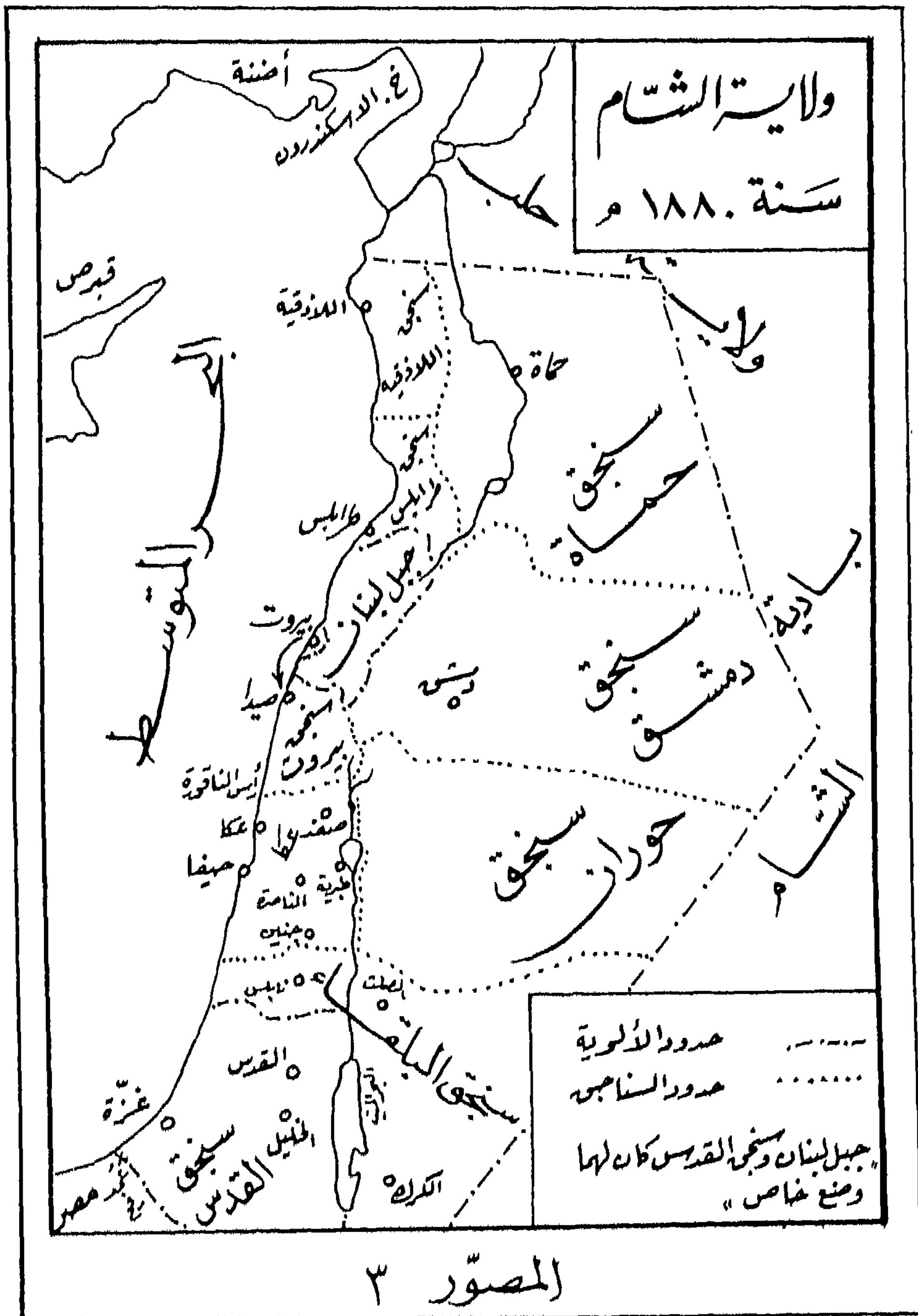
(١) تحوّلات جذريّة في فلسطين ، ص ٢٣ ، عن : Hurewitc, I, 117



المصور «١»



المصور «٢»



ولاية الشام
سنة ١٨٨٠ م
أضنة
خ. الاسكندرون
حلب
قبرص
اللاذقية
سنجق اللاذقية
حماة
سنجق حماة
ولاية
سنجق طرابلس
طرابلس
جبل لبنان
بيروت
صيدا
سنجق بيروت
دمشق
سنجق دمشق
بادية الشام
رأس الناقورة
عكا
صفد
حيفا
طبرية
الناصرة
جنين
نابلس
السلط
سنجق حوران
سنجق البلقاء
القدس
غزة
الخليل
الكرك
سنجق القدس
حدود الألوية
حدود النواحي
"جبل لبنان وسنجق القدس كان لهما وضع خاص"

المصوّر ٣

التقسيمات الإدارية
لفلسطين
في
عهد الانتداب

الحدود الدولية
حدود الألوية
حدود الأقضية

سورية
لبنان
عكا
صفد
الناصرة
طبرية
حيفا
جنين
نابلس
طولكرم
يافا
الرملة
رام الله
القدس
غزة
الخليل
بئر السبع
العقبة
البحر المتوسط
شرق الأردن
مصر

المصوّر «٤»

ومن الشّرق طريق الحج الرّئيس من دمشق إلى مكّة ، والواقع على الجانب الآخر من نهر الأردن ، تشمل منطقة تبلغ مساحتها ٤٦٥ ميلاً مربّعاً ، وتختلف عن هذه حدود ولاية فلسطين السّياسيّة ، حدود لواء القدس اختلافاً جوهريّاً ، إذ أنّ هذه الأخيرة تمتدّ شمالاً حتّى مناطق نابلس ، وغرباً حتّى ساحل البحر المتوسّط ، وفي الجنوب تتّخذ الحدود مع مصر شكلَ قوسٍ كبير يمتدّ عبر وادي العريش حتّى نقطة قريبة من خليج العقبة ، بينما يشكّل وادي عَرَبَة والبحر الميّت ونهر الأردن الحدّ الفاصل من جهة الشّرق ، وتضمّ هذه الرّقعة الّتي يبلغ طولها حوالي ٣٠٠ كيلومتر ، وعرضها ١٥٠ كيلومتراً ثمانية آلاف متر مربّع تقريباً من الأراضي القابلة للزّراعة ، وتمثّل البرّيّة الّتي تنصب فيها العشائر البدويّة الّتي لا تعترف بسيادة دولة على مضارب خيامها ، الأرض الباقية الّتي تضمّ ٣٧ ألف كيلومتر مربع »[١] .



فِلَسْطين

في مطلع القرن التّاسع عشر

تمهيدٌ : كانت جميع الأقطار العربيّة تقريباً خاضعة للسّيطرة العثمانيّة[٢] ، في الرّبع الأوّل من القرن السّادس عشر الميلادي ، مكوّنة جزءاً من الإمبراطوريّة العثمانيّة[٣] .

---

(١) تحوّلات جذريّة في فلسطين ، ص ٢٦ ، عن : Porath, The Emergence 6 - 9 .

(٢) مؤسّس الدّولة العثمانيّة أرطغرل بن سليمان شاه ، قائد إحدى قبائل التّرك النّازحين من سهول آسية الغربيّة إلى بلاد آسية الصّغرى ، ولما توفي أرطغرل سنة ٦٨٧ هـ الموافقة ١٢٨٨ م خلفه ابنه (عثمان) وإليه نُسبَت (الدولة العثمانية) ، [تاريخ الدّولة العَليّة العثمانيّة لمحمد فريد المحامي ، ص ١١٣ وما بعدها ، الطبعة الثانية ١٩٨٣ ، دار النفائس - بيروت] .

(٣) بدأ الفتح العثماني للبلاد العربيّة بشمالي العراق سنة ١٥١٤ م ، ثمّ فتح سليم الأوّل بلاد الشّام ١٥١٦ م ، ومصر ١٥١٧ م ، وفي سنة ١٥١٧ م أعلن خير الدين بربروسّا ولاءَ الجزائر للدولة العثمانية ..

وكانت امتيازات الدُّول الأجنبيَّة ، ضمن أراضي الإمبراطوريَّة العثمانيَّة ، في بادئ الأمر بمثابة تسهيلات يمنحها السُّلطان العثماني من جانبه ـ وطواعية ـ إلى التُّجار الأجانب ، وكان باستطاعته سحبها في أيِّ وقت شاء . ومُنِحَت امتيازاتٌ أُولى إلى التُّجار الإيطاليين في القرن الرَّابع عشر ، فخوَّلتهم الإقامة في مدن الإمبراطوريَّة العثمانيَّة ، وتعاطي التِّجارة ، وممارسة طقوسهم الدِّينيَّة ، وكانت الامتيازات تنصُّ على ضمان الممتلكات ، وتحديد كمِّيات الرُّسوم الَّتي كان يتوجَّب عليهم دفعها[1] .

وفي القرن السَّادس عشر اكتسبت الامتيازات سمةَ الاتفاقيَّات الثُّنائيَّة ، ووُقِّعَت أوَّل اتِّفاقيَّة من هذا القبيل في سنة ١٥٣٥ م بين السُّلطان سليمان القانوني[2] ، وفرنسيس الأوَّل[3] ملك فرنسة ، ولم يحصل الفرنسيُّون بموجبها على حقِّ التِّجارة فحسب ، بل وعلى جملة من الامتيازات الأُخرى أيضاً ، إذْ أصبح باستطاعة سفن سائر الأمم دخول الموانئ العثمانيَّة تحت حماية العَلَم الفرنسي فقط ، ومُنِحَ الزُّوَّار الفرنسيُّون حرِّيَّة زيارة الأماكن المسيحيَّة المقدَّسة ، والإشراف عليها ، وحرِّيَّة ممارسة طقوسهم الدِّينيَّة ، وفي سنة ١٦٠٤ م عُقِدَت اتِّفاقيَّات مماثلة مع الإنكليز وأهالي البندقيَّة[4] ، الَّذين شرعوا بالتِّجارة في الدَّولة العثمانيَّة تحت حماية عَلَمهم الخاصِّ بهم ، ثمَّ مُنِحَت حقوقٌ مماثلة لرعايا دول أوربيَّة أخرى[5] .

وعندما أخذ الوهن يدبُّ في أطراف الإمبراطوريَّة العثمانيَّة ، بدأت الدُّول الأوربيَّة تنظر إلى الامتيازات وكأنَّها حقوقٌ خاصَّة مُسَلَّم بها ، ولا يمكن فسخها ، ثمَّ

---

(١) تاريخ الأقطار العربيَّة الحديث ، لوتسكي ، ص : ٢١

(٢) سليمان (الأوَّل) القانوني ، عاشر السَّلاطين العثمانيين : [١٥٢٠ ـ ١٥٦٦ م] ، بلغت الإمبراطوريَّة العثمانيَّة في عهده أوجها .

(٣) فرنسوا الأوَّل : [١٤٩٤ ـ ١٥٤٧ م] ، ملك فرنسة ١٥١٥ م ، أقرَّ الفرنسيَّة لغة البلاد الرَّسميَّة عوضاً عن اللاَّتينيَّة .

(٤) البندقيَّة Venezia : مدينة ومرفأ في شمالي إيطالية على الأدرياتيك .

(٥) تاريخ الأقطار العربيَّة الحديث ، ص : ٢١

حصلت هذه الدّول على إمكانيّة توسيعها ، لكي تشمل أيضاً من يتعامل معها من السُّكان المحليّين ، وبفضل الامتيازات أُعفي الأشخاص الّذين تمتّعوا بها من الضّرائب ، واستثنوا من سلطة المحاكم العثمانيّة الشّرعيّة ، فغدت ممتلكاتهم آمنة من المصادرة[1] .

واستمر نظام الامتيازات حتّى مطلع القرن العشرين ، ولا غرابة أن تغتنم الدّولة العثمانيّة نشوب الحرب العالميّة الأولى سنة ١٩١٤ م ، فتسرع إلى إعلان إلغاء الامتيازات الأجنبيّة ، دون موافقة الدّول صاحبة العلاقة[2] .

لقد استُغلّ نظامُ الامتيازات من قبل الدّول الأوربيّة ، كوسيلة من وسائل الاستعباد الاستعماري للبلدان العربيّة ، فعرقل تطوّرَ الرّأسمال الوطني ، ووضع التُّجّار المحليّين في موقع غير متكافئ في الحقوق مع التُّجّار الأُوربيّين ، ففي منتصف القرن التّاسع عشر مثلاً ، كان التّاجر الأجنبي يدفع ٣٪ ضريبة على بضاعته ، ويدفع التّاجر المحلّي من ١٠ ـ ١٢٪[3] .

وكان التُّجّار الأجانب يدفعون رسوماً جمركيّة تفرض على بضائعهم مرّة واحدة عند دخولها البلاد فقط ، أمّا التُّجّار المحليُّون ، فكانوا يدفعون الرُّسوم مرّات عديدة ، كلّما مرّت بضائعهم في دوائر الجمارك الدّاخليّة العديدة .

---

(١) عندما كانت الدّولة العثمانيّة في أوج مجدها وقوّتها ، منحت بعض رعايا الدّول الأوربيّة إعفاءً من القوانين المحليّة أثناء إقامتهم في بعض الموانئ ، أو محطّات القوافل للتّجارة ، وأوّل هذه الامتيازات ماأعطاه السُّلطان سليمان القانوني سنة ١٥٣٥ م ملكَ فرنسة فرانسوا الأوّل ، ثمّ نالته إليزابيت ملكة إنكلترة سنة ١٥٨٠ م من السُّلطان مراد الثّالث بلغته المتعالية : « قد أعطينا ووهبنا .. » ، لكن هذه اللهجة تغيّرت بعد قرنين ، عندما أخذت روسية امتيازات مهمّة ، وسرعان ماتغيّر الغرض الأساسي من الامتيازات ، وهو تسهيل التّجارة ، فلم تكتف الدُّول الأجنبيّة بعد ذلك بحماية رعاياها ، بل ادّعت فرنسة حماية النّصارى الكاثوليك في جميع أنحاء الدّولة العثمانيّة وادّعت بريطانية حماية اليهود في فلسطين والبروتستانت في جميع الولايات العثمانيّة .. (الموسوعة الفلسطينيّة : ٢٩٤/١) .

(٢) وبقيت الامتيازات في مصر حتّى سنة ١٩٣٧ م .

(٣) الموسوعة الفلسطينيّة : ٢٩٤/١ ، وتاريخ الأقطار العربيّة الحديث ، ص ٢١

حَمْلةُ نابليون على سُوريَّة :

احتلَّ نابليون[1] مصر ، للضَّغط على بريطانيـة بسيطرتـه على طريق الهنـد ، دُرَّة التَّاج البريطاني ، وفي شباط (فبراير) سنـة ١٧٩٩ م ، قرَّر القيـام بحملـة على سوريَّـة بعدما انقطع اتِّصاله بفرنسة[2] ، والزَّحف مع جيشه نحو الشَّمال إلى آسية الصُّغرى .

استولى نـابليون على العريش وغزَّة ويـافـا وحيفـا دونما أيِّ صعوبـة ، واقترب في أواسط آذار (مارس) من أسوار عكّا ، وفي ١٦ نيسان (إبريل) قهرَ نابليونُ عند جبل (طابور) في الجليل ، جيشاً عثمانياً ، أرسله باشا دمشق لمحاربته .

وكان يبـدو سير الحملـة موفّقـاً ، إلاَّ أنَّهـا اصطـدمت بـأسوار عكّـا الَّتي سَـدَّت على نابليون طريق الشَّمال ، ولم يكن لدى الفرنسيِّين مافيـه الكفـايـة من مـدافع الحصـار ، فحـاولوا جلبهـا بحراً ، غير أنَّ القـائـد الإنكليزي (سيـدني سميث)[3] نجح في الاستيلاء عليهـا وهي في طريقهـا إلى الفرنسيِّين ، وعلى إثر ذلـك ، دخـل الأُسطـول الإنكليزي بقيادة سميث خليجَ عكّا ، ليدافع عنها بنيران مدافعـه ، وحـاول نـابليون أكثر من مرَّة اقتحام أسوار عكّا ، إلاَّ أنَّ جميع هجماته مُنيَت بالفشل ، وبعد هـذا الفشل ، ومع تفشِّي الطَّاعون في جنده ، قرَّر بعد مضي سبعين يوماً[4] على الحصار ، العودةَ إلى مصر ، وبهذا انتهت الحملة على سوريَّة بإخفاق الفرنسيِّين التَّام[5] .

---

(١) نابليون بونـابرت Napoléon : [١٧٦٩ ـ ١٨٢١ م] ، ولـد في أجـاكسيو (كورسيكا) ، اشتهر في حملـة إيطالية الأولى ١٧٩٤ والثانية ١٧٩٦ ، قاد حملة على مصر سنة ١٧٩٨ ، فـانتصر في معركـة الأهرام ، عـاد إلى فرنسة ١٧٩٩ ليصبح القنصل الأوَّل ، ثمَّ إمبراطوراً سنة ١٨٠٤ م ، نفي إلى جزيرة القـدِّيسـة هيلانـة بعد معركة واترلو ١٨١٥ ، حيث توفي فيها .

(٢) وتحطَّم أسطولـه في أبي قير (شرقي الإسكنـدريـة) على يـد الأسطول الإنكليزي (أوَّل آب « أغسطس » ١٧٩٩ م) .

(٣) سيدني سميث : [١٧٦٤ ـ ١٨٤٠ م] ، قائد الأسطول الإنكليزي في البحر المتوسِّط .

(٤) استمر الحصار من ١٨ آذار (مارس) إلى ٢٠ أيَّار (مايو) عام ١٧٩٩ م .

(٥) تاريخ الأقطار العربيَّة الحديث ، ص : ٥٣

فِلَسْطين بَعْدَ مُغادَرَةِ الحمْلَةِ الفرنسيّة :

اشتـدَّت بصورة محسوسـة قوَّةُ أحمـد الجزَّار وسطـوتـه ، بعـدمـا عَـزا لنفسـه شرفَ الانتصـار على نـابليون ، وبعـدمـا وقفت مـدينـة عكّـا بوجـه جيش أوربّي لم يُغْلَب ، وصدَّت هجوم جيش حديث لم يذق طعم الهزيمة .

وبعزيمة جديدة قويَّة ، كان الجزَّار ـ وهو ثمل بالانتصار ـ يسعى إلى وضع سوريَّة برمَّتها تحت سلطته ، فخاض حروباً متواصلة ضدّ بـاشوات دمشق وطرابلس ، آملاً ضمّ ممتلكاتها إليه ، وطبيعي أنَّ السُّلطـان سليم الثـالث ، الَّـذي خـاض معـاركَ ضـدَّ ميول ولاته الانفصاليَّة ، من أن يحدِّد سلطة الجزَّار ونفوذه بكلّ الوسائل .

وفي الوقت ذاته ، وجد الجزَّار منافساً جديـداً لـه في شخص صنيعتـه وتـابعـه بشير الثَّاني[1] الأمير اللُّبناني ، الَّذي وحَّد لبنـان كلَّـه تحت سلطتـه ، فقرَّر التَّخلُّص من هـذا المنافس ، إلاَّ أنَّ الباب العالي قرَّر مساندة بشير الثَّاني ، فأصبح خاضعاً مباشرة للبـاب العالي ، متخلِّصاً من التَّبعيَّة لأحمد الجزَّار ، وفي سنـة ١٨٠٣ م عقـد معـه صلحـاً ، ودفع بشير الثَّـاني لـه ٤٠٠ ألف قرش[2] ، عن الضَّرائب المتـأخِّرة للسَّنـوات المنصرمـة ، و ٥٠٠ ألف قرش كأتاوة سنويَّة .

وفي نيسان (إبريل) ١٨٠٤ م توفي أحمد الجزَّار ، ليحكم (سليمان بـاشـا) ـ قـائـد جيش الجزَّار ـ جنوبي سوريَّة خمسة عشر عاماً : [١٨٠٤ ـ ١٨١٩ م]

واشتدَّ التَّذمُّر في سوريَّة ضدَّ تجـديـدات السُّلطـان محمود الثَّـاني وإصلاحـاتـه ، في العقـد الثَّـاني من القرن التَّـاسع عشر ، خصـوصـاً عنـدمـا أدخـل المـلابس الأوربيَّـة ،

(١) بشير بن قـاسم بن عمر الشهـابي : [١٧٦٠ ـ ١٨٥٠ م] أكبر الأُمراء الشّهـابيِّين ، ولـد في قريـة (غزير) بظـاهر بيروت ، وعنـدمـا كبر اتَّصل بـأحمـد الجزَّار فقرَّبه ثمَّ ولاه إمـارة لبنـان ، فكانت لـه حـوادث كثيرة ، وعُزِل مرَّات ، وأُعيد ، آزر إبراهيم باشا فقبض عليه الإنكليز عندمـا عـاد إبراهيم من سوريَّـة ، ونفوه إلى مالطا ، ثم انتقل إلى اسطنبول وتوفي فيها ، (الأعلام ٥٧/٢) .

(٢) القرش : عملة نقدية كانت متداولة في الدولة العثمانية ، كان يعادل في ابتداء القرن التاسع عشر ١/٤ فرنك أو ١/٥ روبل فضّي .

والطَّربوش بدل العمامة ، فَعُدَّ ذلك (فَرْنَجَةً للدَّولة) ، وأتبع ذلك سنة ١٨٢٦ م ، بإلغاء نظام الإقطاعيَّات العسكريَّة رسميّاً ، وتصفية فيلق الانكشاريَّة .

وسادت إضرابات في القدس ، وبيت لحم ، ونابلس .. ورفض السُّكّان دفع الضَّرائب الباهظة ، وفي سنة ١٨٣٠ م ، قامت انتفاضة أخرى في نابلس .

أدرك محمَّد علي[1] باشا ـ والي مصر ـ ضعف السُّلطان العثماني بعد حرب اليونان الفاشلة[2] ، وأنَّ نزاعه مع السُّلطان ستكون سوريَّة ميدانه الطَّبيعي ، فهي من أغنى أقاليم الإمبراطوريَّة العثمانيَّة ، تنتج خامات الحرير ، والصُّوف ، والقمح ، وزيت الزيتون ، والفواكه ، والأخشاب الضَّروريَّة لصنع السُّفن ... وبمقدور سوريَّة أن تصبح سوقاً ملائمة للصِّناعة المصريَّة النَّامية .

الْحَمْلَةُ على سُوريَّة [١٨٣١ ـ ١٨٤٠ م] :

إنَّ حرب الشَّام تُعَدُّ حرباً دفاعيَّة ، وحرباً هجوميَّة ، أمَّا كونها حرباً دفاعيَّة ، فلأنَّ محمَّد علي يعلم أنَّ الدَّولة العثمانيَّة لا تفتأ تسعى لاسترداد مركزها في مصر ما وجدت سبيلاً إلى ذلك ، وأنَّ السُّلطان محمود الثَّاني لم يكن خالص النِّيَّة نحوه ، بل كان ينظر بعين الحسد إلى تقدُّم مصر وما كسبته من المكانة العالية ، ولم ينسَ كذلك أنَّ مصر امتنعت عن مساعدته في حربه مع روسية سنة ١٨٢٨ م ، فحقد السُّلطان على محمَّد

---

(١) محمد علي بن إبراهيم أغا بن علي [١٧٧٠ ـ ١٨٤٩ م] : مؤسِّس آخر دولة ملكيَّة بمصر ، ألباني الأصل ، قدم مصر وكيلاً لرئيس قوَّة من المتطوِّعة الألبان لنجدة لردِّ الفرنسيين ، فشهد حرب أبي قير ، وجامل المماليك ، وعندما أرهق المماليك الشعب بالضَّرائب ، فقرَّر سكان القاهرة في ١٢ آذار (مارس) ١٨٠٤ م الإطاحة بهم ، استغلَّ محمَّد علي الموقف ، فانحاز إلى الثُّوَّار فنمت شعبيَّته وتعاظمت ، وعندما اندلعت الثَّورة ضدَّ الوالي العثماني (خورشيد باشا) أيار (مايو) ١٨٠٥ م وطرد الشَّعب الانكشاريَّة وأطاح بخورشيد باشا ، نادى بمحمَّد علي والياً على مصر ، فشرع بإنشاء جيش نظامي قوي ؛ [عصر محمَّد علي لعبد الرَّحمن الرافعي ، ص ٣١ وما بعدها ، طبعة دار المعارف بمصر ، ١٩٨٢ م] .

(٢) الحرب اليونانية : [١٨٢١ ـ ١٨٢٨ م] ، ومشاركة جيش محمَّد علي فيها : [١٨٢٤ ـ ١٨٢٧ م] .

علي ، وأخذ يتربّص به لينتقم منه وينتزع منه حكم مصر ، ولم يكن يحول بينه وبين ذلك سوى ارتباك أحوال الدّولة العثمانيّة وضعفها ، فإذا ماسنحت الفرصة ، فإنّه لا يتردّد في التّخلّص من خصمه ، فطموح محمّد علي إلى فتح سوريّة ، كان الغرض منه أن يدافع عن مصر ، وعن مركزه فيها[1] ، فالحرب السّوريّة من هذه الوجهة ، كانت حرباً دفاعيّة .

ولكنها كانت أيضاً حرباً هجوميّة ، ففكرة ضمّ سوريّة إلى مصر كانت تختلج في نفس محمّد علي منذ سنة ١٨١٠ م ، ولقد صرفه عنها انهاكه في الحرب الوهابيّة : [١٨١١ ـ ١٨١٩ م] ، ثمّ فتح السّودان : [١٨٢٠ ـ ١٨٢٢ م] ، ثمّ الحرب اليونانيّة : [١٨٢٤ ـ ١٨٢٧ م] ، فلما انتهى من هذه الأخيرة ، أخذ يفكّر في إنفاذ فكرته القديمة .

ومن الرّاجح الّذي تؤيّده الحوادث ، أنّ مشروع محمّد علي كان يتناول إنشاء دولة عربيّة مستقلّة في مصر ، تضمّ إليها البلاد العربيّة في إفريقية وآسية ، خصوصاً بعد فتح السّودان ، وبسط نفوذه على معظم أجزاء الجزيرة العربيّة .

ويؤيّد هذه الفكرة رجحاناً ، بعض تصريحات فاهَ بها إبراهيم باشا خلال الحرب السّوريّة ، فقد ذكر المسيو كادلفين وبارو في كتابها أنّه بينما كان الحصار مضروباً على عكّا ، سُئِلَ إبراهيم باشا إلى أيّ مدى تصل فتوحاته إذا تمّ له الاستيلاء على عكّا ؟! فقال : إلى مدى ما يتكلّم النّاس وأتفاهم وإيّاهم باللّسان العربي[2] .

وقابل البارون (لبوألكونت) إبراهيم باشا بالقرب من طَرَسُوس[3] بالأناضول سنة ١٨٣٣ م ، بعد عودته من كوتاهيّة ، وكان له معه حديث طويل ، فذكر عنه : « إنّ إبراهيم باشا يجاهر علناً بأنّه ينوي إحياء القوميّة العربيّة ، وإعطاء العرب حقوقهم ،

(١) عصر محمّد علي ، ص : ٢١٧

(٢) كادلفين وبارو : حرب مصر ضدّ الباب العالي في سوريّة والأناضول سنة ١٨٣١ ـ ١٨٣٣ م ، ص : ٤١٢

(٣) طَرَسُوس : مدينة بثغور الشّام ، شمالي خليج الإسكندرون ، (معجم البلدان ٢٨/٤) .

وإسناد المناصب إليهم سواء في الإدارة ، أو في الجيش ، وأن يجعل منهم شعباً مستقلاً ، ويشركهم في إدارة الشّؤون الماليّة ، ويعودهم سلطة الحكم كما يتحمّلون تكاليفه ، وتتجلّى فكرته هذه في منشوراته ومخاطباته لجنوده في الحرب الأخيرة بسوريّة ، فإنّه لا يفتأ يذكرهم بمفاخر الأمّة العربيّة ومجدها التّالد ، ويتّصل بهذا المعنى مجاهرته بأنّ كلّ البلدان العربيّة يجب أن تنضم تحت لواء أبيه ، وقد قال لي إنّ أباه يحكم مصر والسّودان وسوريّة ، ومن الواجب أن يضمّ العراق إلى حكمه ، وإنّ جزيرة العرب تابعة لأبيه الّذي يعمل الآن على إتمام فتحها ، وهو في صِلاتِهِ مع أهل البلاد يستخدم اللّغة العربيّة ، ويعدُّ نفسه عربيّاً ، ولذلك لا ينفك يطعن في الأتراك ، وقد لاحظ عليه ذلك أحد جنوده ، وخاطبه بتلك الحرّيّة الّتي كان يشجّع رجاله عليها ، وسأله كيف يطعن في الأتراك وهو منهم ؟! فأجابه إبراهيم باشا على الفَوْر : أنا لست تركيّاً ، فإنّي جئت مصر صبيّاً ، ومنذ ذلك الحين قد مصّرتني شمسها ، وغيّرت من دمي ، وجعلته دماً عربيّاً »[1] .

وكان لمحمّد علي باشا في فتح سوريّة أغراض اقتصاديّة ، فإنّه أراد استغلال مواردها من الخشب وخامات المعادن ، خصوصاً بعد أن أنشأ المصانع الكبرى .

أمّا السّبب المباشر للحملة ، فلقد استغلّ محمّد علي باشا الخلاف القائم بينه وبين عبد الله باشا والي صيدا[2] ، بسبب ستّة آلاف من الفلاّحين المصريّين ، الّذين كانوا قد هربوا سنة ١٨٣١ م من التّجنيد ، ولجؤوا إلى فلسطين ، وطلب محمّد علي باشا من عبد الله باشا إرجاع الفلاّحين الفارّين إلى مصر قَسْراً ، إلاّ أنّ عبد الله باشا رفضَ تسليمهم إلى مصر بحجّة معقولة ، وهي : أنّ جميع السّكان بوصفهم رعيّة لعاهل واحد هو السّلطان ، يستطيعون العيش في أيّ مكان كان من الإمبراطوريّة العثمانيّة ، وعندئذ بدأ محمّد علي باشا بعمليّاته الحربيّة ، مع التّظاهر بالإخلاص للسّلطان والولاء له .

---

(١) كتاب مهمّة البارون ، (لبوألكونت) ، ص : ٢٤٨ ـ ٢٤٩

(٢) ولاية صيدا قاعدتها عكّا ، لذلك تسمّى أحياناً ولاية عكّا .

فتحت مدن فلسطين أبوابها لجيش محمّد علي الّذي يقوده ابنه إبراهيم باشا ، وحسب توقُّعات محمّد علي الصّائبة[1] ، ستتركّز المقاومة في عكّا ، ودخلت قوات إبراهيم باشا القدس ، مع خشية السُّكان أن يبيح المصريُّون المدينة للنّهب ، ويدنّسوا المقدّسات ، ولكن إبراهيم باشا وجّه إلى القاضي الشّرعي ، والمفتي ، وشيخ مسجد عمر .. وكلّ السُّلطات ، الكتاب التّالي :

« في القدس معابد وأديرة وأماكن للحجّ تأتي إليها من أبعد البلدان كلّ الشّعوب المسيحيّة واليهوديّة من مختلف الطّوائف الدّينيّة ، وكانت تُرْهِقُ هؤلاء الحجّاج إلى الآن ضرائب ضخمة في أداء نذورهم ، وفرائض دينهم ، ورغبة منّا في استئصال هذا العَسْف ، نأمر كلّ متسلّمي إيالة صيدا[2] ، وسنجقي القدس ونابلس بإلغاء هذه الضّرائب على كلّ الطُّرق بلا استثناء ، يقيم في أديرة القدس وكنائسها رهبان ومتعبّدون لقراءة الإنجيل ، وأداء الطّقوس الدّينيّة لمعتقداتهم ، والعدل يقتضي أن تُعفى من كلّ الضّرائب الّتي فرضتها عليها السُّلطات المحلّيّة بشكل تعسُّفي ، ولهذا نأمر بأن تُلغى إلى الأبد كلّ الضّرائب الّتي تُجْبَى من أديرة ومعابد كلّ الشّعوب المسيحيّة المقيمة في القدس من يونانيّين وفرنجة وأرمن وأقباط وغيرهم ، وكذلك الضّرائب القديمة والجديدة الّتي يدفعها الشّعب اليهودي ، ومهما كانت الذّريعة أو التّسمية الّتي تؤخذ بها هذه الضّرائب هديّة عاديّة وطوعيّة ، أو إلى خزينة الباشوات ، أو في مصلحة القضاة والمتسلّمين والدّيوان وما شابه ذلك ، فإنّها جميعاً ممنوعة منعاً باتّاً ، وتُلغى على حدّ سواء الكفّارة الّتي تُجْبى من المسيحيّين عند دخول كنيسة قبر السّيّد المسيح ، أو عند التّوجّه إلى نهر الشّريعة (الأُردن) ، وعليكم - ماإن نقرأ هذا البيورلدي (الأمر) - أن تسارعوا إلى تنفيذه كلمة كلمة ، وتوقفوا فوراً جباية كلّ الضّرائب المذكورة أعلاه وغيرها من

---

(١) سوريّة وفلسطين تحت الحكم العثماني ، ص ١١٢

(٢) جعل إبراهيم باشا أوامره الحكوميّة حتّى الاستيلاء على عكّا تقتصر على منطقة نفوذ عبد الله ، محاولاً بحرص أن يصوّر للشّعب حربه بمثابة قضيّة بينه وبين عبد الله باشا ، ويبعد مظهر الانتفاضة ضدّ سلطة السُّلطان العثماني .

الضَّرائب القائمة على العادة ، وكلّ مطلب من أديرة القدس ومعابدها العائدة إلى مختلف الشُّعوب[1] المسيحيَّة واليهوديَّة ، شَأْن الكفَّارات ، كأمرٍ منافٍ للقانون ، بعد إعلان هذا الأمر سيعاقب بصرامة كلّ من يطلب أقلّ أتاوة من المعابد والأديرة المذكورة والحجَّاج ، ولتنفيذه أصدرنا هذا البيورلدي (الأمر) ، عن ديوان (مجلس) قيادتنا العليا »[2] .

إنّ كلمات كهذه على شفتي باشا مسلم ، على شَفَتَيْ فاتح جريء ما إن استولى على سوريّة ، حتّى أخذ يحلم باستئصال الفساد ، وبعدم إرهاق الشّعب بالضّرائب والأتاوات ، لأمر هام ، بالإضافة إلى التّدابير الأمنيّة السّديدة ، الّتي اتخذها إبراهيم باشا ، والتي فتحت للحجّاج الطّريق إلى فلسطين ، ففي السّنَتَيْن الثّانية والثّالثة من الحكم المصري ، بلغ عدد اليونانيين والأرمن الّذين جاؤوا من كلّ المناطق العثمانيّة إلى القدس ١٠ آلاف شخص ، وقد اغتنت بهم يافا والسُّكان الجبليُّون الّذين كانوا يعملون مرافقين ، وسكان القدس الّتي كان الحجّاج يمضون الشّتاء فيها ، وهذا دليل بأنّ جذب عدد كبير من الضُّيوف المؤمنين من خلال التّسامح والأمن ، أجدى من الضّرائب والأتاوات .

لقد كان تسامح إبراهيم باشا الدّيني قائماً من كلّ الجوانب على حساب سياسي صحيح ، لقد كان الأمر الّذي أصدره من معسكره الواقع قرب عكّا ، ضمانة حبٍّ مسبق له ، وتعلُّقٍ ثمين من جانب كلّ السُّكان على اختلاف أديانهم .

إنّ تسامح إبراهيم باشا الدّيني ، يكاد أن يكون أهم إجراء وأرسخه لتحوُّلات هامّة في المنطقة ، وأساساً مدروساً بدقّة لنفوذه لدى القبائل المسلمة في سوريّة .

واستطاع جيش إبراهيم باشا من اقتحام أسوار عكّا ، لأنّ السُّلطان محمود الثّاني لم يقدّم يد العون لعبد الله باشا ، وذلك للتّخلُّص من عدوٍّ قديم استعصى عليه ، تطبيقاً لسياسة : « دارِ عدوّكَ إلى أن تحلّ ساعَةُ قَتْلِه » ، ولكن نتيجة الحسابات كانت

---

(١) يقصد بالأسلوب العثماني الرسمي بالشعوب عادة : الطوائف .

(٢) سورية ولبنان تحت الحكم العثماني ، ص ١١٥ ، وعصر محمّد علي ، ص ٢٢٤

خاطئة ، خصوصاً عندما تابع إبراهيم باشا الفتح واحتل سوريّة كلّها ، واجتاز جبال طوروس متّجهاً إلى قونية (انظر المصور) ، حيث خسر الجيش العثماني المعركة ، فهرع السُّلطان يطلب حماية عاصمته المهدَّدة بالسقوط من الدُّول الكبرى ، الّتي لجأت إلى الحلّ الدُّبلوماسي ، فطالت المفاوضات بين الباب العالي ومحمّد علي ، الّذي اضطرّ أخيراً إلى التخلّي عن أطماعه في احتلال العاصمة ، ورضي بسوريّة ، فوقّعت معاهدة كوتاهية في ٤ أيّار (مايو) ١٨٣٣ م ، وتراجع إبراهيم باشا إلى جنوبي سلسلة جبال الأمانوس .

وليس هذا الاهتمام الأوربي بحماية إسطنبول من السُّقوط بيد محمّد علي باشا ، حبّاً بالسُّلطان ودولته ، إنّه حماية لأوربّة ذاتها ، فإسطنبول مفتاح شرقي أوربة ، كما أنّ سبتة[1] مفتاح غربها ، وهيهات أن يسمح الأوربيُّون أن يستلم مفتاح شرقي أوربة رجلٌ قوي ، مع جيش فتي بتسليح حديث ، من جديد .

سياسة إبراهيم باشا في سُوريَّة :

كانت سياسة إبراهيم باشا في سوريّة ، تهدف إلى انتزاع أكثر الموارد الممكنة من القبائل الواقعة تحت سلطته ، بغية إنجاز أكثر المآرب طموحاً ، لذلك أخذ يطبّق بعنف النِّظامين الإداري والمالي المصريّين ، فقمع الميول الفوضويّة للقبائل ، ووزّع بالعدل عبء الضَّرائب الّتي كانت حتّى ذلك الحين موضوعة تحت رحمة الباشوات ، والحكّام المحليّين ، وكان إبراهيم باشا يتمتّع إلى جانب مواهبه العسكريّة بقدرات كبيرة في مجال الاقتصاد ، فجعل وقته لاستثمار رؤوس أمواله في المضاربات التّجاريّة والصّناعيّة .

كما فرض إبراهيم باشا المضطّر إلى إبقاء جيش جرّار في سوريّة ، التّجنيد

(١) سَبْتَة : مدينة على مضيق جبل طارق على السّاحل الإفريقي ، قُبالة الجزيرة الخضراء على الشّاطئ الأندلسي ، في معجم البلدان ١٨٢/٣ : سبتة أقرب ما بين البرّ الإفريقي والأندلس ، ونبّه المبشّر رامون لل Lull منذ سنة ١٣١٠ م إلى أهمّيّة المدينتين (سبتة والقسطنطينية) ، وأوصى باحتلالهما قاعدتين لشنّ الهجمات ضدّ العرب المسلمين ، انظر :

Allison Peers, Rpman Lull: A Biography, London, 1929, P. 351

حروب إبراهيم باشا في سوريّة والأناضول

- - ← خط سير جيش إبراهيم باشا

+ + + حدود ولاية سورية ، ثم حدود ولاية عكا .

الإجباري ، فنشبت ثورة شملت كلّ فلسطين في ربيع سنة ١٨٣٤ م ، بعد إعلان السُّلطات المصريَّة قراراً يقضي بجمع الأسلحة والمجنّدين هناك ، فأباد الثُّوّار الحاميتَيْن المصريتَيْن في نابلس والخليل ، وحاصروا الوحدات المصريّة في القدس ، ولم يُرْفَع الحصار عنها إلاَّ بعد الوعد بإلغاء التَّجنيد الإجباري ، بيد أنّ الحكومة المصريّة لم تف بوعدها ، فتجدَّدت الثَّورات[1] .

ولم يستطع سكان المدن تحاشي التَّجنيد الإجباري ، فاشتد الرُّعب من شبحه ، وازدادت كراهية الشَّعب إزاء كلّ الإصلاحات الَّتي وإن كانت مواتية للمنطقة من نواح كثيرة ، إلاَّ أنَّ ثمنها كانَ يدفع ضريبة دم مرهقة جدّاً وباهظة ، حتّى وإنّ ١٠٠ ألف سوريٍّ هربوا من قسوة الحكم المصري ، وهذا التّقلُّص للسُّكّان كان محسوساً بالنّسبة إلى الزِّراعة والصِّناعة أكثر من التَّجنيد نفسه بما لا يُقاس ، ولم يستطع إبراهيم باشا مع كلّ صرامته ، أن يجنّد في سوريّة على امتداد خمس سنوات : | ١٨٣٣ ـ ١٨٣٨ م | أكثر من ٣٥ ألف رجل[2] .

ويمكن تلخيص أسباب الثَّورات في سوريّة ضدّ حكم إبراهيم باشا ، بما يلي :

وعد إبراهيم باشا السُّوريّين بإعفائهم من التّجنيد وبتخفيض الضّرائب ، وألاَّ يكلّفهم إلاَّ بدفع الضَّرائب الحكوميّة المقرّرة ، وبرّ بوعده في السّنوات الأولى من حكمه ، فخفَّف عنهم بعض الأعباء الماليّة ، وأخذ في تنشيط الزِّراعة والتّجارة ، فشعر السُّكّان بالاطمئنان وركنوا لحكم إبراهيم باشا .

عندما زار المارشال مارمون (الدُّوق دي راجوز) سوريّة سنة ١٨٣٤ م ، أُعجب بما رآه من السّكينة والأمن فيها ، وكتب في رحلته يقول : « إذا بقيت أعمال محمّد علي ، وبقي الأمن الّذي بسطه فيما فتحه من البلاد كما صار إليه الآن من الاستقرار الّذي

---

(١) سوريّة وفلسطين تحت الحكم العثماني ، ص : ١٤٣

(٢) تاريخ الأقطار العربيّة الحديث ، ص ١٣٤ ، بحث : (الاستياء في البلاد ، انتفاضات ضدّ التّجنيد) .

يدعو إلى الإعجاب ، فإنّ حالة هذه البلاد سينبه شأنها ، وستتطوّر تطوّراً كبيراً »[1] .

ويقول المسيو لويس بلان ـ المؤرّخ الفرنسي ـ في كتابه (تاريخ عشر سنوات) : « إذا أردنا أن نعرف ما أفادته سوريّة من انتقالها من الحكم العثماني إلى حكم المصريّين ، فما علينا إلاّ أن نلقي نظرة على سهول أنطاكية الّتي اكتست بأشجار الزّيتون ، وضواحي بيروت الّتي كثرت فيها الكروم ، والنّشاط الّذي انبعث في حلب ودمشق ، صحيحٌ أنّ محمّد علي أظهر جنفاً[2] وقسوة في حكم سوريّة ، ولكن في ظلّ هذا الاستبداد العارض الّذي كان ضرورة ولزاماً حيث سادت الفوضى في تلك البلاد ، قد نالت سوريّة النّظام والعمران »[3] .

هذه الحال مالبثت أن تبدّلت لما أصدره محمّد علي باشا إلى ابنه في أواخر سنة ١٨٣٣ م ، وأوائل سنة ١٨٣٤ م ، من الأوامر الّتي أثقلت كاهل الأهلين بأعباء فادحة ، وهي :

١ ـ احتكار الحرير في البلاد السّوريّة .

٢ ـ أخذ ضريبة الرؤوس من الرّجال كافّة على اختلاف مذاهبهم .

٣ ـ تجنيد الأهالي الإجباري .

٤ ـ ونزع السّلاح من أيديهم[4] .

لقد تذمّر السّكّان من هذه الإجراءات وتبرّموا ، لأنّ احتكار الحكومة للحرير من شأنه إلحاق الضّرر بمنتجيه ، ومنع تنافس التّجّار على شرائه وحرمان المنتجين مكاسبهم

---

(١) رحلة المارشال الدّوق دي راجوز : ٢٨/٣

(٢) الجنف : الميل والجور ، [اللّسان : جَنَفَ] .

(٣) تاريخ عشر سنوات : ٤٢١/٥ ، وأنطاكية الّتي وردت في النّص اتّخذها إبراهيم باشا مقرّه العام لموقعها الحربي الهامّ .

(٤) عصر محمّد علي ، ص : ٢٦٢ وما بعدها .

منـه ، ونفروا من ضريبـة الرؤوس وخـاصّـة المسلمين ، لأنّهم مـا كانـوا ملـزمين بهـا من قبل ، وزاد من نفورهم تسخير الحكومة للأهالي في الأعمال العامّة .

وكان التّجنيد ونزع السّلاح أهمّ الأسباب المباشرة الّتي أفضت إلى الثّورة ، فقد نُفّـذ التّجنيـد بطريقـة قـاسيـة تثير الخواطر ، وكان كثير من المجنّـدين يُرْسَلُون إلى جهـات لا يصل إلى ذويهم شيءٌ من أخبارهم فيهـا ، وتوّج هـذه الإجراءات الّتي سبّبت الثّورات نزعُ السّلاح ، الّذي كان معظم الأهالي يحملونه ، ليدفعوا به سطوات البدو وعـدوانهم ، فانتزاع السّلاح من أيديهم أمر لا تقبله نفوسهم عن طاعة واختيار .

الحربُ السُّوريّة الثّانِيَةُ : [١٨٣٩ م]

مـا فتئت الـدّولـة العثـمانيّـة بعـد هزيمتهـا في معركـة قـونيـة ، وإبرامهـا اتّفـاقيّـة كوتاهيـة ، تبـذل كلّ مـا في وسعهـا لاسترجـاع سوريّـة وإقليم أضنـة إلى حوزتهـا ، ولم يؤخّرها عن امتشاق الحسام حتّى سنـة ١٨٣٩ م ، إلاّ شعورهـا بـأنّهـا أضعف جنـداً من جنـد محمّـد علي ، فـأخـذت تتحيّن الفرصـة المنـاسبـة للثـأر ، ورأى محمّـد علي دسـائس السّلطان محمود الثّاني تزداد في سوريّة ، فـاعتزم إعلان الاستقلال[1] ، ليقطع آخر سبب يربط مصر بالدّولة العثمانيّة ، واستدعى قنـاصل الـدّول ، وأعلمهم بعزمـه هـذا في أيّـار (مايو) ١٨٣٨ م ، وكان يعتقد أنّ الـدّول الأُوربيّـة لا تعـارضـه في إعلان الاستقلال ، أُسوةً بـما فعلتـه حيـال اليونـان ، إذ آزرتهـا في تحقيق استقلالهـا وانفصـالهـا عن الـدّولـة العثمانيّة وتأييدهـا في مطـالبهـا القوميّـة ، ولكن الـدّول الأُوربيّـة تنظر إلى مصر بغير العين الّتي تنظر بها إلى اليونان ، فاعترضت على ما عزم عليه محمّد علي باشـا ، وحـذّرتـه من عواقب قراره ، وبذلك بَدَا تحيُّزها للعثمانيّين جليّاً ، ممـا جرّأ السّلطـان محمود الثّـاني على التّحرُّش بمحمّد علي باشا ، فأدّى ذلك إلى وقوع الحرب السّوريّة الثّانية .

---

(١) كادلفين وبارو ، سنتان من تاريخ الشّرق : ٢٢/١ و ٤٦

وفي صبيحة ٢٤ حزيران (يونيو) ١٨٣٩ م بدأت معركة نَصِيبين[١] الّتي أسفرت عن خسارة العثمانيّين ، وانتصار إبراهيم باشا ، الّذي قضى في هذه المعركة على قوّة العثمانيّين الحربيّة ، وتوفّي السّلطان محمود الثّاني في أوّل تموز (يوليو) ١٨٣٩ م قبل أن يبلغه نبأ انكسار جيشه ، وخلفه عبد المجيد الأوّل[٢] في الوقت الّذي تزلزلت فيه قوائم السّلطنة من ضربات إبراهيم باشا ، ولم تكن سِنُّ السّلطان الجديد تتجاوز السّابعة عشرة ، فلم يَدْرِ كيف يعالج الأُمور ، ولا كيف يتّجه بين العواصف الّتي هبّت على عرشه .

وفي الوقت ذاته ، سلّم أحمد باشا فوزي الأُسطول العثماني إلى محمّد علي باشا ، بعدما عيّن السّلطان خسرو باشا صدراً أعظم ، وكان بينه وبين أحمد باشا فوزي عداء قديم ، وهكذا تسلّم محمّد علي باشا الأُسطول العثماني الضّخم ، « في تلك الفترة كان طالع محمّد علي قد بلغ الأوج »[٣] .

قدّم ممثلو الدّول الخمس الكبرى في إسطنبول : (إنكلترة وفرنسة وروسية والنّمسة وبروسية) في ٢٧ تموز (يوليو) ١٨٣٩ م مذكّرة[٤] يطلبون بها من السّلطان أن لا يبرم أمراً في شأن المسألة المصريّة إلاّ باطّلاعهم واتّفاقهم .

قَبِلَ السّلطان هذه الوساطة بارتياح ، ولكن محمّداً عليّاً اعترته الكآبة عندما أُبلغ

---

(١) تقع قرية نَصيبين على الطّريق الواصل بين بيرهجك (البير) وميناء الاسكندرونة ، وموقعها غربي بيرهجك القائمة على الضّفّة اليسرى لنهر الفرات ، وهي غير نصيبين الّتي بالجزيرة السُوريّة ، جاء في (معجم البلدان ٢٨٩/٥) : « ونصيبين أيضاً قرية من قرى حلب » .

(٢) عبد المجيد الأوّل : [١٨٣٩ ـ ١٨٦١ م] .

(٣) قالها قسطنطين بازلي ، وهو شاهد عيان ، وصف بالتّفصيل خيانة الأميرال العثماني ، (سوريّة وفلسطين .. ص ٢٠٨) .

(٤) وهي المذكرة المعروفة تحت رقم ١٥ ، تاريخ ٢٧ تموز (يوليو) ١٨٣٩ ، وهي اقتراح مترنيخ وزير النّمسة الأكبر ، ووجهة نظره أن يحول دون انفراد روسية بالتّدخُل في المسألة الشّرقية ، وإرغام فرنسة على العمل مع الدّول الكبرى .

بمضمون المذكّرة ، وأدرك أن إنكلترة منذ سنوات تنظر بقلق إلى قوّته المتعاظمة ، وهي تطمح إلى القضاء عليه ، وطرده من سوريّة ، حفاظاً على طريق الهند ، ولكنه فرح بالخلاف بين الوسطاء ، ففرنسة تميل إليه ، ويتعاطف شعبها معه منافسةً لإنكلترة ، لذلك لم يقم بأيّة تنازلات .

مُعَاهَدَةُ لندن الأُولى : [١٥ تموز (يوليو) ١٨٤٠ م] :

وقّع هذه المعاهدة كلٌّ من روسية والنّمسة وإنكلترة وبروسية والدّولة العثمانيّة ، وعلى الرّغم من ممانعة فرنسة ، قرّرت الدّول الكبرى كبح جماح محمّد علي باشا بالقوّة ، ووضع حدود لطموحه المفرط .

وبناء على مضمون معاهدة لندن الأُولى ، اقترح الباب العالي على محمّد علي باشا أن يحكم مصر وراثيّاً ، ويدير مدى الحياة جنوبي سوريّة (أي فلسطين)[١] ، على أن يوافق على هذا الاقتراح ، الّذي أيّده ممثلو الدّول الكبرى في غضون عشرة أيّام ، وأن يوجّه في خلال العشرة أيّام هذه الأوامر إلى جيشه ، بإخلاء بقيّة سوريّة وأضنة ، وكريت[٢] ، وشبه جزيرة العرب ، مع إرجاع أُسطول السّلطان فوراً .

وفي حال رفض محمّد علي باشا لهذا الاقتراح ، يقتصر الباب العالي على تقديم مصر بحكمها وراثيّاً ، ويُمنحُ مُدّةَ عشرة أيّام أُخرى لقبول هذا الشّرط ، تاركاً لنفسه في حال رفض محمّد علي باشا ثانية حرّيّة العمل بالشّكل الّذي يراه بعد مباحثات تمهيديّة مع الدّول الكبرى .

رفض محمّد علي باشا مقرّرات مؤتمر لندن ، وقرّر الذّود بالسّيف عمّا أخذه

---

(١) وفق خط يمتدّ من رأس النّاقورة على البحر المتوسّط (شمالي عكّا ، وجنوبي صور) إلى بحيرة طبريّة ، فنهر الأُردن إلى البحر الميّت ، إلى العقبة على البحر الأحمر .

(٢) وهي كانـدي Candie في بعض المصادر ، وكانـدي مدينة في كريت ، اسمها اليوم هيراكليون : Hérakléion

بالسَّيف[1] ، خصوصاً وجيشه في سوريَّة ٧٥ ألف رجل ، وقد زوِّد بكلِّ ما يلزم لمدَّة سنة واحدة ، معوِّلاً الكثير على نفوذ الأمير بشير الشِّهابي بين القبائل اللُّبنانيَّة ، ومؤمناً بشفاعة فرنسة ونصرتها ، منتظراً ـ من ساعة إلى أخرى ـ العون منها للوقوف ضدَّ الدُّول المتحالفة[2] ..

اعتمد محمَّد علي باشا على معونة فرنسة ، إلاَّ أنَّها لم تفعل شيئاً سوى التَّهديد بالسِّلاح ، فهي لم تخاطر للقيام بحرب أُوربيَّة واسعة ، وتركت مصر في كفَّة الأقدار[3] .

استسْلامُ محمَّد علي باشا : وفي تشرين الثَّاني (نوفمبر) ١٨٤٠ م قاد شارل نابير Napier عمَّارة إنكليزيَّة إلى الاسكندريَّة ، وقدَّم إنذاراً إلى محمَّد علي باشا ، هدَّد فيه بإطلاق النَّار على القاعدة الرَّئيسيَّة للأُسطول المصري .

أمام الموقف الحرج في سوريَّة ، وشواطئ مصر على البحر المتوسِّط ، رأى محمَّد علي باشا أن يجنح إلى السِّلم ، إذ لا طاقة له بمحاربة أوربَّة مجتمعة ، خصوصاً بعد تخلِّي فرنسة عنه ، فَقَبِلَ أن يَجْلُوَ عن سوريَّة ، وأن يَرُدَّ الأُسطول العثماني إلى السُّلطان ، مقابل تخويله حكم مصر وراثيّاً بضمانة الدُّول الأُوربيَّة .

وبإلحاح من ممثِّلي الدُّول الكبرى ، وافق الباب العالي على خضوع محمَّد علي باشا ، وكانت القرارات النِّهائيَّة للباب العالي ، الَّتي وافق عليها في أيَّار (مايو) ١٨٤١ م ممثِّلو الدُّول الكبرى : تمَّ التَّنازل لمحمَّد علي عن الحقِّ في الحكم الوراثي لمصر والسُّودان ، بمثابة والٍ مفوَّض للسُّلطان ، وحُدِّدت الوراثة لأكبر الذُّكور في أُسرته ، وقُلِّص جيش محمَّد علي حتَّى ١٨٠٠٠ جندي ، وحُرِم من حقِّ تعيين الجنرالات في جيشه ، ومن حقِّ بناء

---

(١) تاريخ الأقطار العربيَّة الحديث ، ص : ١٤١

(٢) سوريَّة وفلسطين تحت الحكم العثماني ، ص : ٢٣٣

(٣) تاريخ الأقطار العربيَّة الحديث ، ص : ١٤٢

السُّفن الحربيَّة ، وأعاد إلى السُّلطـان أُسطولـه الحربي ، واعترف بـأنّـه تـابع للسُّلطـان ، وتعهَّد بدفع جزية كبيرة إلى خزينته ، وأخلى سوريَّة والجزيرة العربيَّة وكريت .



بِلادُ الشَّام : [١٨٤٠ ـ ١٨٦٠ م] :

النِّزاع الطَّائفي : بـدأ النِّزاع الطَّـائفي في الظُّهور في بلاد الشَّـام ، عنـدمـا وصل الأمير بشير الشِّهابي الثَّاني ، فأُمراء لبنان من آل معن وشهـاب وتنوخ ، كانوا قبل ذلـك يجمعون سكان جبل لبنـان على صعيـد واحـد ، دون أن يفرِّقـوا بين درزي ومـاروني ، أو مسلم ومسيحي .

فكَّر بشير الشِّهابي في بسط سيطرتـه على جبل لبنـان بـأكملـه ، فـاقتضى الأمر أن يكون مسيحيّاً مع المسيحيِّين ، ودرزيّاً مع الدُّروز ، وعندما اصطدمت مطامحه بمصالح الـدُّروز ، حنق عليهم[١] ، وتعـاون مع الموارنـة واعتمـد عليهم وسلَّح بعضهم لقمع الثَّورة الدُّرزيَّة[٢] ، فأذكى نار العداوة الَّتي تمخَّضت عن المذابح الدَّامية فيما بعد .

وزاد العثمانيُّون هذه العداوة عندما بالغوا في الإساءة إلى المسيَّحيين انتقـامـاً منهم ، لأنَّهم وقفوا إلى جانب إبراهيم باشا في حملته ، وإضعافاً لمركزهم ، ولكن الـدُّول الكبرى كانت تتدخَّل لمصلحة المسيحيِّين في الولايات العثمانيَّة كافَّـة ، وأصرَّت على إبقـاء الأُمراء الشِّهـابيِّين ، عنـدمـا أرادت الـدَّولـة العثمـانيَّـة أن يكون الجبل تحت إدارتهـا مبـاشرة ، ولكنها اتَّخذت سياسة تهدف إزالة الشِّهابيِّين بعد قليل .

قسَا الأمير بشير قاسم شهاب[٣] على زعماء الدُّروز ، وعاملهم بغلظة وصلت إلى حدّ الشَّتم والإهانة ، فغلت مراجلهم ، وابتدؤوا يتشاورون في موقف الدَّولة منهم ، فـإذا بهـا

(١) حتَّى أوعز بخنق شيخهم بشير جنبلاط .

(٢) الأمير بشير الكبير ، الأب بولس قرآلي ، لبنان ١٩٣٣ : ٨٩/٢

(٣) ابن أخي بشير الثاني .

تُمَنّيهم وتصدُّهم ، بينما كانت تشجّع الأمير الشّهابي ، وتطلب منه جباية الأموال الطّائلة .

التزمت فرنسة جانب الموارنة خدمة لمصالحها السّياسيّة ، وتحدّثت عن ضرورة سحق الدُّروز ، وأغرت الأمير الشّهابي بإغلاق المدارس الإنكليزيّة والأمريكيّة في جبل لبنان ، عندها تسلل بعض الموارنة من شُبّان دير القمر إلى أرض الشّيخ ناصيف أبي النّكد ، من أكابر الدُّروز ، فتصدّى هؤلاء لهم ، وأوسعوهم ضرباً ، ولَمّا عَلِمَ الموارنة بذلك ، كمنوا للدُّروز في طول الجبل وعرضه ، يقتلون من يصادفونه منهم .

وثارت ثائرة المسلمين في بلاد الشّام عامّة ، واستعدّ والي دمشق نجيب باشا للذّهاب إلى الحجّ تخلُّصاً من المسؤوليّة ، فتصدّى له قناصل الدُّول الكبرى ، وخصوصاً (ريتشارد وود) قنصل إنكلترة مع بعض العقلاء ومنعوه من الذّهاب ، ونادى بالأمان ، فسكت الدُّروز ، وباتوا يرقبون تدابير الحكومة العثمانيّة[1] .

تلخّصت تلك التّدابير في عزل الأمير بشير قاسم الشّهابي من ولاية جبل لبنان ، وأرسلته إلى إسطنبول ، وعيّنت عمر باشا النّمساوي والياً على لبنان في ١٥ كانون الثّاني (يناير) ١٨٤٢ م ، وسعى الباب العالي إلى الحلّ الوسط ، ففي كانون الثّاني (يناير) ١٨٤٣ عُيّن الأمير حيدر أبو اللّمع قائمقاماً على النّصارى ، والأمير أحمد أرسلان قائمقاماً على الدُّروز .

ثمّ جدّ في الأُفق الدّولي حدثٌ جديد ، انبعثت شرارته من الشّام ، وأُطفئت نيرانه في القرم ، فقد اختلفت الطّوائف المسيحيّة في القدس ، وكانت خلافاتها كثيرة يزيدها تعقيداً تدخُّل الدُّول الأُوربيّة ، وبات الحرس العثماني يحفظ النّظام والأمن في بيت لحم طوال أيّام عيد الفصح[2] ، نتيجة لاختفاء نجمة مرصّعة بالفضّة من كنيسة المهد ، ثمّ

---

(١) تاريخ سوريّة في العصور الحديثة ، د . نادر العطار : ١٩٩/١

(٢) تاريخ الشُّعوب الإسلاميّة ، كارل بروكلمان ، ص : ٤١

عاد الخلاف مرّة أخرى حول مفاتيح الكنيسة المذكورة ، ولم يكن هناك نظـام أو عرف مكتوب لحلّ أمثال هذه الخلافات ، فقضى الباب العالي بإعطـاء اللاّتين مفـاتيح ثلاثـة من الأبواب الهـامّـة ، والممرّات تحت الأرض ، وأبقى مفتـاح البـاب الرّئيسي في حـوزة الأرثـوذكس ، وانتهى هـذا الخـلاف بقيـام الحرب الّتي عرفت بحرب القرم بين روسيـة والدّولة العثمانيّة ، وانحازت فرنسة وإنكلترة إلى جانب الدّولة العثمانيّـة ، وانتهت الحرب بعقـد معـاهـدة بـاريس في آذار (مـارس) ١٨٥٦ ، الّتي ضمنت سلامـة الامبراطـوريّـة العثمانيّة .

ولكي تضمن الدُّول الكبرى اجتناب مثل هذه الحوادث في الشّام ، أجبرت السُّلطان عبد المجيد الأوّل على إصدار أمر يحفظ حقوق النّصارى في الولايات العثمـانيّـة ، فـأثـار ذلـك مخـاوف المسلمين ، لأنّهم لمسوا إلى أيّ حـدّ بلغ تـدخُّل الـدُّول الأوربيّـة في شؤون الـدّولـة العثمـانيّـة ، وزاد هـذا الشّعور تـدخُّـلات قنصـل فرنسـة ، وبعض تصرفـاتـه ، وتأييده للموارنة ، وعندما توفي قائمقـام الموارنـة سنـة ١٨٥٧ ، عُيِّن الأمير بشير أبو اللمع مكانه ، وكذلك عندما مات بطريرك الموارنة خلفه من كان أشدّ تعصُّباً منه ، فاستشار قومه ضـدّ الـدُّروز والبروتستـانت والأرثـوذكس على السّـواء ، فـانفجرت في كسروان ثورة سنـة ١٨٥٧ ، واغتُصِبَت كنـائس الأرثوذكس ، وخُرِّبت مـدارس البروتستـانت ، ولجـأ كثيرون إلى بيروت ، وشعر الـدُّروز بـالخطر من جـديـد فتجمّعوا حـول زعمـائهم الرُّوحيّين ، واستعدُّوا لمجابهة الطّوارئ الّتي لم يكن منها بدٌّ .

وهكذا تهيّأت أسباب الحوادث المشؤومة : تحـدٍّ مستمر من قبل الموارنـة ، وسيـاسـة عثمانيّة تشجّع الخلاف ، وتدخُّل أوربي يثير أعمق جذور التّعصُّب في النُّفوس[١] .

وصل الدُّروز إلى بيروت حيث صـارحوا خورشيـد بـاشـا ، والي بيروت ، بقلقهم ومخـاوفهم ، فـإذا بـالوالي يشـاركهم شعـورهم ، ويخشى من تغلغـل النُّفـوذ الفرنسي على

(١) تاريخ سوريّة في العصور الحديثة ، ص : ٢٠٦

أيدي هؤلاء الرّعايا الّذين جاهروا في كلّ آنٍ بحبّهم لفرنسة ، وتعلّقهم بها ، وشاطر الباب العالي ممثلها والدُّروز آراءهم ، فأصدر في نيسان (إبريل) ١٨٦٠ أوامر سرّيّة إلى خورشيد باشا بدعم الدُّروز .

أمّا الموارنة فقد اعتمدوا على دعم قناصل الدُّول الكبرى ومآزرتهم في كلّ عمل يقومون به ، فتجمّع حوالي ثلاثة آلاف مسيحي في زحلة ، وزحفوا إلى (عين دارا) إحدى القرى الدُّرزيّة القريبة منهم ، فقابلهم ستمائة من سكّانها وصدُّوهم عنها ، وهنا تحقّقت مخاوف الدُّروز ، ورأى زعماؤهم الخطر يهدّد بإفنائهم وطردهم من الجبل ، خطر الموارنة الّذين يفوقونهم عدداً ، بالإضافة لتأييد فرنسة لهم ، وكانت فكرة إجلاء الدُّروز إلى حوران تشكّل الحلم الجميل للموارنة منذ سنة ١٨٤٠ م[١] .

فأرسل سعيد جنبلاط إلى زعيم دروز حوران إسماعيل الأطرش ، يشرح له الموقف الخطير ، فأمَدّه بثلاثة آلاف درزي ، ساروا إلى حاصبيّا[٢] ، حيث دخلوها صباح الأحد ٢٠ أيّار (مايو) ١٨٦٠ م[٣] ، وفي يوم الثُّلاثاء ٢٩ أيّار (مايو) دخلت قوّات الدُّروز راشيّا ، لتبدأ أحداثٌ دير القمر الّتي دخلها الدُّروز يوم الأربعاء ٢٠ حزيران (يونيو) ١٨٦٠ ، مع مذابح أُخرى في بيت الدّين ، والمتن ، وصيدا ، وجزّين وزحلة[٤] .

وحوادث دمشق نجمت عن حرب القرم وإصلاحات السُّلطان الّتي أفقدت المسلمين الكثير من امتيازاتهم ، وشحن الجوّ حين تدخّل القناصل طالبين للمسيحيّين المزيد من

---

(١) Souvenirs of Syria, Expidition FranÇaisede 1860, Paris 1902, P.26

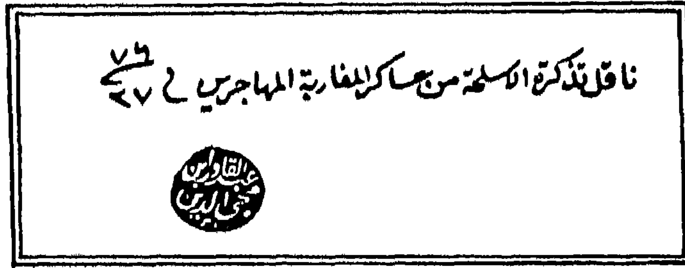
(٢) أهم مدن وادي التّيم (انظر المصوّر) .

(٣) توفّي في هذه الحملة كنج أبو صالح ، شيخ قرية مجدل شمس متأثراً بجراحه ، وشيّع جثمانه في جوّ محموم غلب عليه حبّ الثّأر والانتقام .

(٤) تاريخ سوريّة في العصور الحديثة ، ص ٢٠٩

الامتيازات ، وعندها وصلت أنباء المجازر في لبنان ، فَهُوجِمَ الحيُّ المسيحي الّذي عاش مع إخوانه المسلمين مئات السِّنين بصفاء وأمان .

هرع المسيحيُّون إلى دار الأمير عبد القادر الجزائري [(١)] ، ففتح لهم الأمير أبواب داره ، وقدَّم لهم الحماية والطَّعام ، وبعد أن اجتمع لديه حوالي ١٢٠٠٠ نفس ، رجا الوالي أن يجير الفائض منهم في قلعة دمشق ، فلبَّى الوالي رجاءه ، وحشد الأمير رجاله المغاربة حول الدَّار ، وهدَّد الغوغاء بالموت إذا حاولت اجتياح المنزل والإساءة إلى لاجئيه ، (انظر وثيقة حمل السِّلاح الَّتي أصدرها باسمه) .



(رخصة) حمل السِّلاح ، أصدرها الأمير نفسه لمن وقف معه من أهل الرَّأي لوقف الفتنة

أرسل السُّلطانُ فؤاد باشا للتَّحقيق في الحوادث [(٢)] ، واتِّخاذ ما يراه من التَّدابير ، بعد أن تجاوز الأمر الحدود الموضوعة له ، بعد إعطائه صلاحيات مطلقة في التَّصرُّف كنائب عن السُّلطان ، وأرسل برقيّة لنابليون الثَّالث والملكة ڤيكتوريا يعدهما فيها بمعاقبة المذنبين ، وإيصال كلِّ ذي حقٍّ إلى حقِّه .

---

(١) عبد القادر بن محي الدِّين بن مصطفى الحسني الجزائري : [١٨٠٧ - ١٨٨٣ م] أمير مجاهد ، حارب الفرنسيِّين خمسة عشر عاماً ، استسلم سنة ١٨٤٣ م ، وبعد سجنه في فرنسة أطلق نابليون الثَّالث سراحه ، فاختار دمشق مقرّاً له ، توفِّي فيها ، له ديوان شعر ، وذكرى العاقل ، والمواقف ثلاثة أجزاء في التَّصوُّف . (الأعلام ٤/٤٥) .

(٢) جاء في (حسر اللِّثام عن نكبات الشَّام) ص ٢٣٥ : نتائج فتنة ١٨٦٠ م : ١٢,٠٠٠ قتيل ، ١٥٠,٠٠٠ متشرِّد ، و ٧٠٠٠ بيت أحرق .

سجن فؤادُ باشا خورشيدَ باشا وكاتم سرِّه ، وبعض مؤيّديه .

وفي دمشق أعدم واليها أحمدَ باشا في ٢٩ تموز (يوليو) ١٨٦٠ م ، ثمَّ أتبعه بمئة وسبعة وستين من المسلمين ، بما فيهم قائد حامية حاصبيّا ، وقائد حامية راشيّا .

أمَّا في بيروت ، فأُعدم سبعة من زعماء الدُّروز في ١٢ أيلول (سبتمبر) ١٨٦٠ م ، وحكم على خورشيد باشا وبعض أعوانه بالسِّجن المؤبّد[1] .

وفي ١٦ آب (أُغسطس) ١٨٦٠ م ، وصلت قوّة فرنسيَّة[2] ، بتفويض من الدُّول الكبرى ، إلى السَّاحل السُّوري ، لمساعدة السُّلطان في نشر الاستقرار في سوريَّة ، على ألاّ تطول إقامتها أكثر من ستّة أشهر[3] ، وأسرع فؤاد باشا إلى لقاء الفرنسيِّين في بيروت ، وأقنع الجنرال (بوفور) قائدهم العام بأن لا ضرورة لزحفه إلى دمشق ، لأنَّه قام هناك بما يجب اتّخاذه من التَّدابير ، فاكتفى الفرنسيُّون بالوصول إلى البقاع ، حيث شارك الجند الفرنسيُّون بترميم البيوت الخربة بسبب الفتنة .

مؤتمر بيروت : ٥ تشرين الأوَّل (أُكتوبر) ١٨٦١ م : عُقدَ مؤتمر في بيروت ، ضمَّ فرنسة وإنكلترة وروسية والنّمسة ، لحلّ أزمة النّزاع الطَّائفي ، وإقرار التَّعويضات ، ومعاقبة المذنبين .

وأهمّ ما بحثه المؤتمر (نظام لبنان الجديد) ، مع أسباب الحوادث ، وطال الجدل ، حتّى انتقل المؤتمر إلى إسطنبول في ١٠ أيّار (مايو) ١٨٦١ م ، لعرض نتائج مباحثاتهم على سفراء الدُّول ، وعلى الباب العالي ، وبعد جدل تقرَّرت في ٩ حزيران (يونيو) ١٨٦١ نقاطٌ أربع ، هي :

---

(١) تاريخ سوريَّة في العصور الحديثة ، ص : ٢١٥

(٢) تعدادها ١٢,٠٠٠ جندي .

(٣) نجحت فرنسة في تمديد أجل الاحتلال حتّى ٥ حزيران (يونيو) ١٨٦١ م .

١ ـ يعيّن السّلطان لإدارة جبل لبنان حـاكماً مسيحيّـاً ، يتبع مبـاشرة إسطنبول ، يسـاعـده موظّفون محلّيـون في الجبـل ، ويعيّن القضـاة ، ويتـولّى تنفيـذ قراراتهم ، كما يترأس اجتماعات المجلس الكبير المؤلّف من ١٢ عضواً ، يمثّلون طوائف الجبل كلّه .

٢ ـ ينقسم الجبـل إلى سبعـة أقضيـة ، وتقسم هـذه إلى نـواحٍ ، تشرف على القرى المحـدَّدة لهـا ، على أن يكون لكلّ قريـة مختـار ، ينتخبـه سكّـانها ، يوافق عليـه حـاكم الجبل ، وللمختار صلاحيّات إداريّة .

٣ ـ تلغى جميع امتيازات الإقطـاعيّين والحكّـام ، ويُقرّ مبـدأ المسـاواة بين الجميع ، وخضوعهم للقـانـون ، وقرارات المحـاكم ، وهـذه المحـاكم في الجبـل على درجـات ثـلاث ، ويعيّن مجلس قضـاء أعلى في مركـز إدارة الحكـومـة ، يتـألّف من ستّـة قضـاة ينتخبهم المتصرّف من الطّوائف السّتّ .

٤ ـ يستعين الحاكم لتنفيذ أحكامه بفرقـة من الأهلين ، يُجمعون بنسبـة سبعـة عن كلّ ألف ، ويخصّص الأموال المجبيّة من الجبل لإدارة شؤونه ، ويرسل ما زاد إلى الخزينة المركزيّة ، ويعمل على إحصاء نفوس أهل الجبل ، مع مسح أراضيه المزروعـة ، وتنظيم مخطّـط مسـاحـة لهـا ، وحُـدّدت مـدّة حـاكم الجبل بثلاث سنوات ، وجُعلَ مستقلاًّ عن بـاشوات بيروت ودمشـق ، يتّخـذ دير القمر مركـزاً لإدارة الجبـل ، وهكـذا .. جُرّدت الأرستقراطيّـات الـدّرزيّــة والمـارونيّــة على السّواء من امتيـازاتها ، وأُلغي النّظــام الإقطاعي .

وكان أوّل حاكم للبنان (داود باشا) المـدير العـام للبريـد في إسطنبول ، فـاشترى أراضي الدّروز تباعاً ، فرحل أكثرهم إلى حوران ، ووزّع داود باشا الأراضي المشتراة على المسيحيّين . تعويضاً لهم عن خسائرهم السّابقة ، واتّخذ الجبل ـ منـذ ذلـك الحين ـ هـذا الطّابع المسيحي ، الّذي بقي سائـداً حتّى سنـة ١٩١٤ ، أي حتّى قيـام الحرب العـالميّـة الأُولى .

نتائج النِّزاع الطَّائفي : زالت الملكيَّة الواسعة من جبل لبنان ، كما بدأت الدُّول الأُوربيَّة سلسلة من التَّدخلات الجديدة في الدَّولة العثمانيَّة ، بحجَّة حماية المسيحيِّين ، وأصبحت قضيَّة الأقليَّات مع الزَّمن صعبة زادتها الدُّول الكبرى تعقيداً لتستثمرها في صيانة مصالحها السِّياسيَّة والاقتصاديَّة على أوسع نطاق ، واعتقد السَّاذجون من مسيحيِّي بلاد الشَّام بإخلاص فرنسة لهم ، فتعلَّقوا بها ، وتكلَّموا لغتها ، واتَّخذوا عاداتها ، فازدادت نقمة الدّولة العثمانيّة عليهم ، وعدَّهم واسطة للتَّدخُّل الأجنبي .

ومسؤوليَّة هذه المذابح تقع في قسم منها على كبار الملاَّكين في جبل لبنان ، لأنَّ فلاَّحي الجبل - مِنْ كلا الطَّرفين - كانوا يحيون حياة قاسية ، فعمدوا إلى الثَّورة ، وبدأت الفتن ، ولكن الثَّورة تحوَّلت من حركة اجتماعيَّة إلى نزاع ديني .

ولكن المسؤوليّة الأساسيّة تقع على عاتق الدَّولة العثمانيَّة (الرَّجل المريض) ، الّتي ظنّت أنّها إذا أوقعت بين الدُّروز والموارنة ، تأمن شرَّ الطَّرفين معاً ، وتعيد حكم الجبل إليها ، بعد أن تبيّن للملأ نتيجة استقلاله ، وتجبر الدُّروز على الطَّاعة ، وتزيل أسباب تدخُّل الدُّول الأُوربيَّة ، وتتجنَّب حروباً صعبة - كحرب القرم - في المستقبل .

وعلى عاتق فرنسة يقع عبء كبير من المسؤوليَّة ، لأنَّها كانت توغر صدور العثمانيِّين على الموارنة بشكل غير مباشر ، بضغطها على وُلاة الدَّولة ورجالها حفظاً لمصالحها السِّياسيَّة ، حتَّى إنَّ القنصل الفرنسي في بيروت ، كان يجبر المسلمين على الوقوف احتراماً له عندما يمرُّ بعربته ، فإذا لم يفعلوا ، ترجَّل من عربته ، وألهب أجسادهم بسوطه ، وكان الموارنة أنفسهم يفخرون بتأييد فرنسة لهم ، ويملؤون الجبل زينات وزغاريد ، عندما يزوره أحد قناصل هذه الدّولة .

أمّا الدُّول الكبرى الأُخرى ، فتتحمّل شيئاً من المسؤوليَّة ، كانت روسية تؤيِّد الأرثوذكس ، كما تؤيِّد فرنسة الموارنة ، وإنكلترة الدُّروز ، وكلّ طائفة كانت تؤمن بقوّة الدّولة الّتي تحميها ، فلمّا استفحلت المنافسة الدّوليّة ، انعكس أثرها في سوريَّة ، وكانت سبباً غير مباشر ، في تسطير هذه الصَّفحة المؤسفة من تاريخ بلاد الشَّام .

أثَرُ فِتْنَةِ ١٨٦٠ عَلَى فِلَسْطِين : صوّر القناصل الأُوربيُّون صدمة ١٨٦٠ م مذبحة واحدة كبرى موجّهة للمسيحيّين في كلّ بلاد الشّام ، وتوقّعوا أسوأ الأشياء من السُّلطات العثمانيّة ، لكن هذه المخاوف لم يكن لها أساس على الإطلاق ، فأهل القدس مثلاً كانت مصلحتهم المادّيّة في الحجّاج أكبر من أن تسمح لهم بإثارة القلاقل ، رغم قلقهم وقلق سكّان فلسطين جميعاً من طوفان الأُوربيّين الوافدين من الأصناف كلّها .

« وكان من أثر أحداث سنة ١٨٦٠ في جبل لبنان ودمشق أنّ الأُوربيّين في (الأرض المقدّسة) وضعوا على عيونهم من الآن فصاعداً نظّارات غير مرئيّة ، كانوا يتبيّنون من خلالها في مشاجرة تحدث في حيفا سنة ١٨٨٠ مثلاً ـ وفي مغالاةٍ عجيبة ـ بدايةً لمذبحة محتملة للمسيحيّين ، فيدعون لهذا السّبب إلى إرسال سفن حربيّة أُوربيّة ، ومع ذلك فإنّ العلاقة بين الطّوائف الدّينيّة لم تختل اختلالاً قويّاً ، رغم الأحداث المؤسفة في الشّمال ، ورغم لجوء الأُوربيّين في البلاد إلى إقامة الحدود الطّائفيّة ، وكان قيام الجمعيّات الإسلاميّة والمسيحيّة بوصفها أجهزة تمثيل سياسيّة للفلسطينيّين بعد الحرب العالميّة الأُولى تعبيراً أيضاً عن هذه الحقيقة .. »[1] ، حقيقة التّسامح الكامل بين الطّوائف الدّينيّة في البلاد العربيّة ، وعيشها مع بعضها في وئام وأُخوّة ، لولا اليد الأُوربيّة العابثة بين حين وآخر .





(١) تحوّلات جذريّة في فلسطين ، ص : ٣٣٥

الأماكن الهامة في
أحداث سنة ١٨٦٠

الاصطلاحات
الحدود الحالية
المدن الهامة

الأماكن الهامة في
أحداث سنة ١٨٦٠

الدَّولَةُ العثمانيَّة أواخِر القرن التَّاسع عشر

وَبِدايات القرن العشرين

ارتقى السُّلطان عبد الحميد الثَّاني على عرش الخلافة سنة ١٨٧٦ م ، بعد خلع مراد الخامس ، وذلك في وقت حرج للغاية ، فأُوربّة كلُّها تتدخَّل في أمور الدَّولة العثمانيّة ، فكان لا بدَّ من إصلاحات في الدَّولة ترضي الرَّعيَّة ، وتكبح انتقادات أُوربّة ، فعيّن السُّلطان مدحت باشا[1] صدراً أعظم ، الَّذي أعلن الدُّستور في ٢٤ كانون الأوَّل سنة ١٨٧٧ م ، واجتمع مجلس المبعوثين لأوَّل مرَّة ، ولكنَّه لم يكد ينتظم لينظر في شؤون الدَّولة ، حتَّى صدرت الإرادة السُّلطانيَّة بفضّه ، فبدأ كثيرون العمل على الإطاحة بالسُّلطان عبد الحميد الثَّاني[2] .

عقدت (جمعيَّة تركية الفتاة) سنة ١٩٠٢ م أوَّل مؤتمر لها في باريس ، وغدت (جمعيَّة الاتِّحاد والتَّرقِّي) القوَّة الدَّافعة في أوساط (تركية الفتاة)[3] ، وفي ٢٥ تموز (يوليو) ١٩٠٨ أُجبر السُّلطان على إعادة الدُّستور ، وأُجريت انتخابات لمجلس المبعوثين ، وحاول السُّلطان عبد الحميد الثَّاني في ١٣ نيسان (إبريل) ١٩٠٩ القيام بحركة مضادَّة للتَّخلُّص من الجمعيَّة ، ومن الدُّستور ، ومن المجلس ، عندئذٍ زحف الجيش من سالونيك إلى إسطنبول ، وأعاد إلى جمعيَّة الاتِّحاد والتَّرقِّي نفوذها ، وخلع السُّلطان ، ونفاه إلى سالونيك ، ونصَّب أخاه محمَّد رشاد سلطاناً باسم محمَّد الخامس ،

---

(١) مدحت باشا بن حاجي حافظ أشرف أفندي : [١٨٢٢ ـ ١٨٨٣ م] ، أبو الأحرار ، تقلَّب في الوظائف حتَّى كان والياً على الدَّانوب (الطّونة) ، ثمَّ والياً على بغداد ، ثمَّ تولَّى منصب الصَّدارة العظمى ، ثمَّ ضيَّق عبدُ الحميد الثَّاني عليه ، فسافر إلى أُوربَّة ، واستقرَّ في لندن إلى أن صدر أمر بتعيينه والياً على الشَّام ، ثمَّ نقل إلى إزمير ، حيث اعتقل وحوكم ، وحكم عليه بالإعدام ، واكتفى السُّلطان بنفيه إلى قلعة الطَّائف وفيها مات ، (الأعلام ١٩٥/٧) .

(٢) تاريخ الدَّولة العليَّة العثمانيَّة ، ص ٧٠٣

(٣) جمعيَّة الاتِّحاد والتَّرقِّي ، هي فرع من جمعيَّة تركية الفتاة .

وبذلك أصبحت السَّيطرة المطلقة في الدَّولة لجمعية الاتِّحاد والتَّرقِّي ، الَّتي اتجهت إلى تطبيق سياسةٍ مركزيَّةٍ شديدة ، أساسها سيادة العنصر التُّركي ، فأثار ذلك استياء العرب ، وتهيَّأت بذلك التُّربة الصَّالحة ، كي تنمو بذور الحركة العربيَّة وتترعرع [1] .

بدأ العرب يفكِّرون في مستقبل بلادهم ، وأخذ زعماؤهم يبدون مخاوفهم من الاتِّحاديِّين بسبب دور يهود الدُّونمة الفعَّال في الإعداد لزحف الجيش من سالونيك وخلع السُّلطان عبد الحميد الثَّاني [2] ، مع تركيز الإعلام الصُّهيوني على إبداء مشاعر الودّ تجاه الحكم الجديد في إسطنبول ، وتوقَّع المؤتمر الصُّهيوني التَّاسع ، الَّذي انعقد في هامبورغ في ٢٦ كانون الأوَّل (ديسمبر) ١٩٠٩ م ، أن تطوِّر الدَّولة العثمانيَّة الهجرة اليهوديَّة وتزيل الإجراءات القانونيَّة الَّتي تحدُّ من الهجرة ، واتَّخذ زعماء جمعيَّة الاتِّحاد والتَّرقِّي مواقف متعاطفة مع الهجرة اليهوديَّة إلى الأقاليم العثمانيَّة .

ولمَّا تسلَّم الائتلافيون الحكم بعد انقلاب عسكري في تموز (يوليو) ١٩١٢ ، انتهز الرَّأي العام فرصة إزاحة الاتِّحاديِّين ليوجِّه إليهم الاتِّهام الصَّريح عن ارتباطهم بالصُّهيونيِّين ، وشنَّ حملة عليهم ، ولكن ذلك لم يغيِّر من مواقف السُّلطات المحلِّيَّة في فلسطين ، الَّتي كانت تتصرَّف وفق أهواء المتصرِّفين ، بعيداً عن رقابة الحكم المركزي .

وعندما عاد الاتِّحاديُّون إلى الحكم إثر انقلاب ٢٣ كانون الثَّاني (يناير) ، ضمَّت وزارتهم ثلاثة وزراء يهود - وزير التِّجارة والزِّراعة ووزير الماليَّة وناظر النَّافعة - واستغلَّت الصُّهيونيَّة ظروف الحرب الَّتي تخوضها الدَّولة العثمانيَّة في البلقان ، وحاجتها إلى المال للحصول على تنازلات من الاتِّحاديِّين ، فيما يتعلَّق بالهجرة إلى فلسطين ، وملكيَّة الأراضي .

---

(١) الموسوعة الفلسطينيَّة : ٧٦/١

(٢) كلمة دونمة Donmé كلمة تركيَّة بمعنى المنشقِّين ، تطلق على طائفة من اليهود ممَّن اعتنقوا الإسلام في القرن الثَّامن عشر ، عملوا على إسقاط عبد الحميد الثَّاني وإلغاء الخلافة ، (القاموس الإسلامي ٤١٣/٢) الطبعة الأولى : ١٩٦٦ م .

وبعد نشوب الحرب العالميّة الأُولى سنة ١٩١٤ م ، وجّهت الدّولة العثمانيّة قدراً كبيراً من اهتمامها إلى أوضاع اليهود في فلسطين ، بسبب ما يحيط بوجودهم من ملابسات دوليّة ، ولتمتّع معظمهم بالحماية الأجنبيّة ، ومع إلغاء الدّولة لنظام الامتيازات ، سهّلت إجراءات الحصول على الجنسيّة العثمانيّة لليهود بشكل جماعي [١] .

وعندما عُيِّن جمال باشا [٢] أحد أقطاب الاتّحاديّين ، قائداً عامّاً للجيش الرّابع في الشّام مع صلاحيّات مطلقة ، اتّبع سياسة قمع وإرهاب تجاه السُّكّان ، وعطف على اليهود ، وعيّن بعض زعمائهم في مراكز حكوميّة مسؤولة ، كما زار جمال باشا نفسه المؤسّسات والمستعمرات الصُّهيونيّة ، ومنح اليهود أراضي الدّولة ، وكان مدير مركز التّجارب الزّراعيّة في عتليت (آرون أرونسون) من الأصدقاء المقرّبين إليه ، ويذكر أن مفاوضات جرت في صيف ١٩١٥ م بين جمال باشا ووفد صهيوني في القدس ، من أجل إقامة وطن لليهود في منطقة من فلسطين تعيّنها الحكومة العثمانيّة ، على أن يخضع اليهود فيها لقوانين البلاد مع تمتّعهم بالاستقلال في الإدارة البلديّة ، مقابل تعهّد اليهود بمساعدة الدّولة العثمانيّة في تسديد ديونها ، وتقديم القرض اللازم لذلك .

وكان وعد بلفور في تشرين الثّاني (نوفمبر) ١٩١٧ م [٣] ، وفي ٢ كانون الثّاني (يناير) ١٩١٨ أصدر الصّدر الأعظم طلعة باشا [٤] تصريحاً عن عزم الحكومة العثمانيّة - نظراً لصداقتها الطّويلة لليهود - على أن تساعد الاستيطان اليهودي بالسّماح بالهجرة الحرّة ، والاستيطان ضمن حدود مقدرة البلاد على الاستيعاب ، ومنح الحكم الذّاتي طبقاً لقوانين الدّولة .

---

(١) الموسوعة الفلسطينيّة : ٧٦/١

(٢) جمال باشا : [١٨٧٢ - ١٩٢٢] القائد العام للجيش العثماني الرّابع ، أعدم طائفة من الوطنيّين في دمشق وبيروت اتّهمهم بالخيانة (أيّار - مايو ١٩١٦) ، قتل في تفليس سنة ١٩٢٢ م .

(٣) بلفور (أرثر جيمس) Balfour : [١٨٤٨ - ١٩٣٠ م] سياسي إنكليزي ، رئيس الوزراء ١٩٠٢ ، ثمّ وزير الخارجيّة ١٩١٧ ، أصدر وعده الّذي ضمّنه حقّ اليهود بإنشاء وطن قومي في فلسطين ١٩١٧ م .

(٤) طلعة باشا : [١٨٧٢ - ١٩٢١] ، سياسي تركي ، أحد زعماء حزب تركية الفتاة ، تصدّر الوزارة ١٩١٧ - ١٩١٨ ، اغتيل في برلين .

رفض ممثّلو الحركة الصّهيونيّة في فلسطين العروض التّركيّة ، بحجّة أنّها تجعل الاستيطان ضمن حدود قدرة البلاد على الاستيعاب ، والّتي ستحدّدها الحكومة التّركيّة نفسها ، وفي خطوة أبعد ، تولّى طلعة باشا نفسه في برلين بحث مسألتي تنظيم الهجرة والاستيطان مع لجنة من اليهود الألمان ، ووافق على اقتراح الحكومة التّركيّة والطّائفة اليهوديّة ، وبالتّالي تكوّن الإدارة والإطار لتنظيم الهجرة والاستيطان ، وتفوّض بمنح الحكم الذّاتي البلدي الموسّع للطّوائف اليهوديّة في فلسطين ، وفي جميع أنحاء الدّولة العثمانيّة[1] .

وفي آب (أغسطس) ١٩١٨ جرت محاولة أخيرة لتشكيل لجنة لحلّ الخلافات بين الدّولة العثمانيّة والمنظّمات الصّهيونيّة ، لكن الدّولة العثمانيّة انهارت قبل عقد الاجتماع .

وبين عامَيْ ١٩١٨ ـ ١٩٢٠ م ، أتمّت القوّات البريطانيّة بقيادة الجنرال ألّنبي[2] احتلال فلسطين ، ووضعت تحت الإدارة العسكريّة المباشرة في تشرين الأوّل (أكتوبر) ١٩١٨ م ، فقسّمت إلى ثلاثة عشر لواء ، على رأس كلّ لواء حاكم عسكري بريطاني ، وجميعهم مرتبطون بحاكم عسكري في القدس ، كان بدوره مرتبطاً بالقيادة العامّة للجيش البريطاني في القاهرة ، ثمّ تقلّص العدد إلى عشرة سنة ١٩١٩ م[3] .

---

(١) الموسوعة الفلسطينيّة : ٧٨/١

(٢) ادمون ألّنبي Allenby : [١٨٦١ ـ ١٩٣٦] ضابط بريطاني ، دخل فلسطين ١٩١٧ م ، وحكم مصر ١٩١٩ ـ ١٩٢٥ م .

(٣) وفي سنة ١٩٢٠ خُفّض عدد الألوية العشرة الّتي كانت في عهد الإدارة العسكريّة إلى سبعة ، ثمّ إلى أربعة ، ثمّ صدر في سنة ١٩٢٢ منشور التّشكيلات الإداريّة (المادّة ١١ من مرسوم دستور فلسطين) ، فقسّمت إلى ثلاثة ألوية :

١ ـ لواء القدس : قاعدته القدس ، ويضمّ أقضية بيت لحم والخليل والقدس وأريحا ورام الله .

٢ ـ اللّواء الشّمالي : قاعدته حيفا ، ويضمّ أقضية عكّا وبيسان وجنين ونابلس والنّاصرة وصفد وطبريّة وطولكرم .

٣ ـ اللّواء الجنوبي : قاعدته يافا ، ويضمّ أقضية بئر السّبع وغزّة ويافا والرّملة .

زيدت ألوية فلسطين إلى ستّة ألوية في ١ تموز (يوليو) ١٩٣٩ ، وهي ألوية : الجليل ، وحيفا ، ونابلس ، والقدس ، واللّد ، وغزّة ، وظلّ هذا التّقسيم قائمًا حتّى نهاية الانتداب سنة ١٩٤٨ م .

لقد هيَّأت هذه الإدارة العسكريَّة السَّبيل لقدوم البعثة الصُّهيونيَّة العالميَّة برئاسة وايزمن إلى فلسطين في أواخر الحرب العالميَّة الأُولى ، لإرساء أُسس إقامة الوطن القومي .

وفي تموز (يوليو) ١٩٢٠ م تمَّ الانتقال من الإدارة العسكريَّة إلى إدارة مدنيَّة سُمِّيت (حكومة فلسطين) ، وأصبح الصُّهيوني البريطاني هربرت صموئيل أوّل مندوب سامٍ بريطاني في فلسطين ، وبتاريخ ٩ شباط (فبراير) ١٩٢٢ م ، نُشر مشروع الدُّستور في فلسطين (القانون الأساسي) ، الَّذي وضعته الإدارة المدنيَّة ، ووافقت عليه الحكومة البريطانيَّة ، بعد التَّشاور مع ممثِّلي الحركة الصُّهيونيَّة ، دون أخذ رأي اللّجنة الاستشاريَّة الإسلاميَّة ـ المسيحيَّة ، الَّتي أُلِّفت لهذا الغرض ، وتضمَّن مشروع الدُّستور اعترافه بوعد بلفور ، وتركيز السُّلطة في يد المندوب السّامي ، ومنحه سلطة مطلقة لنقض أي قانون يقرُّه المجلس التَّشريعي ، وحقّاً في إبطال مواد الدُّستور ، وفي الإضافة إليها .

وبتاريخ ٢٤ تموز (يوليو) ١٩٢٢ م أقرّ مجلس عصبة الأُمم صكّ الانتداب ، مخوِّلاً في مادَّته الأُولى الدَّولة المنتدبَة ، السُّلطة التّامّة في التّشريع والإدارة ، مؤكِّداً في مادّته الثَّانية مسؤوليَّة الدَّولة المنتَدبة عن وضع البلاد في أحوال سياسيّة وإداريّة واقتصاديّة ، تضمن إنشاء الوطن القومي اليهودي ، معترفاً في مادّته الرّابعة بالوكالة اليهوديّة هيئة عموميّة لإسداء المشورة إلى الإدارة ، وللتّعاون معها في الشؤون الاقتصاديّة والاجتماعيّة ، وغير ذلك من الأُمور الّتي تؤثّر في إنشاء الوطن القومي اليهودي .



اقتصادياً : عاشت بلاد الشّام في حالة إملاق منذ القرن السّادس عشر ، فهل تتحمّل الدّولة العثمانيّة وحدها كلّ المسؤوليّة عن الانهيار الاقتصادي للمنطقة في غضون القرون الثّلاثة الأخيرة ؟

النِّظام الحكومي العثماني ـ نظام الالتزام ـ ساعد أكثر من أيِّ شيءٍ آخر على التَّدمير السِّياسي للمنطقة ، ولكن نظرة إلى التَّاريخ في القرن الخامس عشر الميلادي ، تعلمنا أن بلاد الشَّام وإن حُرِمت من سراج العِلْم الَّذي توهَّج فيها مراراً منذ القديم ، ازدهرت تجارتها وصناعتها الفاخرة ، ولم تتوقَّفا عَن الازدهار والنُّمو ، ودليل ذلك تلك الثَّروات الَّتي نهلت منها الجمهوريَّات البحريَّة في إيطالية .

لقد أخذت بلاد الشَّام تذبل ، لتصل صناعتها وتجارتها إلى عياء مطلق ، قُبَيل دخولها في قوام الإمبراطوريَّة العثمانيَّة ، وذلك حينما فتح البحَّارة الغربيُّون طرقاً جديدة للتِّجارة العالميَّة ، وانتزعت من السَّاحل الشَّرقي للبحر المتوسِّط ، ذلك الاحتكار الَّذي لا يقدَّر بثمن للاتِّصالات بين الغرب ، وبين بلدان الشَّرق الدَّاخليَّة والهند وفارس ، فليس سيف سليم الأوَّل وخَيْلُه ، بل بوصلة فاسكو دي غاما[1] هي الَّتي وضعت حدّاً لرخاء بلاد الشَّام ، لذلك قيل : لقد كانت أُولى الكوارث الَّتي حلَّت بالعرب في تاريخهم الحديث ، وصول أُسطول برتغالي إلى المياه الهنديَّة في ربيع سنة ١٤٩٨ م ، ثمَّ مهاجمة السُّفن العربيَّة والموانئ الهنديَّة من قبل الأُسطول البرتغالي ، وفرض حصار على مدخَلَيْ البحر الأحمر ، والخليج العربي ، لمنع السُّفن العربيَّة من إيصال التَّوابل إلى أسواق سوريَّة ومصر[2] .

وكانت أسواق مصر وسوريَّة سنة ١٤٩٨ م ملأى بالتَّوابل الَّتي لا تجد لها مشترياً ، ولكن سفن البندقيَّة لم تجد بعد أربع سنوات إلاَّ أربع (بالات) توابل ، وعادت هذه

---

(١) فاسكودي غاما Vasco da Gama [١٤٦٩ ـ ١٥٢٤ م] : بحَّار برتغالي ، أبحر من لشبونة في ٨ تموز (يوليو) ١٤٩٧ ، فوصل المياه الهنديَّة في ربيع ١٤٩٨ ، وعاد إلى بلاده فوصل لشبونة في أيلول (سبتمبر) ١٤٩٩ ، ثمَّ قاد حملة ثانية وثالثة ، وهاجم السُّفن العربيَّة والموانئ الهنديَّة ، [في طلب التَّوابل ، سونيا هاو ، مكتبة نهضة مصر ومطبعتها ١٩٥٧ ، ص ١٨٠] .

(٢) تاريخ العرب الحديث ، عبد الكريم محمود غرايبة : ٩/١ ، مطبعة جامعة دمشق ـ ١٩٦٠ م .

السُّفن من السَّواحل العربيَّة دون حمولة سنة ١٥٠٤ م[1] ، في حين كانت السُّفن البرتغاليَّة تفرِّغ آلاف الأطنان في لشبونة ، لتُوَزَّع على أقطار أوربَّة ، وهكذا حلَّت الكارثة بالأسواق العربيَّة خلال فترة لا تزيد عن ستّ سنوات .

وعجز المماليك عن ردّ هذا الخطر البرتغالي ، خصوصاً بعد تحالف البرتغاليين مع الدَّولة الصَّفويَّة[2] ، الَّتي تنازلت لهم عن مضيق هرمز ، مقابل وعدهم بمساعدتها ضدَّ ـ العدوّ المشترك ـ العثمانيِّين .

وبعد مرج دابق[3] تقرَّر مصير الوطن العربي لأربعة قرون ، وطوال القرون الثَّلاثة الأُولى تحقَّق حكم مقبول من الشَّعب ، مع حمايةٍ من الاعتداءات الخارجيَّة ، وضمان مقدار العدالة ـ حسب مفاهيم العصر ـ وإذا ما نظرنا إلى واقع الأُمور في البلاد العربيَّة قطراً قطراً ، لوجدنا الأحوال فيها قد استقرَّت وهدأت وتجمَّدت ، ولاةٌ عديدون ، يروحون ويجيئون ، فلا يختلف ـ إلى حدٍّ بعيد ـ غير الاسم .

لقد حرمت المنطقة من تلك الثَّروات الَّتي كانت تَصُبُّ في شرايينها من الخارج ، فصارت تذوي منذ ثلاثة قرون ، وعندما فتح إبراهيمُ باشا سوريَّة ، وطَّد الأمن والنِّظام في ربوعها ، وشكَّل في كلّ مدينة يزيد سكَّانها على عشرين ألف نسمة مجلساً يسمَّى (ديوان المشورة) يتراوح عدد أعضائه بين ١٢ و ٢١ عضواً ينتخبون من بين أعيان البلد وتجَّارها ، وتنظر هذه المجالس في مصالح كلّ بلدة .

وفتح إبراهيم باشا (الأرض المقدَّسة) فلسطين أمام تغلغل أُوربة السِّياسي والدِّيني والثَّقافي ، خلال الحكم المصري لبلاد الشَّام : [١٨٣١ ـ ١٨٤٠ م] ، وبالتَّحديد سنة

---

(١) أحرق البرتغاليُّون عشر سفن مصريَّة سنة ١٥٠٠ م ، وهاجموا عدن ، وأحرقوا ونهبوا سفناً عربيَّة في مينائها سنة ١٥٠٢ ، ثمَّ وصلوا جُدَّة .

(٢) إيران وعلاقاتها الخارجيَّة في العصر الصَّفوي ، نصر الله فلسفي ، دار الثَّقافة ـ مصر ، ١٩٨٩ م .

(٣) مرج دابق شمالي مدينة حلب ، كانت المعركة بتاريخ : الأحد ٢٤ آب (أُغسطس) ١٥١٦ م .

١٨٣٨ م ، وفي هـذه السَّنـة حـلَّ في القـدس أوَّل قنصل أُوربي ، ألا وهـو القنصـل البريطاني[١]

وبعـد سنـة ١٨٤٠ م دخل المـزيـد من القنـاصـل الأُوربيِّين[٢] ، ووقعت فلسطين بصورة مباشرة في دوَّامة تضارب المصالح بين الدُّول الأُوربيَّة الكبرى في إطار (المسألـة الشَّرقيَّة) ، ففرنسة مثلاً ترى أن النُّفوذ الاقتصادي المناسب ، يضمن لها نفوذاً سيـاسيّـاً نـامياً ، ومركزاً جـديـداً موطَّـداً ، لا في الشَّرق فقـط ، بل وفي حوض البحر المتوسِّط أيضاً ، تجاريّاً واستراتيجيّاً .

وعنـدمـا تنبَّـه الرُّوس للنُّفوذ الاقتصـادي الفرنسي ، أسَّسُـوا سنـة ١٨٥٦ م شركـة (الملاحة التِّجاريَّة الرُّوسيَّة) ، لتزاحم خطوط البحر المتوسِّط الفرنسيَّة والنِّمسـاويَّـة ، وانتزعوا من فرنسة بشكل خاص أشغال نقل الحجَّـاج الرُّوس إلى فلسطين ، الَّـذين كانوا يشكِّلون الفصيل الأكبر في سيل الحجَّاج السَّنوي إلى الأرض المقدَّسة ، حتَّى بلغ عـددهم حدَّه الأعلى سنـة ١٩٠٠ ، حينما وصل إلى ١١,٠٠٠ حـاج ، فـاقترح إرسـال مبعوث إلى القدس يجمع في شخصه بين صفة ممثِّل شركة الملاحة ، وصفة قنصل روسية[٣]

وعلى إثر إفلاس الدَّولة العثمانيَّة سنة ١٨٧٥ م ، طالب رجل الصِّنـاعـة البريطـاني إدوارد كازاليت Edward Gozalet بإقامة محميَّة بريطانيَّة في فلسطين يكون هدفها إعادة اليهـود ، وربـط البـلاد بصـورة واضحـة بـإنكلترة[٤] ، واقترح تشـارلـز وارن

---

(١) تحوُّلات جذريَّـة في فلسطين ، الكزانـدر شولش ، ترجمـة د . كامل العسلي ، عمَّـان ١٩٨٨ ، منشورات الجامعة الأردنيَّة ، ص : ٦٠

(٢) افتتحت بروسيـة قنصليَّـة لها سنة ١٨٤٢ ، وفرنسـة سنـة ١٨٤٣ ، وأمريكـة سنـة ١٨٤٤ ، والنِّمسـة سنة ١٨٤٩ م .

(٣) تحوُّلات جذريَّة في فلسطين ، ص : ٧٢

(٤) وهذه الدَّعوة حركة دينيَّة تعود في جذورها التَّاريخيَّة إلى القرن السَّابع عشر في إنكلترة ، وأخـذت هـذه الحركـة اسم (شهوديَهْوَه) ، وهـدفهـا : تحقيق نبوءات التَّـوراة ، وفي مقـدِّمتهـا تنفيـذ الـوعـد الإلهي المقـدَّس ، بتمليـك أرض الميعـاد لإبراهيم وبني إسرائيل إلى الأبـد . وقـالت : إن المسيح المنتظر سيعـود =

Charles Warren أن تسلّم الأرض المقدّسة نظراً لإفلاس الدّولة العثمانيّة لمدة عشرين سنة إلى شركة على غرار شركة الهند الشّرقيّة ، تضمن للدّولة العثمانيّة إيرادات الضّرائب المتحصّلة من فلسطين في ذلك الوقت ، وتدفع لدائنيها (أي دائني الدّولة العثمانيّة) جزءاً من الفوائد المستحقّة لهم .

إنّ المساعي الأوربيّة في فلسطين لم تكن ذات طبيعة اقتصاديّة في الدّرجة الأولى ، فلم تكن هناك مصالح اقتصاديّة خاصّة وبارزة في فلسطين ، فقد كانت هذه مندرجة في سياق التّغلغل الاقتصادي العام في الشّرق الأدنى ، إلاّ أنّ التّغلغل الأوربي في فلسطين ، وفي هذا الإطار حجم التّجارة المتنامي أيضاً ، كان لهما تأثيرات هامّة على التّطوّر الاقتصادي للبلاد ، وبالتّالي على الهيكل الاجتماعي فيها .

أمّا ماذا كانت فلسطين تستطيع أن تقدّمه إلى أوربة في القرن التّاسع عشر ومطلع القرن العشرين ، وبعبارة أخرى ، ما أهمّيّتها بالنّسبة للأوربيّين ؟ فقد تجلّى ذلك بصورة مجسّمة في المعرض العالمي الّذي أقيم في ڤيينة سنة ١٨٧٣ م ، لم يكن هناك بطبيعة الحال جناح خاص بفلسطين ، إذ كانت منتجات فلسطين مندرجة ضمن معروضات الدّولة العثمانيّة ، ومع ذلك فقد أُفرد مكانٌ خاص للحديث عن (فلسطين في المعرض العالمي) إلى الجمهور النّاطق بالألمانيّة ، وكان ذلك قد تمّ للمرّة الأولى بالفعل منذ بداية تلك العروض الّتي أقامتها أوربة الآخذة في التّصنيع لنفسها في لندن سنة ١٨٥١ ، وذلك تلبيةً للاهتمام المتزايد على الدّوام بـ (الأرض المقدّسة)[1] .

= ويجمع اليهود في جزيرة ـ إنكلترة ـ وينطلق بهم إلى أرض الميعاد حيث يقيم هناك مملكة الشّرب ، والّتي ستدوم ألف سنة ، أهم كتبهم : الاستماع إلى المعلم الكبير ، الحقّ الّذي يقود إلى الحياة الأبديّة ، يمكنكم أن تحيوا إلى الأبد في الفردوس على الأرض (الطّبعة العربيّة ١٩٨٥ : Brooklyn, New York (U.S.A. .

(١) تحوّلات جذريّة في فلسطين ، ص : ٩٣

لقد ساهمت فلسطين ، وبفضل فائضها الزِّراعي ، في تموين المناطق المجاورة ، وخصوصاً مصر ولبنان وساحل آسية الصُّغرى الغربي ، وأكثر من ذلك ، فهي قد قامت بفضل صادراتها إلى أوربة ، ومحدوديَّة وارداتها ، بدور ملموس في تحقيق التَّوازن في الميزان التِّجاري لبلاد الشَّام بأسرها[1] .

صَدَّرت فلسطين : القمح والشَّعير والسُّمسم والذُّرة والبقول والتَّبغ والزَّيت والصَّابون وخشب الزَّيتون والأواني الصَّدفيَّة والزُّجاجيَّة . (انظر الجداول في الملحق :

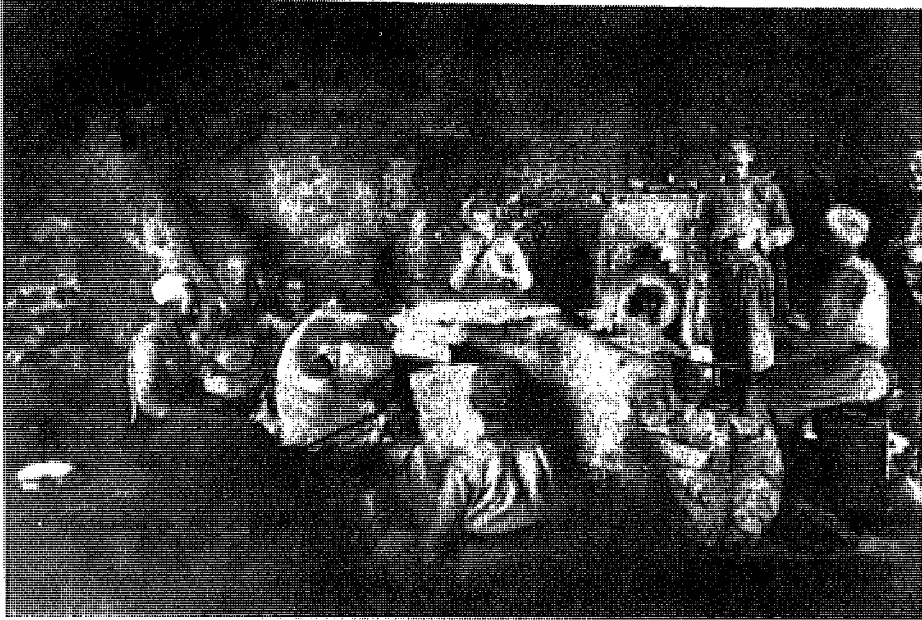
- أهم سلع التَّصدير من ميناء يافا .
- تصاعد الصَّادرات الرَّئيسيَّة من يافا .
- قيمة أهم ثلاث سلع من سلع التَّصدير من يافا .
- عدد السُّفن القادمة إلى يافا) .

واستوردت فلسطين : الأرز من إيطالية ومصر ، والسُّكَّر من فرنسة وإنكلترة ، والبن من أمريكة الجنوبيَّة واليمن ، والمصنوعات القطنيَّة من إنكلترة وسويسرا ، والأقمشة من سويسرا وألمانية ، والمصنوعات الحديديَّة ولوازم الخياطة من ألمانية وإنكلترة والنِّمسة وفرنسة ، والأخشاب من آسية الصُّغرى ورومانية ، والبترول من أمريكة ، والفحم الحجري من إنكلترة .

ولم يكن للقدس بالنِّسبة للاقتصاد الفلسطيني أهمِّيَّة كبيرة ، لا كموقع تجاري ، ولا كمركز للإنتاج الحرَفي ، فقد كانت المدينة تعيش في المقام الأوَّل من أجل (الأماكن المقدّسة) ، ولكنها كانت مدينة نابضة بالحياة ، بما يؤمُّها من الحجَّاج والسُّيَّاح من مختلف أنحاء العالم ، وكانت يافا ثغرها على البحر المتوسِّط[2] .

---

(١) المرجع السَّابق ، ص : ١٣٠ (بتصرُّف) .
(٢) بدأ تشغيل خط حديدي بين يافا والقدس سنة ١٨٩٢ م .



معمل زجاج في مدينة الخليل



مصنع صابون في مدينة نابلس



☆ صانع الأواني الفخاريّة



☆ الأعمال الخزفيّة في القدس



بعض المهن اليدويّة في فلسطين

التلغراف في بلاد الشام

■ محطات التلغراف الرئيسيّة

● محطات رئيسيّة

○ محطات

المصوّر «٥»

ولقد عاش سكّان فلسطين على الزِّراعة وبعض الحرف ، الّتي أهمّها صناعة الصّابون ، والفخّار ، والسّلال ، والنِّجارة ، والحِدادة ، والحياكة .. وصنع التُّحف السِّياحيّة . (انظر صورة صناعة السّلال ، وصورة صناعة الفخّار) .



اجتماعيّاً : كان يسكن في فلسطين سنة ١٨٥٠ م زهاء ٣٥٠,٠٠٠ نسمة ، وكان حوالي ثُلُثَي السُّكّان يعيشون في ٦٥٧ قرية ، وزهاء الثُّلث في ١٣ مدينة أو بلدة ، وكان ٨٥٪ من السُّكّان من المسلمين ، وشكّل المسيحيُّون ١١٪ ، تركّزوا في مدن : القدس ، بيت لحم ، يافا ، اللُّدّ ، الرَّملة ، حيفا ، عكّا ، النّاصرة ، وكان حوالي ٤٪ من السُّكّان من اليهود الّذين عاشوا في القدس والخليل وصفد وطبريّة ، (انظر جدول تطوُّر سكّان فلسطين : ١٨٥٠ ـ ١٩١٩ م ، وجدول التّطور السُّكّاني لمدن فلسطين : ١٨٠٠ ـ ١٩٢٢ م . وجدول عدد السُّكّان التّقديري سنة ١٨٤٧ م ـ فلسطين الوسطى والشّماليّة ـ وجدول سكّان القدس بين ١٨٤٠ ـ ١٨٩٠ م) .

عاش سكّان فلسطين في دور قديمة ، عبارة عن منشور حجري ، نوافذها قليلة وضيّقة ، وسقوفها مكلّسة على الغالب ، قد تلاصق بعضها ببعض ، ولهذا لا يمكن أن يوجد بين الدُّور فسحة صغيرة ، أو جدار ، أو سياج ، أو شجرة ، والأزقّة الّتي تؤدّي إلى الدُّور أزقّة ضيّقة[١] .

وبعض الدُّور ذات طبقتَيْن ، ودور أشادتها الثَّروة الجديدة بكل عناية ، ففرشت بالمرمر ، أو الأحجار المصقولة ، وأُقيم في وسطها حوض صغير يتدفّق منه الماء الزُّلال ، وأمام الحوض غرفتان ، أو دائرة ، ويطلقون اسم (ديوان) على الهيئة العموميّة لهذه

(١) الخزانة التّاريخيّة ٩ ، ولاية بيروت والقسم الجنوبي ، دار لحد خاطر ، الطّبعة ٣ ـ ١٩٨٧ ، ص ١١٠ وما بعدها .

الحالة ، والدّواوين[1] منفصلة تماماً عن جناح النّساء ، لأنّها مختصّة باستقبال الزّائرين من الرّجال .

ومن السّهل معرفة قواعد الفرش في أبنية الدّور ، سواء المبنيّة على الطّراز القديم أو الحديث ، ويغلب على السّكّان المحافظة على القديم ، فهم يحافظون على ما تركه لهم آباؤهم ، فطراز الفرش المتّبع في عموم الشّرق متّبع أيضاً هنا ، فترى في وسط الغرفة حصير أو سجّادة ، وفوقها فُرُشٌ ، من ورائها وسادتان أو أكثر ، وإذا كانت الحالة مساعدة ، زادت مفروشات الغرفة مرآة أو خزانة صغيرة ، وعدّة قناديل وفناجين صينيّة وصحوناً وأقداحاً .. ويعلّقون على الجدران لوحات كتب عليها بعض الآيات الكريمة .. وهذا كافّة ما هو متّبع من الأصول بفرش الدّور .

ومع هذا ، فإنّ الدّور الّتي فُرشت على الطّريقة الشّرقيّة ، لا تخلو منها آثار التّجدّد أحياناً ، فترى أنّ المقاعد مرتفعة قليلاً ، وفي الغرفة بعض الكراسي ، وفي وسطها خوان[2] .

وفي مطابخ أفقر الأهلين الشّيءُ الكثير من الأواني النّحاسيّة ، والكثير من الحبوب ، وفي بعض الدّور آبار ، وفي بعضها (صهاريج) تُملأ بماء الشّتاء .

أمّا (الزّواج) : فقد جرت العادة أنّ الأُسر المعروفة بشرفها ، لا تزوّج إلاّ بعضها ، ولا يمكن لأحد أن يتزوّج بأيّة شريفة إلاّ إذا كان من تلك العائلات ، حتّى لو كان غنيّاً وصاحب ثروة ، وكان الغلوّ يشتدُّ أحياناً بينهم ، حتّى إنّ بعض الأُسر كانت تحصر تزويج بناتها بأفرادها الذّكور فقط .

---

(١) يعلّقون في سقف الدّيوان فانوساً كبيراً بسلسلة ، حيث يتحلّقون بلا تصنّع ليشربون (الأراكيل) تحت أشعّة ضئيلة يرسلها عليهم الفانوس المعلّق .

(٢) الخُوانُ والخِوَان : الّذي يؤكل عليه ، (اللّسان : خون) .

ولا تُظهِر الشَّريحة الشَّعبيَّة العريضة صعوبات في مسألة الزَّواج ، فهناك من لا يمتلك إلاَّ مئة قرش وتراه يُقْدِمُ بكلِّ بساطة على الزَّواج[1] .

وللزَّواج تقاليده ، فبعد الخطبة يَتِمُّ تجهيز العروس بشراء بعض الثِّياب والحاجيَّات ، ويجري الزِّفاف في موعده المتَّفق عليه ، وفي اللَّيلة التَّالية لليلة السَّمر (التَّعليلة) ، حيث يقيمون أيَّام العرس المآدب وحفلات الغناء والرَّقص (الدَّبكة) .

التَّعليمُ : يرجع تنظيم التَّعليم في فلسطين إلى قانون التَّعليم العثماني الصَّادر سنة ١٨٦٩ م ، وقد ترسَّخ نظام التَّعليم في قانون سنة ١٩١٣ ، الَّذي وضع لتقوية إشراف الدَّولة على المدارس ، وعلى الرَّغم من ذلك ظلَّت غالبيَّة المؤسَّسات التَّعليميَّة في متصرفيَّة القدس بيد الإرساليات الأجنبيَّة ، بعيداً عن رقابة الدَّولة[2] .

اعتمد التَّعليم العثماني النَّموذج الفرنسي ، وكان مجانيّاً وإلزاميّاً ـ ولو نظريّاً ـ وكانت اللُّغة التُّركيَّة لغة التَّعليم ، وكانت الدِّراسة في المدارس العموميَّة (الحكوميَّة) تتكوَّن من أربع مراحل :

١ ـ ابتدائيَّة دنيا[3] : التَّعليم فيها إجباري ومجَّاني ومدَّته أربع سنوات ، وكانت كلُّ قرية كبيرة ، أو مجموعة قرى صغيرة متجاورة ، تحتوي على مدرسة من هذا النَّوع .

٢ ـ ابتدائيَّة عُليا (رشديَّة)[4] ، مدَّتها أربع سنوات أيضاً ، والتَّعليم فيها مجَّاني ، وقد وجدت هذه المدارس في المدن الصَّغيرة نسبيّاً .

٣ ـ مدارس ثانويَّة دنيا (إعداديَّة) مجَّانيَّة ، ومدَّة التَّعليم فيها ثلاث سنوات ، وكان في فلسطين ثلاث من هذه المدارس في القدس ونابلس وعكَّا .

---

(١) ولاية بيروت ، القسم الجنوبي ، ص ١٢٤ و ١٢٥

(٢) الموسوعة الفلسطينيَّة : ٥٢٩/١

(٣) وقد تسمَّى : (صبيانيَّة) .

(٤) نسبة إلى أحمد رشيد متصرِّف القدس ، (الموسوعة الفلسطينيَّة ١٧١/٤) .

٤ ـ مدارس ثانويّة عُلْيا (سلطانيّة) ، مدّة التّعليم فيها ثلاث سنوات ، وكان في فلسطين مدرسة واحدة من هذا النّوع في القدس ، والدّراسة في هذه المرحلة ليست مجّانيّة ، إلاّ أنّ السُّلطات كانت تقوم بدفع الأقساط عن الطُّلاّب الفقراء ، وتضمّ هذه المرحلة قسماً داخليّاً اختياريّاً يعيش الطّلبة فيه .

وألزم القانون المدارس الخصوصيّة ، سواء أكانت وطنيّة تشرف عليها هيئة أو جماعة محلّيّة أم أجنبيّة تشرف عليها مصالح أجنبيّة ، التّقيّد ببرامج التّعليم المتّبعة في المدارس الحكوميّة العموميّة فيا يتعلّق بالمناهج التّربويّة ومقتضيات تأهيل المعلمين .

المدارس الأجنبيّة (الإرساليّات) : وجدت المدارس الأجنبيّة في فلسطين منذ القرن التّاسع عشر تقريباً ، وكان منها الأمريكيّة والألمانيّة والإنكليزيّة والفرنسيّة والإيطاليّة والرّوسيّة ، ويعود تأسيس هذه المدارس إلى اهتام تلك الدّول بالأراضي المقدّسة ، وكانت الدّولة العثمانيّة قد منحت كلّ طائفة من الطّوائف الدّينيّة ، من غير المسلمين ، امتيازات في كلّ ما يتّصل بالشؤون الدّينيّة والتّعليميّة ، كما منحت هذه الدّول حقّ تأسيس المدارس وإدارتها ، وكانت هذه المدارس تبشيريّة ، يشرف عليها ما يسمّونه (الإرساليّات الدّينيّة) الّتي كانت تحميها الدّول التّابعة لها .

وكان للرّوس في فلسطين قبل الحرب العالميّة الأولى عدّة مدارس ابتدائيّة [١] ، وعدّة معاهد ثانويّة ودار للمعلّمين ، وأخرى للمعلّمات ، ومن الدّوافع الرّئيسيّة الّتي دعت إلى وجود هذه المدارس وانتشارها ، أنّ روسية أخذت ترى نفسها حامية لطائفة الأرثوذكس .

وامتازت المدارس الرّوسيّة في فلسطين باهتامها باللّغة العربيّة ، لهذا أسّس الرّوس داراً للمعلّمين وأخرى للمعلّمات من أجل إعداد المعلّمين باللّغة العربيّة ، وكان بعض

(١) أرسلت روسية إلى فلسطين إرساليّة برئاسة الأرشمندريت بورفيري أوسبنسكي Porfiri Uspenski : (١٨٤٣ ـ ١٨٥٤) كانت مهمّتها أن تتفحّص الوضع ، وأن تشدّ أزر العرب الأرثوذكس ، وأن تقيم مركزاً متواضعاً لروسية في فلسطين (تحوّلات جذريّة في فلسطين ، ص : ٧١) .

مدرِّسي المدارس الرُّوسيَّة من العرب الَّذين أنهوا دراستهم العُليا في روسية ذاتها ، وجرت العادة أن يؤخذ الطُّلاَّب المتفوِّقون الَّذين يتخرَّجون من هذه المدارس إلى روسية لاستكمال دراستهم العالية فيها .

وقد كان مقرُّ دار المعلِّمين الرُّوسية في مدينة النَّاصرة ، وضمَّت في إحدى السَّنوات ٢١٠ طلاَّب ، معظمهم في القسم الدَّاخلي ، أمَّا دار المعلِّمات الرُّوسيَّة فكان مقرُّها مدينة بيت جَالا[١] . ومن الطُّلاب الَّذين تخرَّجوا من المعاهد الرُّوسيَّة في فلسطين ، وعلَّموا فيها فيما بعد ، وكان لهم التَّأثير في الحركة الفكريَّة والأدبيَّة فيها : إسكندر الخوري ، وخليل بيدس ، وسليمان قباعين ، وفضيل النّمر ، وناصر عيسى ، ونعمة الصَّبَّاغ ، وأتاحت المدارس الرُّوسيَّة في فلسطين الفرصة أيضاً أمام الطُّلاب العرب من خارج فلسطين للدّراسة فيها ، إذ تخرَّج منها : نسيب عريضة ، وميخائيل إسكندر ، وميخائيل نعيمة .

أوصدت المدارس الرُّوسيَّة أبوابها بعد انتهاء الحرب العالميَّة الأُولى .

الأدبُ الفِلَسْطيني : جاء في (الموسوعة الفلسطينيّة ١/١٣٤) : « من يتتبَّع حركة النَّقد الأدبي الفلسطيني الحديث في النِّصف الثَّاني من القرن التَّاسع عشر ، يكاد لا يظفر بشيء ذي بال ، فقد كانت هذه المرحلة ، مرحلة تقاريظ ساذجة ، ومن أمثلة ذلك ما عمد إليه عبَّاس الخمَّاش من نابلس من تقريظ مجلَّة (الجِنان) للمعلِّم بطرس البستاني[٢] ، وما فعله أبو السُّعود أحد علماء القدس الشَّريف بكتاب (سرّ اللَّيال) لأحمد فارس الشّدياق ، وما فعله يوسف أسعد (بالجوائب) أيضاً ، وما فعله كذلك يوسف النَّبهاني (بالجوائب) و (سرّ اللَّيال) .

---

(١) بيت جالا : بلدة تقع على بُعْد كيلَيْن إلى الشّمال الغربي من مدينة بيت لحم (معجم بلدان فلسطين) ، محمد محمد شرّاب ، ص : ١٨٠ ، دار المأمون دمشق .

(٢) بطرس البستاني [١٨١٩ ـ ١٨٨٣ م] أصدر منفرداً أو مع ابنه سليم ، أربع صحف هي : نفير سوريَّة ، الجنان ، الجنَّة ، الجنينة .

وكانت قفزة مع مطلع القرن العشرين في حركة النَّقد الأدبي في فلسطين ، وذلك بظهور كتاب روحي الخالدي المقدسي : (تاريخ علم الأدب عند الإفرنج والعرب وڤيكتور هوغو) ، فقد كان هذا الكتاب سبقاً في عالم النَّقد الأدبي العربي الحديث[1] ، وفي حين كان النَّقد الأدبي العربي الحديث في مطلع القرن العشرين يكتفي بالمطالبة بالجديد ، دون أن يبيِّن عن فِكَر أدبيَّة متبلورة ، جاء كتاب روحي الخالدي يحمل هذه الأفكار .

وارتاد النَّقد الأدبي الفلسطيني بعد كتاب الخالدي آفاقاً واسعة تضاهي آفاق النَّقد الأدبي المتقدِّمة ، فبرز نشاط الأُستاذ خليل بيدس في مجلَّته (النَّفائس العصريَّة) منذ سنة ١٩٠٨ م[2] ، وظهرت بوادر النَّقد الأدبي الفلسطيني في هذه المرحلة في الصُّحف أكثر من ظهورها في كتب نقديَّة .

وعرف الفلسطينيُّون أدب الرحلات ، لأنَّهم ترجموا ثمرة اتِّصال فلسطين بكثير من بلدان العالم ، وثمرة اتِّصالهم هم أنفسهم بتلك البلدان ، وقد برز منهم الشَّيخ خليل الخالدي[3] ، الَّذي شدَّ الرِّحال إلى العالمين العربي والإسلامي ، وطاف في دور الكتب

---

(١) بدأت طباعة هذا الكتاب وظهر للجمهور ما بين سنة ١٩٠٢ و ١٩٠٤ م ، (الموسوعة الفلسطينيَّة ١٣٤/١) .

(٢) كما صدر العدد الأوَّل من المجلَّة الاجتماعيَّة نصف الشهريَّة (الأصمعي) في القدس بتاريخ ١٩ آب (أغسطس) ١٩٠٨ م ، وهي تُعدُّ أوَّل مجلَّة عربيَّة صدرت في فلسطين ، سمَّاها صاحبها حنَّا عبد الله العيسى (الأصمعي) لولعه بالأصمعي ، وقد عالجت المجلَّة الموضوعات الاجتماعيَّة والسِّياسيَّة والتَّربويَّة والأدبيَّة ، طُبِعَت (الأصمعي) في القدس ، في مطبعة جورجي حبيب حنانيا صاحب جريدة (القدس) ، أمَّا مكاتب إدارتها فكانت في يافا ، صدر منها أحد عشر عدداً ، توقَّفت عن الصُّدور بعد وفاة صاحبها بتاريخ : ١٩٠٩/٩/١٢ م . شارك في تحريرها والكتابة فيها : خليل السَّكاكيني الَّذي تكنَّى بأبي الطيِّب لولعه بالمتنبِّي ، ومحمَّد إسعاف النَّشاشيبي الَّذي تكنَّى بأبي الفضل ، لولعه ببديع الزَّمان الهمذاني ، (الموسوعة الفلسطينيَّة : ٢٦١/١) .

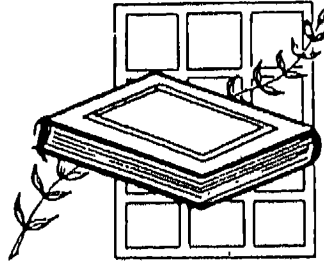
(٣) خليل جواد بن بدر الخالدي [١٨٦٦ ـ ١٩٤١ م] ، جاء في الأعلام ٣١٦/٢ : « كان من أعلم النَّاس

القائمة في العواصم آنذاك ، ووقف على تلك الخزانات وما احتوته من كتب مخطوطة وآثار محفوظة ، ونسخ شاردة ، واجتمع له من هذا كُلّه أن أصبح ثقة العالم الإسلامي في التّراث العلمي الإسلامي ، الممثّل في الكتب والمدوّنات والسّجلات والمكتبات والكراريس والمخطوطات[1] .

وعندما زار روحي الخالدي الأندلس ، دوّن كتاباً عنوانه (رحلة إلى الأندلس) ، وصف فيه آثار تلك البقعة النّادرة في طبيعتها وآثارها .

وبندلي الجوزي الّذي ألّف كتاباً عنوانه : (رحلة البطريرك مكّاريوس ابن عم الزّعيم إلى بلاد الكُرْج) .





= بالمخطوطات وأماكنها » ، ولي القضاء الشّرعي في كثير من المدن ، ولد بالقدس ، وتوفّي بالقاهرة ، له : الاختيارات الخالديّة في الأدب ، نحو ٣٠ كرّاسة ، وقيل له (مذكّرة) في نحو خمسين جزءاً ، في ذكر ما وقف عليه من الكتب والمكتبات الّتي زارها .

(١) الموسوعة الفلسطينيّة : ١٣٨/١

بَنْدَلي الجوزي

حياته

بَنْدَلي الْجَوْزي

حَيَاتُهُ

وُلِدَ بَنْدَلي بن صَلِيبَا الْجَوزي يوم الأحد ٢ تموز (يوليو) سنة ١٨٧١ ميلاديَّة[١] ، في مدينة القدس من عائلة عربيَّة ، تعود في أُصولها إلى قبيلة (غَسَّان)[٢] ، وتوفِّي يوم الإثنين ١٩ كانون الثَّاني سنة ١٩٤٢ ميلاديَّة[٣] ، في مدينة باكو[٤] .

توفِّيت والدته أثناء الوضع ، وكان والده نجَّاراً ، توفِّي وبندلي في السَّادسة من عمره ، فاهتمَّت بأمره أُسرته ، وخصوصاً خاله (نقولا عنصره) ـ تاجر العاديات ـ وأخوه (قسطندي) ، وأُختاه (كاترينا) ، و (هيلانة) .

تقول أُخته (مريم) : كانت طفولة بندلي هادئة على وجه العموم ، ولكنَّه عندما أصبح قادراً على المشي ، كان يحبُّ اللَّعب والرَّكض ، وعندما بلغ سِنَّ العاشرة تقريباً ، كان يعتزل رفاقه ، ويخرج إلى سطح الدَّار ، الَّتي تُطلُّ على أسوار مدينة القدس القديمة ، وينتحي ناحية قَصِيَّة ، ويستمتع بقراءة القصص الَّتي كانت رائجة في تلك الأيَّام .

---

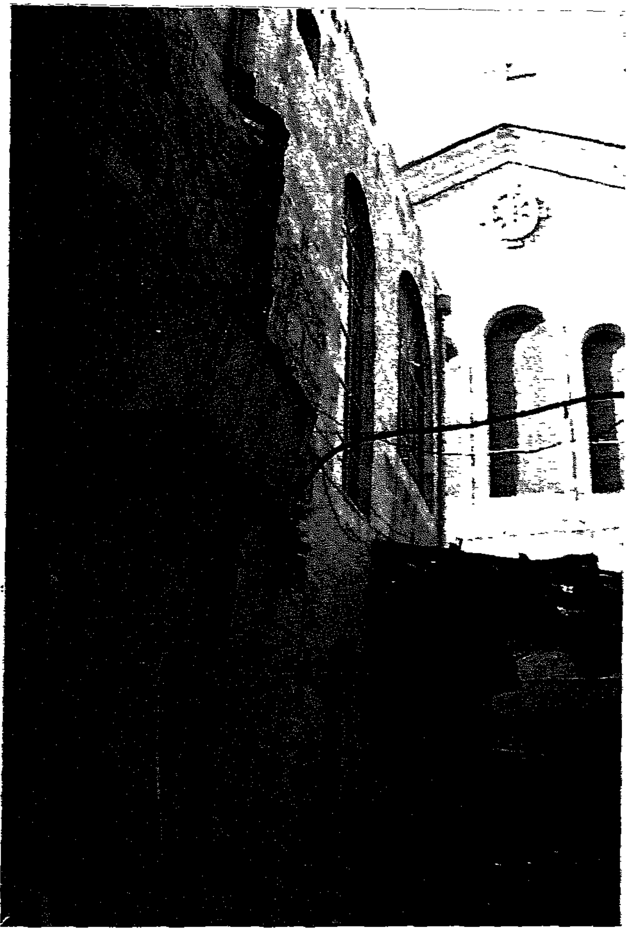
(١) الموافق : ١٤ ربيع الثَّاني ١٢٨٨ هجريَّة .

(٢) كما أعلمني الأُستاذ نصري الجوزي ، فيكون الأصل بذلك (يمني) .

(٣) الموافق : ٢ المحرَّم ١٣٦١ هجريَّة .

(٤) باكو : مدينة على شاطئ بحر الخزر (قزوين) الغربي ، عاصمة أذربيجان .



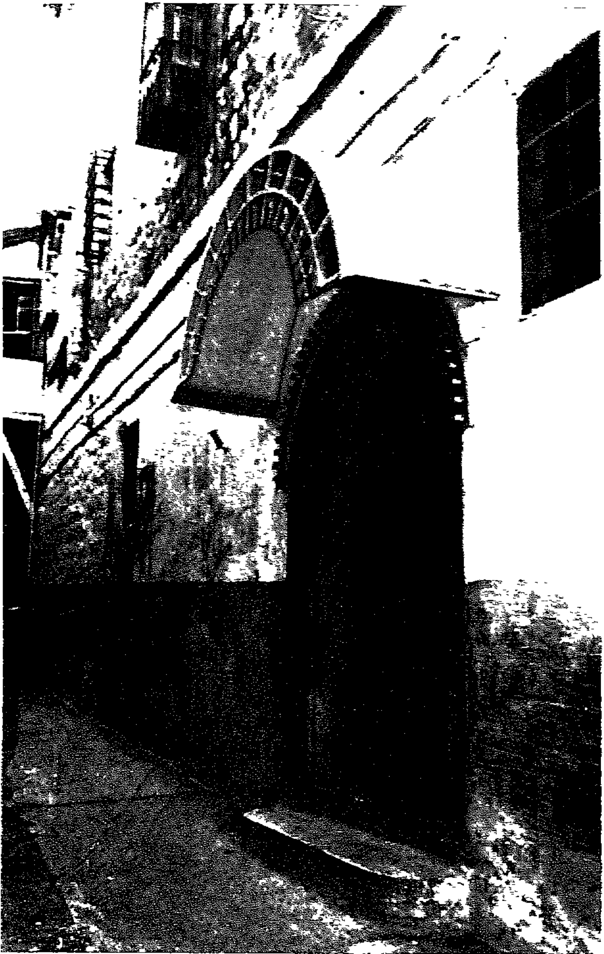


☆ كنيسة المسكوبيّة

(القدس)



مقهى شعبي في فلسطين



☆ بطريركيّة الرُّوم الأُرثوذكس
(القدس)

سبب تسمية (بندلي) ، ومعنى هذا الاسم :

تسلّلت بعض الدُّول الغربيَّة ، في القرن التَّاسع عشر الميلادي ، وأوائل القرن العشرين ، إلى منطقة الشَّرق الأوسط ، حفاظاً على الطَّوائف المسيحيَّة ظاهراً ، ومحاولة اقتسام تركة (الرَّجل المريض)[١] ، أي الإمبراطوريَّة العثمانيَّة باطناً .

فراحت فرنسة تفرض نفسها حامية للمسيحيِّين الكاثوليك[٢] .

أمَّا روسية القيصريَّة ، فقد نصَّبت نفسها حامية للمسيحيِّين الأُرثوذكس[٣] ، وأخذت تفتح المدارس ، ودور المعلِّمين والمعلِّمات حتَّى تفوز بقصب السَّبق .

وأقبل النَّاس على الأسماء الأجنبيَّة الجديدة ، فكثرت أسماء : كلود ، وجان ، ومادلين ، وجورجيت ، وجوزفين ..

كما نقل الرُّوس إلى منطقة الشَّرق الأوسط أسماء القدّيسين والقدّيسات ، مثل : قسطنطين ، وهيلانة ، وإسبر (إسبيريدون) ، ونقولا ، وبندلي ..

وبندلي اختصار (بندلايمون) ، و (بندلايمون) اسم قدّيس يوناني ، ومعناه (الرَّجل النَّاصح)[٤] .

رحلتُهُ في طلبِ العِلْمِ :

تلقَّى بندلي علومه الابتدائيَّة والإعداديَّة في مدينة القدس ، في دير للرُّوم

---

(١) The Sick Man

(٢) الكنيسة الكاثوليكية (أي الجامعة) : وهي الجماعة الَّتي أسَّسها السَّيِّد المسيح ، ورتَّب مؤمنيها تحت سلطان الرُّسل والأساقفة من بعدهم ، يرأسهم القديس بطرس ، يرأسها اليوم (البابا) المقيم في الفاتيكان .

(٣) أرثوذكس تعني (الفكر المستقيم) .

(٤) أخذ هذا التَّفسير من أحد رهبان دير الرُّوم الأُرثوذكس .

الأُرثوذكس ، اسمه (دير المُصَلَّبَـة) ، وهو في ظـاهر القـدس إلى الغرب ، بـالقرب من كلّيّة (تيراسانطة)[1] ، في شارع الملك جورج .

وتجمع آراء المؤرّخين ، أنّ هذا الـدّير بُنِيَ في القرن العـاشر الميلادي ، بنـاه راهب كُرْجِي اسمه (بروخوروس) ، ويقول المرحوم عارف العارف في كتـابـه (المسيحيَّـة في القدس)[2] ، إنّ في مكتبة دير الرُّوم الأُرثوذكس بالقدس وثيقـة كرجيَّـة ، يفهم منهـا أنّ هذا الدّير بُنِيَ سنة ١٠٣٨ م .

ويذكر المؤرّخ اليوناني (بنيامين يوانيدس) : في ظاهر القـدس إلى الغرب ، وعلى بعـد خمسـة كيلـومترات من مقبرة (مَـامَـلاً ، أي مـأمن الله) دير من ديـارات الرُّوم الشّهيرة والقديمـة ، قيل إنّ الّـذي أنشـأه هو الأمير (مـاريـام الكرجي) ، وكان ذلـك حوالي سنة ٣٣٠ م ، وفي أيّام الملك قسطنطين[3] ، أهدى ملكُ الكرج[4] ماريـامَ المكان الّذي يقوم عليه ، وذلـك عنـد زيـارتـه للقـدس بين سنتي ٣٤٢ و ٣٧٥ م ، ولكن هـذا القائل لم يستطع أن يجزم فيما إذا كان الدّير قد بُنِيَ يومئـذ ، في ذلـك المكان أمْ لا ، غير أنّـه أكّـد أنّ الأمير مروانـوس الكرجي عنـدمـا زار القـدس في أوائـل القرن الخـامس الميلادي ، وترهّب ، بنى دير الكرج بجانب برج داود .

وفي أواخر القرن العـاشر الميـلادي هبـط مـدينـة القـدس ، راهب كرجي اسمـه (بروخوروس) بنى دير المصلّبة الحالي .

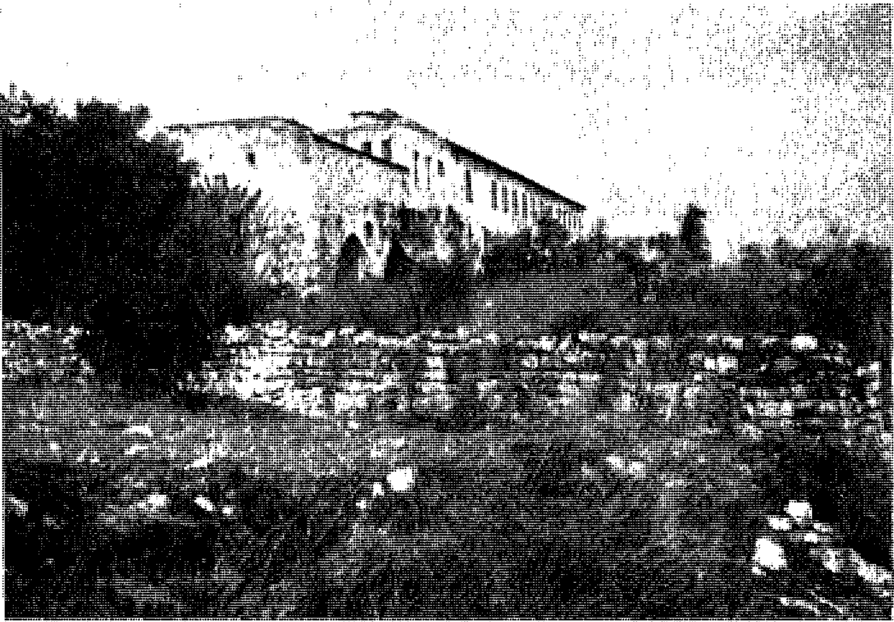
---

(١) تيراسانطة : الأرض المقدّسة ، كلمة إيطاليّة ، فتيرا تعني : الأرض .

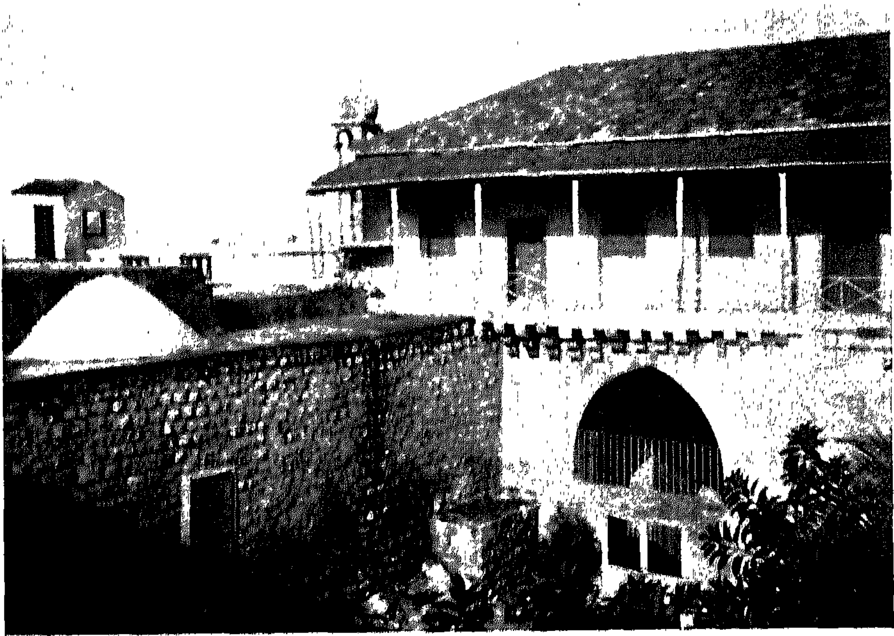
(٢) المسيحيَّة في القـدس ، عـارف العـارف ، طبعـة ١٩٥١ م ، مطبعـة دير الرُّوم الأُرثـوذكس ـ القـدس ، ص : ٤٧ ، والكتاب في دار الكتب الظّاهريّة الأهليّة بدمشق ، تحت رقم : و . ٧٢٩٦

(٣) قسطنطين بن قسطنتيوس كلورس : [٢٧٤ ـ ٣٣٧ م] ، إمبراطور رومـاني [سنـة ٣٠٦ م] هزم خصمـه ماكسانس على أبواب روما سنة ٣١٢ م ، وأطلق الحريّة للدّين المسيحي ، أسّس عاصمة جديـدة سمّاهـا القسطنطينيّة ، ودشّنها سنة ٣٣٠ م .

(٤) الكرج (أو جورجيا) Géorgie : من جمهوريّات الاتّحـاد السُّوفيـاتي ، شرقي البحر الأسود ، عـاصمتهـا تفليس .



منظر جانبي لدير كفتين



دير كفتين من الداخل



الطريق إلى دير كفتين



دير كفتين

وحوالي سنة ١٣٠٠ م ، جاءت ثلاث مائة أُسرة أُرثوذكسيّة من لدن ملك الكرج ، وسكنت كلُّها في هذا الدّير ، وقيل إنّ فريقاً منها استوطن يومئذٍ قرية (المالحة) من أعمال مدينة القدس .

فظلّ الدّير بيد الكرجيّين المهاجرين ، حتّى أواخر القرن السّابع عشر الميلادي ، ونظراً لانقطاع الإعانات الّتي كانت ترد على الدّير من بلاد الكرج ، وقع رهبان الدّير تحت طائلة الدّيون الثّقيلة ، واضطرّ فريق كبير منهم للرّجوع إلى بلادهم ، فانتهز الفرصة بطريرك القدس (دوستيوس) : [١٦٦٩ - ١٧٠٧ م] ، فسدّد الدّيون المطلوبة ، واشترى الدّير ، وأصبح من أملاك الرّوم الأُرثوذكس ، وفي سنة ١٨٥٥ م حوّل البطريرك (كيرلس) هذا الدّير ، إلى مدرسة لاهوت ، لتعليم أُصول الدّين المسيحي على المذهب الأُرثوذكسي[١] .

أُغلقت هذه الكلّيّة سنة ١٩٠٩ م بسبب ضائقة الدّير الماليّة ، ولا تزال مغلقة إلى يومنا هذا ، وليس في الدّير اليوم سوى راهب واحد ، وفيها مكتبة قيّمة تحتوي على ما يقرب من ثمانية آلاف كتاب ، ويعيش في الدّير الآن فريقٌ من مهاجري الحرب اليونانيّين ، الّذين هبطوا بيت المقدس ، خلال الحرب العالميّة الثّانية : [١٩٣٩ - ١٩٤٥ م] .

في هذا الدّير - دير المصلّبة - والّذي كانت تديره فئة من الرّهبان اليونانيّين ، ومعلّمون من العرب ، تلقّى بندلي دروسه الابتدائيّة واللاّهوتيّة ، ويبدو أنّه قضى سبع سنوات في دير المصلّبة ، ثمّ انتقل إلى دير آخر في (كفتين)[٢] في طرابلس الشّام ،

(١) الموسوعة الفلسطينيّة : ٥٢١/٣

(٢) جاء في كتاب (البعثات اليسوعيّة ، مهمّة إعداد النُّخبة السّياسيّة في لبنان) ، د . طلال عتريسي ، طبعة الوكالة العالميّة للتّوزيع ، الطّبعة الأُولى : ١٩٨٧ م ، صفحة ١٨٩ : بذل المنسينيور غريغوريوس جهوداً كبيرة لمضاعفة عدد مدارس الرّوم الأُرثوذكس في لبنان ، وحاول الحصول على مساعدة Saint Synode الروسي ، والجمعيّة الرّوسيّة في فلسطين لتحقيق ذلك ، ولكي يواجه مدرسة الفرير ، أسّس مدرسة للصّبيان في (كفتين) على بعد ساعتين من طرابلس سيراً على الأقدام .
زرت دير كفتين يوم الجمعة ١٩٩٢/١٢/٢٥ ، وهو يبعد ٩ كم عن طرابلس (انظر الصور على الصفحتين السابقتين) والتي التقطتها بالتاريخ المذكور .

وقضى هناك ما يقرب من أربع سنوات ، ليسافر بعدها إلى روسية ، لإكمال تلقّي علومه اللاّهوتيّة ، وكان ذلك في سنة ١٨٩١ م .

بندلي في روسية :

درس بندلي العلوم اللاّهوتيّة المتقدّمة في الأكاديميّة الدّينيّة في (موسكو) لمدّة ثلاث سنوات[١] ، حصل خلالها على الشّهادة الجامعيّة في الأكاديميّة الرّوحانيّة في موسكو .

ثمّ عزف بندلي عن الموضوع ، إذ لم ترقه الأوضاع الدّينيّة الّتي كانت سائدة في تلك الأوقات[٢] ، فانتقل إلى أكاديميّة مدينة (قازان)[٣] سنة ١٨٩٥ م بعد جهود جبّارة بُذلت في هذا السّبيل ، حيث حضّر لدبلوم في المصادر العربيّة الموجودة في مكتبة هذه الأكاديميّة ، وأنهى عمله سنة ١٨٩٦ م ، فعمل معيداً في الأكاديميّة ، ومعاوناً للبروفيسور المختص في اللّغة العربيّة والبحث .

وفي سنة ١٨٩٩ م ، دافع بندلي عن أُطروحة الماجستير في التّاريخ والبحوث الإسلاميّة ، وفي (قازان) قدّم أُطروحته المؤلّفة من مئتين وتسع وستين صفحة ، وحصل على مرتبة محاضر في اللّغة الفرنسيّة ، وكان موضوع الأُطروحة : (المعتزلة : البحث الكلامي التّاريخي في الإسلام) .

وفي سنة ١٩٠٠ م سافر بندلي إلى القدس ، إلى مسقط رأسه ، بقصد البقاء فيه ، ولكن عدّة عوامل[٤] دفعته مضّطراً إلى العودة إلى قازان ، حيث تزوّج سنة ١٩٠٣ م من (ليودميلا زويفا) ، المولودة في يوم الإثنين : ٢٥ تشرين الأوّل (أكتوبر) ١٨٨٠ م ، والّتي توفّيت في باكو يوم الثّلاثاء : ٣٠ حزيران (يونيو) ١٩٣١ م .

---

(١) ما بين ١٨٩٢ و ١٨٩٤ م .

(٢) أو لأنه اعتنق مبادئ (الماركسيّة) .

(٣) قازان : مدينة في قلب الاتّحاد السّوفياتي ، انظر المصوّر ص : ٩٤

(٤) ستشرح في حينها في هذه الأُطروحة .



الأستاذ بندلي الجوزي
في شبابه
[١٠ آذار - مارس - ١٩٠٨ م]



بنـدلي الجـوزي واقفـاً
وإلى يمينـــه
كراتشكـوفسكي
ومستشرق على يســاره
لعلّــه تلميـــذ
كراتشكوفسكي السّيّد :
بيليايف

درّس بندلي من سنة ١٩١١ م ، وحتّى سنة ١٩١٧ م في كلّيّة الحقوق في جامعة قازان ، وحصل على درجة علميّة أقل من Ph.D[1] (الدكتوراه) ، وبسرعة أنهى هذه الدّراسات الحقوقيّة ، وانتقل إلى كلّيّة التّاريخ والآداب في جامعة قازان سنة ١٩١٧ م ، حيث درّس تاريخ شعوب الشّرق الأوسط حتّى سنة ١٩٢٠ م ، وفي هذه السّنة دُعي ـ من قبل وزارة المعارف ـ لاستلام منصب في لجنة اللّغة العربيّة والآداب في جامعة أذربيجان الحكوميّة في مدينة باكو ، فانتقل بندلي سنة ١٩٢٠ م مع عائلته إلى باكو (الكلّيّة الشّرقيّة) ، الّتي صار عميدها سنة ١٩٢٥ م ، فساهم مساهمة فعّالة في إنشاء الأبجديّة الجديدة للّغة الأذربيجانيّة .

وفي سنة ١٩٢١ م ، حصل على الدكتوراه في الأدب العربي واللّغة العربيّة .

وفي سنة ١٩٢١ م ، ذهب بندلي في بعثة علميّة إلى إيران ، ومن هناك جلب عدداً كبيراً من المخطوطات العربيّة والفارسيّة ، زوّد بها مكتبة الجامعة .

وفي سنة ١٩٢٤ م زار فلسطين وسوريّة ولبنان للاطّلاع العلمي .

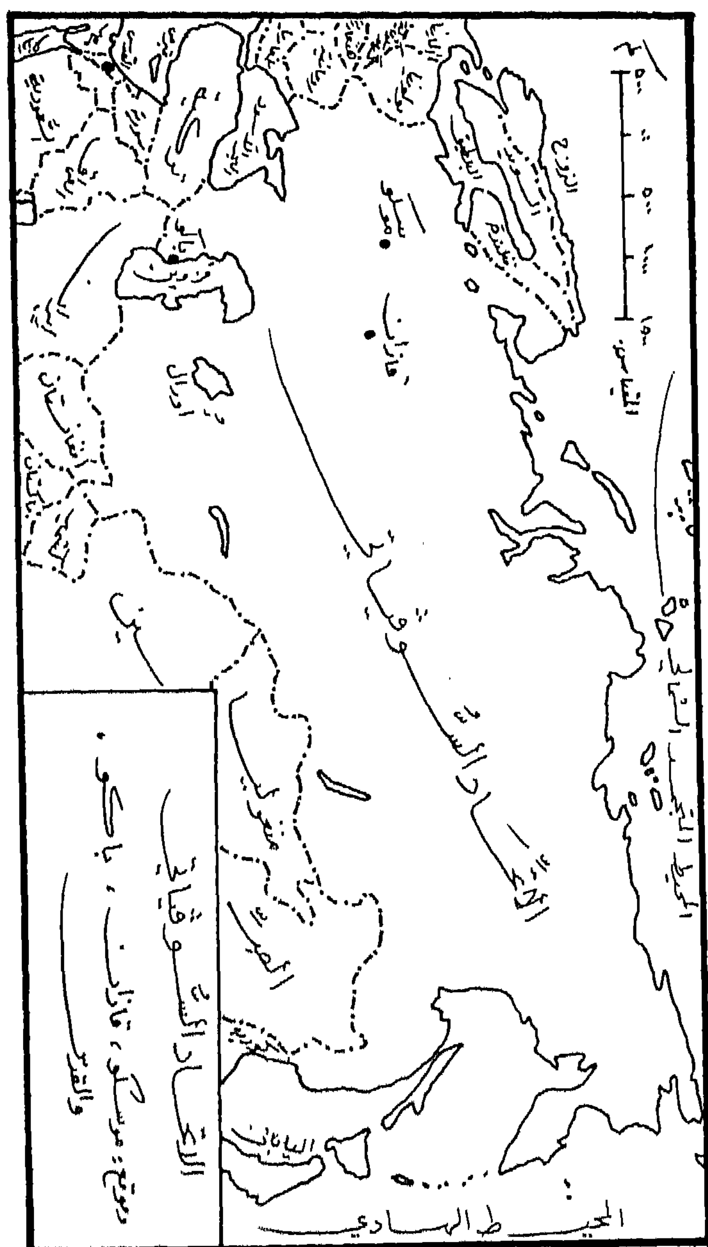
وفي سنة ١٩٢٧ م حصل على بعثة ـ أو منحة ـ لسنة واحدة إلى الشّرق الأوسط ، فزار إيران والعراق وسوريّة وفلسطين ومصر ، وفي هذه الزّيارة ألّف كتاباً في القدس باللّغة العربيّة ، عنوانه : (من تاريخ الحركات الفكريّة في الإسلام)[2] ، وألقى العديد من المحاضرات والخطب ، وفي تشرين الأوّل (أكتوبر) ١٩٢٨ م عاد إلى باكو ، حيث ترأس سنة ١٩٣٠ م كرسي اللّغة العربيّة وآدابها في جامعة باكو ، وفي سنة ١٩٣١ م منحه المجلس العلمي لجامعة باكو شهادة دكتوراه شرف في اللّغة وآدابها .

وما بين سنتي ١٩٣٢ م و ١٩٣٧ م لم يعمل أي عمل ، لمرض أصابه في قلبه .

---

(١) Doctor of Philosophy: PH.D ، دكتور في الفلسفة .

(٢) وهو موضوع دراسة ونقد في فصل كامل من هذه الأطروحة ، لأهمّيّته في مجالات بحثه ، وميدان دراسته . ولقد أُلّف هذا الكتاب سنة ١٩٢٨ بعد الانتهاء من زيارته للدّول المذكورة .



الاتحاد السوفياتي

وموقع : موسكو ، قازان ، باكو ، والقدس

وفي سنة ١٩٣٨ م ترأس العمل في الأكاديميّة العلميّة ، فكتب أكثر من خمسين مقالة للموسوعة الأذربيجانيّة .

وفي سنة ١٩٣٨ م أُحيل إلى المعاش ، حيث توفّي في مدينة باكو بتاريخ ١٩٤٢/١/١٩ م[1] .

يقول خليل السّكاكيني : « قرأتُ اليوم في مجلّة (المجتمع العربي) الّتي تصدر في لندن ، أنّ صديقي وأُستاذي بندلي الجوزي قد مات من عهد قريب ، فاستعظمتُ المصابَ ، ياللخسارة ، ياللخسارة ، لقد كان رحمه الله من كبار العلماء الّذين يحقّ للشّرق بأن يفخر بهم ، كم كنتُ أترقّب رجوعه إلى فلسطين ، فنقضي بقيّة العمر معاً .

وممّا أذكره هنا أنّه حين كان في القدس لآخر مرّة ، وقد أقام بيننا نحو سنة ، انتدبته الحكومة ليُلْقي دروساً في مدرسة الحقوق ، فسألت الطُّلاّب عنه ، فقالوا : لا نحسّ أنّنا أمام أُستاذ كبير ، إلاّ في درسِهِ ، ولم تكن تمرُّ ليلة ، إلاّ اجتمعنا في بيتنا أو بيته ، أو بيت أحد الأصدقاء .

كان من كبار علماء اللّغات ، فما كان يجيءُ إلى القدس ، إلا لزمْتُه في ليلي ونهاري »[2] .

أُسْرَةُ بندلي الجوزي :

تزوّج بندلي سنة ١٩٠٣ م من (ليودميلا لورنيشيغنا زويفا) ، المولودة سنة ١٨٨٠ م ، كان والدها تاجراً ، اسمه (لافرانتين زاخرافيتش زويفا) ، وأُمُّها السّيّدة بربارة باڤلوڤيتا ، والأب والأُم من الرُّوس الأرثوذكس .

---

(١) قال لي الدكتور بونياتوف : حُبِسَ بندلي الجوزي سنة في أواخر حياته بتهمة تجسُّسه لصالح الإنكليز ، وبعد خروجه من السّجن بسنة واحدة توفّي في باكو .

(٢) عن كتاب خليل السّكاكيني : (كذا أنا يادنيا) ، صفحة : ٤٣١

أتمّت ليودميلا دراستها في المدرسة النّسائيّة في وارسو ، ورزق منها بندلي سبعة أولاد ، ثلاثة ذكور ، وأربع بنات ، اهتم بتربيتهم وتعليمهم ، فاحتلّوا مراكز علميّة مرموقة في الجامعات السّوڤيتيّة ، وهم ، الذّكور :

١ ـ فلاديمير : ولد سنة ١٩٠٤ م في مدينة قازان ، حيث درس في مدرسة قازان المتوسّطة ، ثمّ أكمل تعليمه في كلّيّة الرّياضيّات الفيزيائيّة في جامعة أذربيجان ، وحصل على الدّكتوراه في العلوم الفيزيائيّة والرّياضيّة .

تزوّج من الدّكتورة غالينا ، ولم ينجب ، وهو حيٌّ يرزق ، مقيم في مدينة باكو .

٢ ـ جورجي : ولد سنة ١٩١١ م في مدينة قازان أيضاً ، حيث أنهى دراسته في كلّيّة الجيولوجيا في معهد (البوليتكنيك) في أذربيجان سنة ١٩٣٣ م ، عمل جيولوجيّاً .

قُتِلَ سنة ١٩٤٢ م ، خلال الحرب العالميّة الثّانية .

٣ ـ بُوريس : ولد سنة ١٩١٣ م في مدينة قازان أيضاً ، درس في كلّيّة التّنقيب الجيولوجي في معهد أذربيجان الصّناعي ، وتخرّج منه سنة ١٩٣٩ م ، فشغل وظيفة : رئيس قسم الفلزّات الطّبيعيّة غير المعدنيّة في وزارة الجيولوجيا في الاتّحاد السّوڤياتي .

تزوّج من جوزفين ، فأنجب منها : تانيا ، الّتي أنجبت ديمتري . وتوأمين هما : أُولغا[1] الّتي أنجبت : أندريه .

وفلاديمير : وهو عالم فيزيائي ، تزوّج لودميلا[2] ، فأنجب منها : مارينا .

أمّا الإناث ، فهنّ :

---

(١) اختصاصها : تاريخ واقتصاد ، واسم زوجها : ستانيلان .

(٢) اختصاصها : تاريخ .

٤ ـ أَنَسْتاسِيّا : ولدت في قازان سنـة ١٩٠٥ م ، درست أوّلاً في قـازان ، ثمّ انتقلت مع أُسرتها إلى باكو سنة ١٩٢٠ م ، فأنهت دراستها في جامعـة أذربيجـان الحكوميّـة فرع الرّياضيّات والفيزياء .

وفي مدينة لينينغراد ، دافعت عن أُطروحتها لنيل درجة الماجستير سنة ١٩٣٩ م ، وفي سنة ١٩٥٩ م حصلت على الدكتوراه .

تزوّجت من قسطنطين مـاركوف ، وهـو أكاديمي في الجغرافيـة ، فـأنجبت : آسيـا سنـة ١٩٤٣ م ، وهي عـالمـة جيولوجيـة ، تحمل درجـة الـدكتوراه ، موظّفـة في معهـد الأبحاث الجغرافيّة في موسكو .

وآسيا متزوّجة ، ولها ولـد اسمـه (سيرجي Serje) ، أنهى دراستـه الثّـانويّـة سنـة ١٩٨٤ م .

توفّيت أنستاسيا سنة ١٩٨١ م .

٥ ـ ألكسندرة : ولدت سنة ١٩٠٧ م في قازان ، وبدأت دراستهـا فيهـا ، وتـابعت دراستها سنة ١٩٢٠ م ـ وما بعدها ـ في مدينة باكو لانتقـال أُسرتهـا إليهـا ، حيث أنهت كلّيّة التّربية في علوم التّاريخ العام ، من جامعة أذربيجان الحكوميّة سنة ١٩٣٠ م .

٦ ـ تامارا : ولدت سنة ١٩٠٩ م في قازان ، درست في قازان وباكو ، حيث أنهت سنة ١٩٣١ م كلّيّة التّكنولوجيا في جامعة أذربيجان في مجـال الاختصـاص : (الفيزيـاء والكيمياء) ، دافعت عن أُطروحتها لنيل درجـة PH.D سنـة ١٩٣٨ م ، وحصلت سنـة ١٩٤٩ م على شهادة دكتورة في العلوم .

أنجبت تامارا : ألكس ، وناتالي Natalé ، وكاتيا ، وألكسندر[١] .

---

(١) وتامارا حيّة ترزق ، تعيش في مدينة موسكو ، رأيت بطاقة معايدة بمناسبـة رأس السّنـة (١٩٩٠ م) بخطّ يدها ، أرسلتها إلى الأُستاذ نصري الجوزي بدمشق .

٧ ـ أولغا : ولدت في قازان سنة ١٩١٥ م ، انتقلت إلى باكو مع أُسرتها حيث أتَّمت دراستها المتوسّطة ، ثمَّ أتمَّت علومها العالية في جامعة لينينغراد ، قسم البيولوجيا ، وباختصاص أعمال التَّعدين ، حصلت على درجة الماجستير سنة ١٩٥١ م ، حصلت على درجة الماجستير سنة ١٩٥١ م ، كما حصلت على شهادة الدكتوراه (Candidate) في العلوم البيولوجيَّة .

تزوَّجت من عالم الأغذية بيدرو ، ولم تنجب .

رَحْلاتُهُ إلى فلسطين :

زار بندلي الجوزي مسقط رأسه ثلاث مرَّات ، وذلك في السَّنوات التَّالية : ١٩٠٩ ، ١٩٢٨ ، ١٩٣٠ م .

تقول ابنة الأُستاذ بندلي (أنستسيا) في صدر إحدى رسائلها إلى ابن عمّها نصري الجوزي[1] : « لم يكن والدي قد تزوّج سنة ١٩٠٠ م ، وعند زيارته الأُولى إلى مسقط

(١) نصري بن قسطندي الجوزي : ولد سنة ١٩٠٨ م في القدس ، حيث تلقَّى علومه الابتدائيَّة والثانويَّة بمدرسة (سان جورج) ، يحمل دبلوم صحافة ، ومارس مهنة التَّعليم ما بين سنتي ١٩٣٢ و ١٩٤٨ م .
لجأ إلى سوريَّة سنة ١٩٤٨ م ، ولا يزال حيّاً مقيماً بمدينة دمشق .
عُيِّن سنة ١٩٥٤ م مراقباً عامّاً للمكتبة الأميركية في دمشق ، فمراقب مطبوعات سنة ١٩٥٦ م ، في مكتب الإعلام الأميركي ، ثمَّ أصبح رئيساً لقسم انتقاء الكتب الأميركيَّة وترجمتها إلى اللُّغة العربيَّة ، والإشراف على طباعتها .
كتب الأُستاذ نصري عدداً من المسرحيَّات التمثيليَّة ، والقصص القصيرة ، منها : الحقُّ يعلو ، فؤاد وليلى ، الشُّموع المحترقة ، صور من الماضي ، أشباح الأحرار ، حياة تحطَّمت ، عشَّاق التَّماثيل ، أمَّة تطلب الحياة ، حفلة عشاء ، باسم الحداد مع هارون الرَّشيد ، معجون الحب ، على الباغي تدور الدَّوائر ..
وكتب للطَّلبة عشرات الفصول المسرحيَّة أثناء قيامه بالتَّدريس والإدارة منها : جابر عثرات الكرام ، أنا لا أحارب من أجل عمر ، عيد الأم ، ذكاء القاضي ، لا أبيع أرضي أو تراث الآباء ، الطُّرف الثَّلاث ، الوفاء ، عيد الجلاء ..
كما ساهم الأُستاذ نصري في تأسيس النَّادي الرِّياضي العربي في القدس ١٩٢٥ ـ ١٩٣٠ م ، وجمعيَّة الفنون والتَّمثيل ، وفرقة الجوزي التَّمثيليَّة الإذاعيَّة .



قلعة القُدس سنة ١٨٣٩ م للرّسّام الاسكتلندي (روبرتس) .



يوم عمل



جانب من مقهى شعبي



☆ الأُستاذ بندلي الجوزي
وزوجه وأبناؤهما
(صورة في قازان)



☆ الأُستاذ بندلي الجوزي
في جامعة (قازان)
يرتدي لباس الأُستاذيَّة

رأسه فلسطين ، كان يعتزم أن يبقى بين أهله وأصدقائه ، فقد بلغ الحنين به مبلغاً شديداً ، ولكن والدي ، لا يستطيع أن يعيش في جوٍّ مليء بالدّسائس والعبوديّة » ، فعاد إلى قازان .

الزّيارة الأُولى (١٩٠٩ م) : أشرف بندلي في هذه الزّيارة على بعثة علميّة لمدّة سنة ، وكان كلُّ أعضاء هذه البعثة العلميّة من الرُّوس ، زارت فلسطين حبّاً في الاطّلاع على معالمها الأثريّة ، ورغبة في معرفة البلاد الّتي نشأ فيها أُستاذهم ، ولتعلُّم اللُّغة العربيّة .

ومما يذكر ، أنَّ السَّيّد قسطندي ، اغتنم وجود أخيه بندلي بين ظهراني العائلة في القدس ، فطلب إليه أن يكون عَرَّاب[1] ابنه نصري في المعموديّة ، وراح أفراد العائلة يفكّرون في الاسم الواجب إطلاقه على الطّفل ، فاقترحت أسماء أجنبيّة لا تمتُّ إلى الواقع العربي بصلة ، فانبرى بندلي لهم ـ وهذا ما روته أُخته ـ وقال : إلى متى سنظلُّ تَبَعاً ؟ إلى متى سنظلُّ في ركاب الإرساليّات حتّى في الأسماء ؟ نسير في ركاب غيرنا من الشُّعوب ، ولدينا أسماء عربيّة رنّانة !؟! وسمّاه (نصري) .

جاء في (الموسوعة الفلسطينيّة)[2] خبرٌ رواه الكاتب الرُّوسي (تيودوروف) في صحيفة (ريتش) ، قال فيها : اجتمعت ببعض أُدباء القدس في منزل الخواجا بندلي الجوزي ، أُستاذ الآداب العربيّة في كلّيّة قازان ، وكان معي الخواجا كراتشكوفسكي[3] ـ المستشرق الرُّوسي ـ وكان قد جاء الشّرق في مهمّة علميّة ، فأقام في مصر وسوريّة وفلسطين لهذه الغاية ، سنة ونصف السّنة ، فأتقن اللُّغة العربيّة ، وتخلّق بأخلاق

(١) عرّاب : الأب الرُّوحي له .

(٢) الموسوعة الفلسطينيّة : ٦٢/٢ ، الطّبعة الأُولى ١٩٨٤ م .

(٣) أجناتي يوليا كراتشكوفسكي : [١٨٨٣ ـ ١٩٥١ م] Ajnaij Julianovic Krackovskij ، يعدُّ أبرز المختصّين بالدّراسات العربيّة من بين المستشرقين الرُّوس ، ولد في مدينة ڤلنا Wilna ، عاصمة جمهوريّة لتوانيا ، انتقل والده بأسرته إلى طشقند ، وهنا في العاصمة الفكريّة للمقاطعات الإسلاميّة أمضى أجناتي

العرب وعاداتهم ، أما الأُدباء الَّذين أشرت إليهم ، فهم : الأُستاذ خليل سكاكيني ، والشَّاعر الكاتب محمَّد إسعاف النَّشاشيبي ، وأرستقراطي من سلالة الفاتحين جميل الخالدي[1]

وكان حديثاً بعضه بالفرنسيَّة ، وبعضه بالإنكليزيَّة ، وأكثره بالعربيَّة ، وكان رفيقي المستشرق وصاحب المنزل يترجِمَان الحديث ، وكنت أسمعُ وأنا مسرور مرتاح ، حديثَ هؤلاء الشُّبَّان المتقدِّمين ذكاء وحماسة ووطنيَّة ، وقد علمتُ أُموراً كثيرة مما لا نعلمه نحن الأُوربيِّين عن هذه الأُمَّة العظيمة بتقاليدها وتاريخها وآدابها ، ولا يخفى أن جمهور السُّيَّاح الأُوربيِّين إذا كتبوا شيئاً عن سوريَّة وفلسطين ، إنما يلتقطون ذلك من أفواه الحوذيِّين[2] والحمَّالين والباعة المتجوِّلين .

إلى أن يقول : كنتُ جالساً أسمع اللَّهجة العربيَّة ، وكأنِّي أسمع أنغاماً موسيقيَّة جميلة ، يستَشفُّ منها القوَّة والعناد ، وكأنَّ تلك الألفاظ نار تستعر حدَّة .

ثمَّ يقول : وبعد أن قضي هزيع[3] من اللَّيل ، اقترحتُ على النَّشاشيبي أن يسمعنا

= طفولته ، فتعلَّم اللُّغة الأُوزبكيَّة ، وتركت الحياة في طشقند وإقليم التركستان أثراً عميقاً جدّاً في نفس الفتى ، كان من شأنه أن يولِّد فيه النَّزعة إلى الشَّرق والولوع باللُّغات الإسلاميَّة .

وبعد خمس سنوات ، عادت الأُسرة إلى بلدها الأصلي (قلنا) ، حيث بدأ أجناتي في تعلُّم قراءة الرُّوسيَّة ، وكان جدُّه قد جمع مكتبة غنيَّة وضعها في ضيعة صغيرة له في الرِّيف ، فولَّد ذلك شغف أجناتي بالاطِّلاع واقتناء الكتب ، كما قال هو عن نفسه في تقرير بعنوان : (جولات في الشَّرق) ص ٤١٨

أمَّا ثقافة أجناتي ودراسته العليا وآثاره ، فلها مكان آخر في هذه الأُطروحة ، [انظر : موسوعة المستشرقين ، د . عبد الرَّحمن بدوي ، طبعة : دار العلم للملايين ـ بيروت ، الطَّبعة الأُولى ١٩٨٤ ، صفحة ٣٢١ وما بعدها] .

(١) ستمرُّ ترجمة هؤلاء الرِّجال الأعلام في حينها .

(٢) حاذ إبلَهُ يحوذها حَوْذاً : ساقها سوقاً شديداً ، [اللِّسان : حوذ] ، وتطلق على سائق العربة الَّتي تجرُّها الخيل .

(٣) هزيع : أي طائفة من اللَّيل ، نحو ثلثه وربعه . [اللِّسان : هزع] .

شيئاً من شعره ، فأنشدنا قصيدة في الحرِّيَّة (ذكرى فتاة مكدونيا)[1] ، ارتحتُ إليها كلَّ الارتياح ، وأكبرتُ المعنى العربي العظيم في اللَّفظ العربي الفخيم ، وخلت كأنّي أسمع أصوات جمهور لا فرد ، كان هذا الشَّاعر يقرأ قصيدته ، وفي كلِّ نبرة من نبراته معان عظيمة ، وقد ظهر لي وهو يقرأ نشيطاً عنيداً متحمّساً ، هذا الشّاعر عربي قبل كلِّ شيء ، مسلم ، ولكنه ممتزج مع إخوانه المسيحيّين امتزاج الرّاح والماء .

آخطري اليوم في الرُّبوع اختيالا   لا تخافي من العدوّ اغتيالا
لا تخافي من كيده لا تخافي   إنّ كيد العدوّ ولّى وزالا

إلى أن يقول :

إنَّ ذا العصرَ عصرُ علم وبحث   ليس فيه لجاهل من هناء

الزِّيارَةُ الثَّانِيَةُ : وكانت سنة ١٩٢٨ م ، بعد أن برّح به الحنين إلى مسقط رأسه (القدس) في فلسطين ، وإلى عائلته وأصدقائه ، فشدّ الرّحال، وجاء إلى القدس ليقيم في بيت أخيه قسطندي[2] ، ولقد باشر وقتئذ بتأليف كتابه الهام الشّهير : (من تاريخ الحركات الفكريّة في الإسلام) ، وقد أهداه :

« إلى الشّبيبة العربيّة النّاهضة .
إلى الّذين حرّروا عقولهم من تأثير الخرافات الاجتماعيّة والدّينيّة والقوميّة[3] .
إلى أصحاب العقول السّليمة والضّمائر الحيّة .

---

(١) مكدونيا Macédoine : بلاد في شبه جزيرة البلقان ، فتحها العثمانيّون سنة ١٣٧١ م ، تقاسمها بعد الحرب العالميّة الأُولى كلٌّ من بلغارية ، ويوغوسلافية ، واليونان .

(٢) قال لي الأستاذ نصري الجوزي : « كان عمّي يشاركني في الغرفة الّتي أنام فيها » .

(٣) تحرير العقول من الخرافات الاجتماعيّة أمر ضروري مقبول ، ونبذ الخرافات الّتي ليست من الدّين بشيء أمر مقبول أيضاً ، أمّا الخرافات القوميّة فنقف أمامها متسائلين : ما الخرافات القوميّة الّتي عناها الأستاذ ؟ أهي (الشّوفينيّة) الّتي اشتقّت من اسم نيقولا تشوفين Chauvin الّذي كان معجباً بنابليون =

أهدي هذا الجزء من كتابي : (من تاريخ الحركات الفكريَّة في الإسلام) » .

وقد وقف على طبع الكتاب الأُستاذ خليل السَّكاكيني (شيخ الصّعاليك) ، وطُبِعَ في مطبعة (بيت المقدس) ـ القدس في ١٠ آب (أُغسطس) سنة ١٩٢٨ م .

وكانت أوَّل شحنة من الكتاب قد أُرسلت إلى المجاهد الفلسطيني محمد علي الطَّاهر ، صاحب صحيفة (الشُّورى)[1] ، والَّذي كان يقيم في القاهرة ، وكان عدد النُّسخ المرسلة ثلاث مئة نسخة ، فبيع معظمها بعد زمن قصير ، فأخذت الصُّحف والمجلاَّت تعلِّق تعليقاتها حسب نظرتها سلباً أو إيجاباً .

يقول الأُستاذ محَّمد علي الطَّاهر : كتب إلينا أنَّ العلاَّمة الفلسطيني الأُستاذ بندلي الجوزي قد وصل إلى باكو في الرُّوسيَّة ، وأخذ يباشر أعماله التَّدريسيَّة في جامعتها ، وينشَغِل الأُستاذ الآن بوضع كتابه الثَّاني (الحركات الفكريَّة السِّياسيَّة في الإسلام) ليكون تتمَّة لكتابه القيِّم : (من تاريخ الحركات الفكريَّة في الإسلام) ، الَّذي طُبِعَ في الصَّيف الماضي[2] .

وعلَّقت صحيفة (الشُّورى) قائلة : إنَّه ليعزُّ على أبناء فلسطين حرمان وطن الأُستاذ مسقط رأسه من الانتفاع بعلمه وفضله ، لقد عاد الأُستاذ إلى دار الغربة حزيناً

= ومتعلّقاً به ، واستعملت هذه اللّفظة لوصف الرُّوح القوميّة المتطرّفة الأنانيّة ، والّتي ترى الشُّعوب كلّها دونها ؟ وهذا مقبول أيضاً ، أم تراه يعني القومية الّتي هي الانتماء إلى قوم يشعر بأنّه جزء منهم يعيش حاضرهم وأمالهم وطموحهم ..؟ وهذا غير مقبول ، لقد أثبتت الأحداث العالميّة منذ مطلع القرن الحالي أنَّ القوميّة شيء موجود مقبول ، ضمن النَّظرة الإنسانيّة .

(١) الّتي كانت تصدر بالقاهرة .

(٢) لم يكتب الأُستاذ بندلي تتمّة لكتابه : (من تاريخ الحركات الفكريّة في الإسلام) .

كئيباً ، ولا شك ، وكيف لا يكتئب ، ولا يحزن ، وهو يرى وطنه وقد أصبح نهباً مقسّماً بين أطماع فئة طرأت تحكم غير بلادها ، وتتصرّف في غير دارها ؟!

لقد قام الأُستاذ بندلي بنشاط واسع ضدّ الانتداب البريطاني ، مما حدا بالسُّلطات المنتَدَبة أن تطلب إليه أن يغادر البلاد ، إنّ فئات أربعاً حالت دون بقائه في القدس ، وهي :

١ ـ الانتداب البريطاني .
٢ ـ بعض الزُّعماء الفلسطينيّين التّقليديّين .
٣ ـ الصّهاينة المقيمون في فلسطين وخارجها .
٤ ـ والّذين عدُّوا أفكار الأُستاذ بندلي (التّحرريّة) خطراً وبدعة من البدع ، عليهم أن يقفوا في وجه صاحبها ، وأن يحاربوها .

وأثناء إقامته في القدس ، أصبحت دار أخيه قسطندي ـ حيث إقامته ـ مركزاً لعدد من أساطين العِلْم والأدب والسّياسة ، ومنهم : خليل السّكاكيني ، وعادل جبر ، وإسعاف النّشاشيبي ، وأحمد سامح الخالدي ، ومفتي الدّيار الفلسطينيّة الحاج أمين الحسيني [(1)] ، وخليل بيدس ، ورفلة عبد النّور ، وجريس الخوري أيوب ، وجورج خميس ، وفخري النّشاشيبي ، وحسن صدقي الدّجاني ، وراغب النّشاشيبي .

---

(١) محمّد أمين بن محمّد طاهر بن مصطفى الحسيني : [١٨٩٣ ـ ١٩٧٤ م] زعيم فلسطين السّياسي في عصره ، ولد وتعلّم بالقدس ، وأقام سنتين بين الجامع الأزهر ودار الدّعوة والإرشاد الّتي أنشأها محمّد رشيد رضا بمصر ، وتخرّج ضابطاً احتياطيّاً في اسطنبول ١٩١٦ م ، وعاد إلى القدس بعد الحرب العالميّة الأُولى ، انتُخب ١٩٢٢ م مفتياً أكبر لفلسطين ، وكان من أوائل من نبّه إلى خطر تكاثر اليهود في فلسطين بعد وعد بلفور ١٩١٧ م ، وجاء بلفور مع المندوب السّامي البريطاني ١٩٢٥ م يريدان زيارة الحَرَم ، فمنع دخولها ، ولم تقم حركة وطنيّة في فلسطين أو من أجلها إلاّ كان هو مدبّرها في الخفاء أو في العلن ، دفن في بيروت إثر عمليّة جراحيّة ، له (مذكرات) ، (الأعلام ٤٥/٦) .

وكانت أهمُّ الأبحاث الَّتي تناولها الأُستاذ بندلي وناقشها :

- فكرة توحيد الصُّفوف ، والعمل يداً واحدة للوصول إلى أهداف الشَّعب الفلسطيني[1] .

- توضيح خطر الصُّهيونيَّة العالميَّة ومراوغتها للوصول إلى ما تريد تحقيقه .

- سياسة الحكومة البريطانيَّة الملتوية ، والنِّيَّات السَّيِّئة المبيَّتة للعرب .

- تأليف جمعيَّات ولجان شبيبيَّة تستطيع أن تحرِّك دماً جديداً ، في الأوساط الشَّعبيَّة ، والشَّبابيَّة ، والقوى الوطنيَّة عامَّة .

وكان يقول لوجهاء العمل الوطني في وجه الأخطار هذه : انسوا الخلافات وحبَّ الكراسي ، وليتكم تعملون وتقلِّلون من الثَّرثرة والكلام الفارغ ، كُلُّكم يسعى لخدمة الوطن كما تقولون ، فلتكن أعمالكم الجدية إذاً في سبيل سموّ هذا الوطن ورفعته .

وأثناء إقامته هذه طُلِبَ إليه أن يحاضر في معظم مدن فلسطين ، فكان يُلبِّي النِّداء عن طيب خاطر ، فيضع رؤوس أقلام على ورقة صغيرة ، ويلقي خطاباته بصوت جَهْوَرِيٍّ ، وبلهجة قويَّة ، مندِّداً بكلِّ قبيح في الحياة ، كالاستعمار ، والصُّهيونيَّة ، والاستغلال .

وكان ابن أخيه الأكبر (صليبا) ينبِّه عمَّه الأُستاذ بندلي إلى أنَّ عيون المخابرات الحكوميَّة له بالمرصاد ، إضافة إلى المخابرات الصُّهيونيَّة الَّتي كانت أتبع له من ظلِّه ،

---

(١) الَّتي من أهمِّها :

- إلغاء وعد بلفور والتَّخلُّص من الانتداب البريطاني الَّذي من مهامِّه تنفيذ وعد بلفور .
- إيقاف الهجرة اليهوديَّة المتزايدة إلى فلسطين ، والَّتي تشكِّل خطراً حقيقيّاً على مستقبل البلاد السِّياسي .
- تأكيد عروبة فلسطين وانتمائها إلى الأُمَّة العربيَّة في ماضيها وحاضرها ومستقبلها .
- النُّهوض بفلسطين علميّاً وتقدُّماً نحو اللَّحاق بموكب المدنيَّة ، لما فيه خير الأرض والسُّكَّان .

فكان يغضب ويثور ، ويقول : لا بدَّ من قول ما يجب أن يقال ، الشّعب أعمى ، وعلينا نحن أن نفتح له عيونه .

يقول ابن أخيه الأُستاذ نصري الجوزي : كنت أُرافقه في حِلّه وترحاله ، وأثناء إلقاء محاضراته في المدن والقرى ، وكنَّا دائماً نشاهد أعوان الإنكليز ، ومراسلي الصّحف والمجلاّت اليهوديّة ، أتبع لنا من ظلّنا ، ولكن عمّي كان يقول ما يريد قوله ، مهاجماً بلباقة حيناً ، وبالتّلميح حيناً آخر السّلطات الحاكمة الّتي لا تراعي مصالح الشّعب ، حاضّاً الشّعب الفلسطيني أن يبقى منادياً أنه جزء من الأُمّة العربيّة ، ويسعى للوحدة معها ، حاثّاً أغنياء البلد أن يساعدوا على فتح المدارس الوطنيّة ، فالجهل عدوٌّ لدود للشّعوب[1] .

الزّيارةُ الثّالثةُ والأخيرة : وفي سنة ١٩٣٠ م كانت زيارة الأُستاذ بندلي الثّالثة ـ والأخيرة ـ لمسقط رأسه (القدس) ، فقام بنشاط واسع لتوعية أبناء الشّعب الفلسطيني ، على ما يحاك له في الخفاء ، ونبّه إلى المصير الّذي ستؤول إليه فلسطين ، إن لم يتداركها أبناؤها ، ويعملوا جادّين على سدّ الثّغرات الواسعة القائمة وقتئذٍ ، ويهبُّوا من ذلك السُّبات العميق الّذي كانوا يغطّون فيه .

ويمكن القول : إنّ الأستاذ بندلي خلال الزّيارتين الأخيرتين ، الثّانية سنة ١٩٢٨ م ، والثّالثة سنة ١٩٣٠ م ، طرح الموضوعات التّالية خلال لقاءاته ومحاضراته وخطبه :

١ ـ أخطار الصّهيونيّة وقوّتها العالميّة .
٢ ـ حضّ الشّعب على التّعليم للتخلّص من القوى الرّجعيّة .
٣ ـ إقامة زعامات من الشّباب المثقّف ، زعامات هدفها الصّالح العام .
٤ ـ إتاحة الفرص للمرأة الفلسطينيّة كي تتعلّم وتساهم في بناء المجتمع ، والدّفاع عن أرض الوطن .

---

(١) من مقابلة مع الأستاذ نصري الجوزي بدمشق ، بتاريخ : السّبت ٩ كانون الأوّل (ديسمبر) ١٩٨٩ م .

٥ ـ تنبيه الرَّأي العام الفلسطيني إلى الوسائل والطُّرق الاستعماريَّة الَّتي كان يستعملها الإنكليز في سياستهم ، وهم لا يتورَّعون عن التَّضحية بكلِّ القيم الإنسانيَّة ، في سبيل مصالحهم الاستعماريَّة .

٦ ـ نبذ الخلافات والمشاحنات بين العائلات والأحزاب ، والعمل صفّاً واحداً متراصّاً من أجل الصَّالح العام .

أصدقاء بندلي الأعلام :

وفي رحلة بندلي سنة ١٩٠٩ م إلى الشَّرق العربي ، تعرَّف على كلٍّ من :

خليل السَّكاكيني : [١٨٧٨ ـ ١٩٥٣ م][1] : أديبٌ ومربٍّ فلسطيني ، ولد في مدينة القدس ، وتلقَّى تعليمه في مدارسها ، وقد التحق بعد تخرُّجه من مدرسة صهيون الإنكليزيَّة بكلِّيَّة الشَّباب (الكلِّيَّة الإنكليزيَّة فيما بعد) ، وأنهى سنة ١٨٩٣ م دراسته فيها ، ثمَّ مارس التَّعليم في القدس ، وانتسب إلى جمعيَّة زهرة الآداب الَّتي تأسَّست سنة ١٨٩٨ م برئاسة داود الصَّيداوي .

غادر السَّكاكيني فلسطين إلى نيويورك سنة ١٩٠٧ م ليتابع الدِّراسة ، ولكن سوء الظُّروف المعيشيَّة حالت دون ذلك ، فعاد إلى فلسطين بعد سنة واحدة ، وعمل بعد عودته في تنقيح مسودات مجلَّة الأصمعي لحنَّا عيسى ، وصحيفة القدس لجورج حبيب حنانيّا ، كما عمل في تدريس اللُّغة العربيَّة للأجانب .

انتسب إلى جمعيَّة الاتِّحاد والتَّرقِّي بالقدس ، وأسَّس جمعيَّة الإخاء الأرثوذكسي ، ودعا إلى مقاطعة رجال البطريركيَّة الأرثوذكسيَّة اليونانيِّين لطمسهم حقوق الطَّائفة الأرثوذكسيَّة في فلسطين ، ممَّا حمل البطريرك اليوناني ذميانوس على حرمانه من الكنيسة .

---

(١) الموافق : [١٢٩٥ ـ ١٣٧٢ هـ] .

وقد أسّس المدرسة الدُّستوريَّة في القدس سنة ١٩٠٩ م بالاشتراك مع علي جار الله وجميل الخالدي وأفتيم مشبَّك ، وكان غرضها تنمية الوعي الوطني بين الطُّلاَّب وتهيئة معلّمين وطنيّين للمستقبل .

وفي سنة ١٩١٤ م عُيّن عضواً في إدارة المعارف بلواء القدس ، فبذل جهوده كلّها في سبيل إصلاح مناهج التّدريس وجهاز المدرّسين . وقد قامت السُّلطات العثمانيَّة بإبعاده عن القدس ، وإيداعه السّجن في دمشق ، ثمَّ أطلقت سراحه في كانون الثّاني (يناير) ١٩١٨ م بكفالة ماليَّة ، وانضمَّ مع بعض رفاقه إلى الثَّورة العربيَّة الكبرى عند إعلانها[١] ، وقصد الأمير فيصل[٢] ، ثمَّ رحل إلى مصر حيث أقام فيها إلى أوائل سنة ١٩١٩ م ، ثمَّ عاد إلى القدس .

تولّى بعد عودته إدارة دار المعلّمين في القدس ، ولكنّه قدّم استقالته بعد تعيين هربرت صموئيل[٣] مندوباً سامياً لبريطانية في فلسطين ، ثمَّ غادر القدس إلى القاهرة سنة ١٩٢٠ م تلبية لدعوة الجمعيَّة السُّوريَّة الأرثوذكسيَّة ، ليتولّى إدارة التّعليم العربي في مدرسة العبيديَّة .

وفي سنة ١٩٢٢ م عاد إلى القدس ومارس مهنة الصّحافة ، فنشر المقالات في المقتطف والهلال والسّياسة المصريَّة ، وتولّى منصب أمين سرّ اللّجنة التّنفيذيَّة للمؤتمر العربي الفلسطيني[٤] .

---

(١) أعلنت الثّورة العربيَّة الكبرى في الحجاز بتاريخ ١٠ حزيران (يونيو) ١٩١٦ م ، من قبل الشّريف حسين بن علي .

(٢) فيصل بن الشريف حسين : [١٨٨٣ - ١٩٣٣ م] ، نودي به ملكاً على سوريَّة ١٩٢٠ م ، ثمَّ جلس على عرش العراق سنة ١٩٢١ م ، توفّي في سويسرة ، ودفن في بغداد .

(٣) أول مندوب سام بريطاني (صهيوني) على فلسطين ١٩٢٠ م .

(٤) مؤتمر تمثيلي عقَد باسم عرب فلسطين سبع دورات ما بين ١٩١٩ وسنة ١٩٢٨ م ، (الموسوعة الفلسطينيَّة ٣٦٨/٤) .

وقد عُيِّن مفتِّشاً عـامّـاً للُّغـة العربيَّـة في إدارة معـارف فلسطين سنـة ١٩٢٦ م ، ثمَّ عضواً في المجمع العلمي العربي بدمشق ، وألقى خلال سنـة ١٩٣٢ م عـدداً من المحـاضرات في بيروت عن أُصول التَّعليم في لبنان ، بتكليف من الجامعة الأميركيَّة .

أسَّس في القـدس سنـة ١٩٣٨ م كُلِّيَّـة النَّهضـة ، بـالاشتراك مـع إبراهيم شحـادة الخـوري ، ولبيب غلميَّـة ، وشكري حرامي ، وانتخب عضـواً في مجمع اللُّغـة العربيَّـة بالقاهرة في مطلع سنة ١٩٤٨ م .

توفِّي في القاهرة سنة ١٩٥٣ م ، وأُطلق اسمـه على إحـدى مـدارس القـدس ، وعلى أحد شوارعها تخليداً لذكراه .

كان السَّكاكيني في طليعة الرُّوَّاد الَّذين دافعوا عن اللُّغـة العربيَّـة في وجـه الهجمات الَّتي كانت تُشَنُّ عليها ، ودعا إلى تقديسها والذَّود عنها ، وهو يقول في هذا الصَّدد :

« اللُّغة قبل كلِّ شيء هي العنصر الَّذي نقيم به أمجاد الأُمَّة ، وعلينـا أن نعلِّم الولـد كرامة أُمَّته ومجدها في الكلمات العربيَّة ليقرأهـا ويشعر بـأنَّـه يشرف على مجـده وعزَّتـه القوميَّة من خلال الحروف والكلمات » .

ولـه عـدد من المـؤلَّفـات المطبـوعـة منهـا : الاحتـذاء بحـذاء الغير (١٨٩٦ م) ، وفلسطين بعد الحرب الكبرى (١٩٢٠ م) ، ومطالعات في اللُّغـة والأدب (١٩٢٥ م) ، وكذا أنا يا دنيا - يوميَّات السَّكاكيني (١٩٥٥ م) ، إلى جانب عدد من الكتب المدرسيَّة مثل : الجديد في القراءة العربيَّة (أربعة أجزاء) ، والدَّليل الأوَّل والثَّاني في تعليم اللُّغـة العربيَّة ، إضافة إلى ترجمة كتـاب : (معـالم التَّـاريخ القـديم) ، بـالاشتراك مع وصفي عنبتاوي وأحمد خليفة سنة ١٩٤٢ م[1] .

---

(١) الموسوعة الفلسطينيَّة : ٢/٣٧٠ ، عن :
(خليل السَّكاكيني : حياته ، مواقفه ، آثاره) للأُستاذ يوسف حداد ، بيروت ، طبعة سنة ١٩٨١ م .

وممّا يذكر أنّ خليل السّكاكيني وعادل جبر رافقا بندلي الجوزي إلى مدينة القاهرة ، للتّعرّف على الأوضاع القائمة هناك .

محمّد إسعاف النّشاشيبي : [١٨٨٥ ـ ١٩٤٨ م[1]] . أديب بحّاث ، من أعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق ، انفرد بأسلوب من البيان ، ونُعِتَ بأديب العربيّة ، ولد وعاش في القدس ، وتعلّم في المدرسة البطريركيّة ببيروت ، وكتب كثيراً في الصّحف والمجلاّت ، ونظم الشّعر ، ثمّ لم يرضَ عن طبقته في الشّعر فتركه ، وورث عن أبيه ثروة واسعة ، وعاش في التّعليم سنين قلائل ، وعُيّن مُفتّشاً للّغة العربيّة في معارف فلسطين ، وكان يكثر من زيارة القاهرة ، حبّبها إليه أصدقاء له فيها ، منهم شاعرها الأكبر أحمد شوقي[2] ، وجاءها ليطبع بعض كتبه فتوفّي فيها .

كان النّشاشيبي عصبي المزاج ، أبيّ النّفس ، حاضر البديهة ، متّقد الذّهن ، فيه انقباض وانكماش عمّن لا يألف .

له من الكتب : (الإسلام الصّحيح) ، و (نقل الأديب) نَشرَ أكثره في مجلّة (الرّسالة) ، و (أمثال أبي تمّام) ، و (كلمة في سير العلم وسيرتنا معه) ، و (التّفاؤل والأثريّة في كلام أبي العلاء المعرّي) ، و (كلمة في اللّغة العربيّة) .

ومحاضرات نشرها في رسائل عن : أحمد شوقي ، أمين الرّيحاني[3] ، صلاح الدّين

---

(١) الموافق : [١٣٠٢ ـ ١٣٦٧ هـ] .

(٢) أحمد شوقي بن علي بن أحمد شوقي : [١٨٦٨ ـ ١٩٣٢ م] : أمير الشّعراء ، مولده ووفاته بالقاهرة ، أرسله الخديوي توفيق سنة ١٨٨٧ م إلى فرنسة ، فتابع دراسة الحقوق في (مونبليه) ، من آثاره : الشّوقيّات ، ودول العرب ، ومصرع كليوباطرة ، ومجنون ليلى ، وقمبيز ، وعلي بك ، وعذراء الهند .. [الأعلام ١/١٣٦] .

(٣) أمين الرّيحاني : [١٨٧٦ ـ ١٩٤٠ م] : كاتب وخطيب ، يُعَدُّ من المؤرّخين ، ولد بالفريكة (من قرى لبنان) ، عضو مراسل في المجمع العلمي العربي (١٩٢١) ، من كتبه : الرّيحانيّات ، ملوك العرب ، تاريخ نجد الحديث ، فيصل الأوّل ، المغرب الأقصى ، الثّورة الفرنسيّة ، النّكبات ، التّطرّف والإصلاح ، زنبقة الغور .. [الأعلام ٢/١٨] .

الأيوبي[1] ، ومصطفى الغلاييني[2] ، إبراهيم هنانو[3] ، والعراق في سبيل العربيّة ، وله مؤلّفات أُخرى كانت في بيته بالقدس قبل استيلاء اليهود عليه ، منها : حماسة النّشاشيبي ، وجنّة عدن ، والأُمّة العربيّة[4] .

جَميل الخالِدي : [١٨٧٦ ـ ١٩٥٢ م[5]] : واحد من المربّين والرّوّاد في الصّحافة الفلسطينيّة ، ساهم مع نخبة من المثقّفين في تأسيس المدرسة الدّستوريّة عام ١٩١٠ م في القدس ، وهي أوّل مدرسة عربيّة حديثة في فلسطين أُسّست لتحسين أوضاع العرب التّعليميّة المختلفة أيّام الحكم العثماني ، وترأس تحرير مجلّة الدّستور في عام ١٩١٣ م خلفاً لمؤسّسها خليل السّكاكيني مدير المدرسة ، وكانت تصدر مرّة واحدة في الأُسبوع ، وقيل مرّة واحدة في الشّهر ، وكان الهدف من إنشاء المجلّة تدريب الطّلاب على الكتابة الصّحفيّة الّتي كانت في تلك الفترة من أهمّ الوسائل الجماهيريّة للتّعبير عن الرّأي العام الوطني ، ومقاومة الحكم العثماني ، والحركة الصّهيونيّة الّتي كانت قد بدأت تتغلغل في فلسطين للاستيلاء على الأراضي العربيّة .

---

(١) صلاح الدّين الأيوبي : يوسف بن أيوب بن شاذي : [١١٣٧ ـ ١١٩٣ م] ، من أشهر ملوك الإسلام ، وحّد مصر وبلاد الشّام ، وانتصر على الصّليبيّين في معركة حطّين ١١٨٧ م ، وحرّر القدس في السّنة ذاتها ، [الأعلام ٢٢٠/٨] .

(٢) مصطفى الغلاييني : [١٨٨٦ ـ ١٩٤٤ م] : من الكتاب والخطباء ، ومن أعضاء المجمع العلمي العربي ، مولده ووفاته في بيروت ، تعلّم بها وبمصر ، وتتلمذ للشّيخ محمّد عبده ، من كتبه : نظرات في اللّغة والأدب ، عظة النّاشئين ، الإسلام روح المدنيّة (في الرّدّ على كرومر) ، ورجال المعلّقات العشر ، جامع الدّروس العربيّة ، وديوان الغلاييني . [الأعلام ٢٤٤/٧] .

(٣) إبراهيم هنانو : [١٨٦٩ ـ ١٩٣٥ م] : من كبار المجاهدين في الثّورة السّوريّة ، ولد في بلدة (كفر حارم) غربي حلب ، وتوفّي بحلب [الأعلام ٤٢/١] .

(٤) الأعلام ٣٠/٦ ، وفي مجلّة المجمع العلمي العربي [٢٩٤/٢٣] ترجمة واسعة له .

(٥) الموافق : [١٢٩٢ ـ ١٣٧١ هـ] .



☆ صورة التقطت في القدس بتاريخ ١٣ نيسان ١٩١٠ م ، من اليسار :
الأُستاذ بندلي الجوزي ، ثمّ إسعاف النّشاشيبي ، فجميل
الخالدي (واقفاً) ، وخليل السّكاكيني على يمين الصُّورة

شجّع جميل الخالدي الطُّلاب على كتابة الموضوعات السِّياسيَّة الوطنيَّة على الرَّغم من كون المجلّة المدرسيَّة علميَّة أدبيَّة ، وقد ساهمت المجلّة في تخريج عدد من طلاب المدرسة الّذين برزوا في الحركة الوطنيَّة والحقل الصحفي في زمن الانتداب البريطاني على فلسطين ، وتحدّى الخالدي وطلابه السُّلطات العثمانيَّة سنة ١٩١٣ م لإغلاقها جريدة فلسطين الوطنية[١] ، الّتي كانت آنذاك تتزعّم مع جريدة الكرمل[٢] مهاجمة الحكومة ، لتهاونها مع الحركة الصُّهيونيَّة ، وأصدر طلاب المدرسة عدداً واحداً من جريدة فلسطين تضامناً معها .

انتظم الخالدي أثناء الحرب العالميّة الأُولى في الجيش العثماني ، وبقي في يافا طوال سنيّ الحرب المذكورة ، وفي عهد الانتداب البريطاني عُيّن مفتّشاً للمعارف ، وعمل أثناء ذلك على تأسيس المدارس الابتدائيَّة في القُرَى العربيَّة ، وفي سنة ١٩٣٥ م أُحيل على التّقاعد ، وتوفّي بغزّة[٣] .

عادل جبْر : [١٨٨٥ ـ ١٩٥٣ م[٤]] .

أديب ولغوي وصحفي ، مسقط رأسه يافا ، من أُسرة تمتهن التّجارة ، أتمّ دروسه الابتدائيّة والثّانويّة في مدينته ، ثمّ رحل إلى الأستانة لدراسة التّجارة ، ثمّ رحل إلى جنيف لدراسة العلوم السّياسيّة والاقتصاديّة ، حيث حصل على البكالوريوس ، ثمّ تابع تحصيله في باريس .

عاد إلى فلسطين قبل نهاية الحرب العالميَّة الأُولى ، ودرّسَ في الكلّيَّة الصّلاحيَّة[٥]

---

(١) صدرت مابين : ١٩١١ و ١٩١٣ م .

(٢) صدرت مابين : ١٩١٠ و ١٩١٤ م .

(٣) الموسوعة الفلسطينيّة ٧٤/٢

(٤) الموافق : [١٣٠٢ ـ ١٣٧٢ هـ] .

(٥) أنشأها صلاح الدّين الأيوبي بالقرب من سور القدس من جهة الشّمال بباب الأسباط ، ووقفها على فقهاء الشّافعيّة سنة ١١٩٢ م .

في القدس ، وتولّى التّحرير في جريدة التّرقّي في يـافـا سنـة ١٩٠٩ م ، والّتي لم تصـدر إلاّ مدّة ستّة أشهر .

وبعد الاحتلال البريطاني عُيِّن مساعداً لمدير المعارف مَن سنة ١٩١٨ م وحتّى سنة ١٩٢١ م ، ثمّ استقـال ، وعُيِّن في المجلس الإسـلامي الأعلى مـديراً للمتحف الإسـلامي ، ومكتبـة المسجـد الأقصى ، فكتب دليـلاً للمتحف ، ثمّ اشترك مـع خير الـدّين الـزّركلي وخالد الدّزدار في إصدار جريدة الحياة ، من سنـة ١٩٣٠ م ، وحتّى ١٩٣١ م ، واشترك في تحرير مجلّة الاقتصاديّات العربيّة مع فؤاد سابا .

وكان عضواً في مجلس بلديّـة القـدس مـدّة ، وعضواً في المجلس الاستشـاري لـدائرة الآثار ، وعضواً في مجلس التّعليم العالي ، وبعد النّكبة سنة ١٩٤٨ م سكن مدينة أريحا ، وعُيِّن سنة ١٩٥١ م عضواً في مجلس الأعيان الأردني .

من آثاره ترجمة كتاب (روح القوميّة) لماكس نوردو[١] .

أغناتي يوليانوفتش كراتشكوفسكي : [١٨٨٣ ـ ١٩٥١ م]

«Ignaij Julianovic Krackovskij»

قـابل الأسـتـاذ بنـدلي الجوزي أغنـاتي يوليـانوفتش كراتشكوفسكي في بيروت سنـة ١٩٠٩ م ، وكنّا قد تحدّثنا في حاشية سابقة عن ولادة كراتشكوفسكي وطفولته ودراسته في سِنيّه الأُولى ، ونتابع هنا سيرته العلميّة العُلْيا بما يلي :

التحـق كراتشكـوفسكي سنـة ١٩٠١ م بكلّيّـة اللّغـات الشّرقيّـة في جـامعـة ســان بطرسبرغ (لينينغراد حــاليــاً) ، فبــدأ بــدراســة اللّغــة العبريّــة على يــد كــولــوفكــوف Kolovcov ، واللّغــة الحبشيّــة على يــدي تــورائيف Turaev ، ثمّ أشمــدت Schmidt ، كما حضر دروس زوكــوفسكي Zukovski في اللّغتين الفــارسيّــة

(١) الموسوعة الفلسطينيّة ١٤٨/٣ ، عن : (من رجال الفكر والأدب في فلسطين) ليعقوب العودات ، عمّان ١٩٧٦ م .

والتُّركيَّـة التَّتـاريَّـة ، ودرس تـاريـخ الشَّرق الإسـلامي عنـد المـؤرِّخ الرُّوسي بـارتولـد Barthold ، وتـاريخ الأدب العـام عنـد ڤسلوڤسكي Vesslovskj ، ومع أنطون خشَّاب[1] تدرَّب على لغة التَّخاطب العبريَّة بلهجة شاميَّة .

وبرز كراتشكوڤسكي في دراسته الجامعيَّة ، الَّتي أنهاها برسالة عن (خلافة المهدي العباسي[2] وفقاً لمصادر عربيَّة) ، وبهذا حصل على دبلوم من الطَّبقة الأُولى .

ونصحـه شيـخ المستشرقين الرُّوس ، البـارون ڤكتـور رومـانـوفتش روزن Viktor Rosen صاحب الفضل الأكبر على الاستشراق في روسية ، نصحه باختيـار مهنـة التَّدريس في الجامعـة ، وعـاد إلى العمل في مخطوط ممتـاز كان ضمن مجموعـة مخطوطـات إيتـالنسكي Italinskij ، هو ديوان الأخطل ، الشَّـاعر الأُمـوي الكبير[3] ، وكانت الثَّمرة الأُولى للاهتمام بديوان الأخطل بحثاً بعنوان : (الخمر في قصائد الأخطل) . كذلك قـام ـ تحت إشراف أُستاذه روزن ـ بكتابـة بحث عن شعر أبي العتـاهيـة[4] ، وكتب رسـالـةً للحصول على المـاجستير بعنوان : (أبـو الفرج الـوأواء الـدِّمشقي[5] : دراسـة لخصـائص إنتـاجـه الشِّعري) ، ولإعـداد هـذه الرِّسـالـة راح يتردَّد على المتحف الآسيوي في سـان بطرسبرغ ، وكان تابعـاً للأكاديميَّـة الرُّوسيَّـة للعلوم ، وكان ولا يزال يحتوي على مجموعـة

---

(١) أنطون خشَّاب : لبناني من طرابلس الشَّام ، كان معيداً للعربيَّة .

(٢) المهدي : أبو عبد الله ، محمد بن المنصور ، ثالث الخلفاء العباسيِّين في بغداد ، كان جواداً ممدَّحـاً ، محبَّبـاً إلى الرَّعيَّة ، توفِّي سنة ١٦٩ هـ . (تـاريخ الخلفـاء) للحـافـظ جلال الـدِّين السُّيوطي ، ص : ٢٧١ ، الطَّبعة الأُولى ١٩٥٢ م ، المكتبة التِّجاريَّة الكبرى ـ مصر .

(٣) الأخطـل : غيـاث بن غوث بن الصَّلت : [٦٤٠ ـ ٨٠٧ م] ، من بني تغلب ، شـاعر مصقول الألفـاظ ، في شعره إبداع ، اشتهر في عهد بني أُميَّة بالشَّام ، له ديوان شعر مطبوع ، [الأعلام ١٢٣/٥] .

(٤) أبو العتـاهيـة : إسماعيل بن القـاسم بن سُويـد العيني العَنْزي : [٧٤٨ ـ ٨٢٦ م] ، شـاعر مكثر ، سريع الخاطر ، في شعره إبداع ، [الأعلام ٣٢١/١] .

(٥) الوأواء الدمشقي : محمَّد بن أحمد الغسَّاني [ت ٩٩٥ م] شاعر مطبوع ، حلو الألفاظ ، في معانيه رقَّـة ، [الأعلام ٣١٢/٥] .

ممتـازة من المخطوطـات العربيّـة والفـارسيّـة ، كان الفضل الأكبر في تنظيمهـا يرجـع إلى ڤكتور روزن .

ثمّ اتّجه إلى دراسة المتنبّي[1] وشرح المعرّي[2] على ديوان المتنبّي وعنوانـه : (مُعْجِز أحمد) ، وكان مخطوطاً في مكتبة منشن (ميونخ) .

كذلك عني ، في الفترة نفسها ، بالعلاقات بين الآداب المسيحيّة والآداب الإسلاميّة في الشّرق ، كما عني بالأدب العربي المسيحي بعامّة ، وبحث في ترجمات الكتـاب المقـدّس إلى العربيّة الّتي تمّت في عهد الخليفة المأمون[3] .

وفي ١٩٠٧ م اجتاز الامتحان الشّفوي للتّأهيل للتّـدريس في الجـامعـة ، وعُيّن في هيئة التّدريس بجامعة سان بطرسبرغ .

وفي صيف سنة ١٩٠٨ م ، وبفضل توصية من أُستـاذه روزن الّـذي توفّي في كانون الثّاني (يناير) ١٩٠٨ م ، قام كرتشكوفسكي برحلة إلى أُديسّـا[4] ، ومنهـا إلى اسطنبول ثمّ أزمير ، ومضى إلى سوريّة ولبنان ، وانتهى به المطاف إلى مصر ، وقـد قضى في لبنـان شتاءَين كان في أثنائهما يحضر دروسـاً في كلّيّـة اليسوعيّين ، واستطـاع في هـذه الفترة أن يتقن لغة التّخاطب باللّهجة اللّبنـانيّـة ، وأن يتـابع قراءة الصُّحف المحلّيّـة ، وأن يطّلع على الأدب العربي المعاصر ، وخصوصاً اللّبناني منه ، وعقد أواصر صداقة مع بعض أُدبـاء لبنان ، نذكر منهم أمين الريحـاني ، الّـذي ترجم لـه مجموعـة من القصـائـد والقصص إلى

---

(١) المتنبّي : أبو الطّيّب أحمد بن الحسين [٩١٥ - ٩٦٥ م] الشّاعر الحكيم ، وأحـد مفـاخر الأدب العربي ، [الأعلام ١١٥/١]

(٢) المعرّي : أبو العلاء أحمـد بن عبـد الله بن سليمـان التّنوخي : [٩٧٣ - ١٠٥٧ م] شـاعر فيلسوف ، ولـد ومات في معرّة النّعمان .

(٣) المـأمون العبّـاسي : عبـد الله بن هـارون الرّشيـد : [٧٨٦ - ٨٣٣ م] سـابـع الخلفـاء من بني العبّـاس في العراق ، وأحد أعاظم الملوك ، في سيرته وعلمه وسعة ملكه ، [الأعلام ١٤٢/٤] .

(٤) أوديسّا (Odessa) مرفأ على البحر الأسود ، في أوكرانيا (الاتّحاد السّوڤياتي) .

الرُّوسيَّـة في مجلَّـدَيْن ، كما تعرَّف إلى الأب لـويس شيخـو اليسـوعي[1] ، وإلى هنري لامانس[2] ، وإلى رونزڤال Ronzevalle الَّذي كان يهتمُّ باللَّهجات العاميَّة العربيَّـة ، وفي لبنـــان أيضـــاً التقى بعضَ المستشرقين المــارِّين هنـــاك ، نـــذكر منهم مـــارك لـدزبرسكي Lidzbarski المختص في النُّقوش السَّاميَّـة ، وجوتهيل Gottheil المتخصِّص في اللُّغات السَّاميَّة ، وبيترز Peters المستشرق البلجيكي .

كذلـك انعقـدت أواصر الصَّـداقـة بينـه وبين محمَّـد كُرْد علي ، رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق ، ومع جرجي زيدان الصَّحفي والرِّوائي التَّاريخي[3] .

وفي مصر كان يديم التَّردُّد على قسم المخطوطات بدار الكتب المصريَّة ، وعلى مكتبة الجامع الأزهر ، وهنا في مكتبة الجامع الأزهر وجد رسالة نحويَّة في الإعراب من تأليف أبي العلاء المعرِّي ، وفي هذه الرِّسالـة يهـاجم أبو العلاء المعرِّي تصوُّر الفقهـاء والمفسِّرين للملائكة ، وقـد أمضى كراتشكوفسكي قرابـة عشرين عـامـاً في دراسـة هـذه الرِّسـالـة ، المعروفة بـاسم (رسـالـة الملائكـة) ، وقـد نشرهـا سنـة ١٩٣٢ م ضمن منشورات المعهـد الشَّرقي ، وقد نشرها مرَّة أخرى محمَّد سليم الجندي[4] في دمشق سنة ١٩٤٤ م .

(١) لويس شيخو : [١٨٥٩ ـ ١٩٢٧ م] منشئ مجلَّـة (المشرق) في بيروت ، وأحـد المؤلِّفين المكثرين ، ولـد بماردين بالجزيرة السُّوريَّة الفراتيَّة ، وانتقل إلى الشَّـام يـافعـاً . استمرَّ يكتب أكثر مقـالات (المشرق) مدَّة خمس وعشرين سنة ، وكان همُّه في كلِّ ما كتب ـ أو في معظمه ـ خدمة طائفتـه ، من تصـانيفـه : المخطوطات العربيَّة لكَتَبَة النَّصرانيَّـة ، ومجـاني الأدب ، شعراء النَّصرانيَّـة ، النَّصرانيَّـة وآدابها بين عرب الجاهليَّة ، والآداب العربيَّة في الرُّبع الأوَّل من القرن العشرين .. [الأعلام ٥/٢٤٦] .

(٢) هنري (أو هنريكس) لامـانس [١٨٦٢ ـ ١٩٣٧ م] مستشرق بلجيكي ، راهب يسـوعي يفتقر افتقـاراً تامّاً إلى النَّزاهة في البحث والأمـانـة في نقل النُّصوص وفهمهـا ، جـاء إلى بيروت في صبـاه وبـدأ حيـاة الرَّهبنـة في سنـة ١٨٧٨ م ، ولـمَّا تـوفِّي لـويس شيخـو في ١٩٢٧ م ، خلفـه لامـانس على إدارة مجلَّـة (الشَّرق) . [موسوعة المستشرقين ، ص : ٣٤٧] .

(٣) جرجي زيدان : [١٨٦١ ـ ١٩١٤ م] منشئ مجلَّة الهلال بمصر ، وصـاحب التَّصـانيف الكثيرة ، شرد بـه الخيال كثيراً في رواياته عن تـاريخ الإسلام ، فنَّـدتُ مـافيهـا جميعـاً في كتـابي : (جرجي زيـدان في الميزان) .

(٤) محمَّد سليم بن محمَّد تقي الدِّين الجندي : [١٨٨١ ـ ١٩٥٥ م] شاعر ، عالم بالأدب ، له اشتغال بالتَّاريخ ، =

ومن ذلـك الحين اهتمّ كراتشكوفسكي بجمع كلّ مخطوطـات أبي العـلاء المعرّي بوساطة التّصوير الفوتغرافي ، كما اهتمّ بدراسة أبي العلاء المعرّي ، ومن ثمرات أبحاثه في هذا المجال بحث بعنوان : (في نشأة وتأليف رسالة الغفران لأبي العلاء المعرّي) [1] ، كذلك اكتشف في مجموع رسائل مخطوطة ، رسالة بعث بها المعرّي إلى الوزير الفاطمي أبي منصور صدقة بن يوسف الفلاحي في مصر .

وهكذا أمضى كراتشكوفسكي عامَيْن في مصر ولبنان ، أفاد خلالها كلّ الإفادة ، كما وجد رعاية خاصّة من أحمد تيمور باشا [2] .

وعاد إلى بطرسبرغ ، فتولّى إدارة مكتبة معهد روزن للّغات الشّرقيّة في جامعة بطرسبرغ ، وفي الوقت نفسه كان يقوم بالتّدريس ، وصار عضواً في جمعيّة الفيلولوجيين الجديدة ، وسكرتيراً للقسم الشّرقي من جمعيّة الآثار الّتي كان عضواً فيها منذ سنة ١٩٠٨ م ، وفي الوقت نفسه صار عضواً في اللّجنة الخاصّة بشؤون التّعليم في مدارس جمعيّة فلسطين في سوريّة ولبنان وفلسطين .

وفي صيف سنة ١٩١٤ م قام بآخر رحلة له في الخارج لدراسة المخطوطات الموجودة في هَلّه وليبزغ ، وليدن [3] ، وفي ليدن اهتمّ بالبحث في مخطوطات المعرّي ، ودراسة

= من أعضاء المجمع العلمي العربي ، ولد ونشأ في معرّة النّعمان وهاجر مع أبيه إلى دمشق ، استهواه منذ نشأته شعر أبي العلاء ونثره .

(١) أبو العلاء المعرّي : أحمد بن عبد الله ، (مرّت ترجمته في حاشية سابقة) .

(٢) أحمد بن إسماعيل بن محمّد تيمور : [١٨٧١ ـ ١٩٣٠ م] عالم بالأدب ، باحث ، مؤرّخ مصري ، من أعضاء المجمع العلمي العربي ، مولده ووفاته بالقاهرة ، جمع مكتبة قيّمة ، من كتبه : التّصوير عند العرب ، وتصحيح لسان العرب ، وتصحيح القاموس المحيط ، وضبط الأعلام ، ولعب العرب ، وذيل طبقات الأطباء .. (الأعلام ١/١٠٠) .

(٣) هلّه Halle : مدينة ألمانيّة فيها جامعة رأسها بروكلمان ١٩١٠ وحتى ١٩٣٢ م ، وليبزغ : مدينة ألمانيّة أيضاً إلى الجنوب الشّرقي من مدينة هلّه ، وليدن : Leiden مدينة في جنوبي هولندة ، شهيرة بمعاهدها العلميّة .

(رحلة مكاريوس بطريرك أنطاكية) ، وقد كتب عن هذه الرّحلة بحثاً نُشِرَ في موسكو ولينينجراد سنة ١٩٤٩ م ، يقع في أربع عشرة صفحة .

وعندما تولّى أُولدنبرغ - وهو مختص في السّنسكريتيّة - إدارة المتحف الآسيوي في بطرسبرغ ، جعل منه مركزاً للدّراسات الشّرقيّة مزدهراً ، وقد كلّف كرتشكوفسكي بترتيب عدد من المخطوطات الشّرقيّة تبلغ قرابة ألف مخطوط نقلت من القوقاز إلى بطرسبرغ ، وبقي كرتشكوفسكي يفحص هذه المخطوطات طوال خمس سنوات ، وقد أُضيف إليها أربعون مخطوطاً ، معظمها وحيد ، جاء بها البطريرك جريجوار الحداد[1] من أنطاكية في سنة ١٩١٣ م إلى قيصر روسية ، كذلك نظّم المخطوطات الّتي جمعها فلاديمير إيڤانوف Vladimir Ivanov من إقليم التركستان خصوصاً من مدينة بخارى .

وبعد ثورة ١٩١٧ م ، صار كرتشوفسكي مدرّساً في جامعة لينينجراد (بطرسبرغ سابقاً) ، وبمناسبة الاحتفال بمرور مئة سنة على إنشاء المتحف الآسيوي[2] ، عُيّن كرتشكوفسكي سكرتيراً لكلّيّة اللّغات الشّرقيّة بالجامعة ، وأُستاذاً ذا كرسي بها سنة ١٩١٨ م ، وبمناسبة مرور مئة سنة على تأسيس جامعة لينينجراد في ١٩٢٠ م ، فكّر كرتشكوفسكي في كتابة تاريخ لكرسي اللّغة العربيّة بالجامعة ، وترجمة حياة من تولوه من الأساتذة ، ومنهم : ديمانج[3] Demange ، وهو فرنسي ، وسنكوفسكي Senkovski البولندي الّذي اشتهر باسم مستعار هو البارون برمبيوس[4] Brambeus ، والشّيخ محمّد عيّاد الطّنطاوي[5] ، وقد أفرد له كرتشكوفسكي ترجمة مسهبة .

---

(١) كتب عن هذه الرّحلة بحثاً نشر في موسكو ولينينجراد سنة ١٩٤٩ م .

(٢) أسّسه فرين Frähn - وهو ألماني من روستوك - سنة ١٨١٨ م .

(٣) من سنة ١٨١٩ إلى ١٨٢٢ م .

(٤) من سنة ١٨٢٢ إلى ١٨٤٧ م .

(٥) من سنة ١٨٤٧ إلى سنة ١٨٦١ م .

وأسهم كرتشكوفسكي في مجموع الأدب العالمي الّتي كان يشرف عليها مكسيم غوركي[1] ، الأديب الرّوسي العظيم ، واستمرّ يشارك فيها حتّى سنة ١٩٢٥ م ، وقد أسهم ـ من بين منشورات هذه المجموعة ـ بترجمة (كتاب الاعتبار) ، تأليف الأمير أُسامة بن منقذ[2] إلى اللّغة الرّوسيّة ، وقدّم لترجمته بمقدّمة ممتازة نبّه فيها إلى أنّ من بين مخطوطات المتحف الآسيوي يوجد مخطوط بخطّ المؤلّف نفسه ـ الأمير أُسامة بن منقذ ـ لكتابه (المنازل والدّيار) ، تاريخ نسخه ٥٦٨ هـ = ١١٧٢ م ، وكان المخطوط قد عرفه قبل ذلك فرين ، مؤسّس المتحف ، ودورن Dorn ، ولكنه أُصبح بعد ذلك منسياً .

ويمكن تصنيف إنتاج كرتشكوفسكي إلى الأبواب الأربعة التالية :

١ ـ نشر النّصوص العربيّة القديمة :

ـ (كتاب الآداب) لابن المعتز الشّاعر العبّاسي الشّهير[3] .

ـ (كتاب البديع) لابن المعتز .

ـ (رسالة الملائكة) لأبي العلاء المعرّي ، موسكو ١٩٣٢ م .

٢ ـ ترجمات للنّصوص العربيّة القديمة إلى اللّغة الرّوسيّة :

ـ ترجمة (كتاب الاعتبار) للأمير أُسامة بن منقذ .

ـ ترجمة قصيدة (لاميّة العرب) للشّنْفَرَى[4] .

ـ مراجعة ترجمة كوزمين Kuzmin ـ وهو أحد تلاميذه وقد توفّي مبكّراً ـ لرسالة (حيّ بن يقظان) لابن الطُّفَيْل[5] ، ونشرها .

---

(١) مكسيم غوركي Gorki : [١٨٦٨ ـ ١٩٣٦ م] ولد في ينجني نوفغورود ، من مؤلّفاته : الأُم ، الشّاردان ، وطفولتي .

(٢) أُسامة بن منقذ الشّيزري [١٠٩٥ ـ ١١٨٨ م] من أكابر بني منقذ أصحاب قلعة شيزر (قرب حماة) ، من العلماء الشّجعان ، له تصانيف في الأدب والتّاريخ ، (الأعلام ١/٢٩١) .

(٣) عبد الله بن محمّد المعتز بالله [٨٦١ ـ ٩٠٩ م] شاعر مبدع ، ولد ببغداد ، وأُولع بالأدب .

(٤) الشّنفرى : عمرو بن مالك (ت نحو ٥٢٥ م) شاعر جاهلي ، كان من فتّاك العرب وعدّائيهم .

(٥) ابن الطّفيل : محمّد بن عبد الملك الأندلسي [١١٠٠ ـ ١١٨٥ م] فيلسوف طبيب ، توفي في مرّاكُش . (الأعلام ٦/٢٤٩) .

٣ ـ دراسات وترجمات للأدب العربي المعاصر :

ـ ترجمة كتاب (الأيّام) ، الجزء الأوّل ، لطه حسين[١] .

ـ دراسة بعنوان : (آراء طه حسين في الشّعر الجاهلي ومن نقدوها) .

ـ ترجمات لصفحات كتبها ميخائيل نُعَيْمة[٢] عن حياته .

ـ دراسة عن : (نشأة وتطوّر الأدب العربي الحديث) .

ـ (أدب المهاجرين العرب إلى أمريكة) .

ـ (الأدب العربي الحديث) ، مقال في دائرة المعارف الإسلاميّة .

ـ ترجمة كتاب (المرأة الجديدة) لقاسم أمين[٣] .

ـ دراسة عن (القصّة التّاريخيّة في الأدب العربي المعاصر) .

٤ ـ دراسات للأحوال الخاصّة للعالم العربي

ـ مقال بعنوان : (مصطفى كامل وجولييت آدم) بحث في تاريخ الحركة الوطنيّة في مصر .

ـ (الشّيخ أبو نظّارة[٤] ، مؤسّس الصّحافة السّاخرة العربيّة في مصر) .

ـ (في الصّحافة العربيّة في مصر) .

---

(١) طه بن حسين بن علي بن سلامة [١٨٨٩ ـ ١٩٧٣ م] ، مصري ، بدأ حياته في الأزهر ، ثمّ بالجامعة المصريّة ، أصبح رئيساً لمجمع اللّغة بمصر ، من كتبه : في الشّعر الجاهلي ، حديث الأربعاء ، على هامش السّيرة ، الأيّام ، ذكرى أبي العلاء ، (الأعلام ٣/٢٣١) .

(٢) ميخائيل نعيمة : أديب لبناني .

(٣) قاسم بن محمد أمين المصري : [١٨٦٣ ـ ١٩٠٨ م] ، كاتب باحث ، اشتهر بمناصرته للمرأة ودفاعه عن حرّيّتها ، درس الحقوق في مونبلييه (فرنسة) ، توفي بالقاهرة ، من كتبه : تحرير المرأة ، والمرأة الجديدة ، كلمات قاسم أمين ، (الأعلام ٥/١٨٤) .

(٤) يعقوب بن رافائيل صَنُّوع (أبو نظّارة) : [١٨٣٩ ـ ١٩١٢ م] ، كاتب مصري فكه نقّاد ، له نحو ثلاثين مسرحية هزليّة وغراميّة ، يُعَدُّ مؤسّس المسرح المصري ، وأصدر صحيفة (أبو نظّارة) ١٨٧٧ م ، فانتقد أعمال الخديوي إسماعيل ، فنفي إلى باريس ، فتابع إصدار صحيفته فيها ، وكان قويّ الصّلة بالأفغاني ومحمّد عبده ، (الأعلام ٨/١٩٨) .

ـ (المسألة العربيّة والتّعاطف الرّوسي) .
ـ (الكُتّاب الرّوس في الأدب العربي) .

وإلى جانب هذه الدّراسات والنّشرات ألّف كرتشكوفسكي كتابين نالَ أولهما شهرة واسعة ، حتّى ترجم إلى عدّة لغات ، وهما :

ـ (بين المخطوطات العربيّة) .
ـ (تاريخ التّأليف في الجغرافية عند العرب)[1] .

أحمد سامح الخالدي : [١٨٩٦ ـ ١٩٥١ م] مربٍّ فلسطيني ، ولد في مدينة القدس ، تلقّى علومه في المدرسة الأمريكيّة ، وتابعها في مدرسة المطران بالقدس (أي مدرسة سانت جورج) ، ثمّ أنهى دراسته الجامعيّة في كليّة الصّيدلة بالجامعة الأمريكيّة في بيروت سنة ١٩١٧ م ، ونالَ درجة أُستاذ في العلوم .

عُيّن سنة ١٩٢٠ م مفتّشاً في إدارة المعارف بلواءَي يافا وغزّة ، ونالَ درجة أُستاذ في التّربية ، ثمّ عُيّن بعد ذلك مساعداً لمدير المعارف العام ، وقد خلف الدّكتور خليل طوطح في إدارة دار المعلّمين في القدس سنة ١٩٢٥ م ، فأطلق عليها اسم الكلّيّة العربيّة ، وخرّجت هذه الكلّيّة عدداً كبيراً من الشّبّان الّذين عملوا في التّدريس بفلسطين .

غادر فلسطين إلى لبنان بعد إعلان قيام الكيان الصّهيوني في أيّار ١٩٤٨ م ، حيث وجّه نشاطه لمساعدة اللاّجئين الفلسطينيّين وتعليم أبنائهم .

توفّي في مصيف (بيت مري) اللّبناني .

ولأحمد سامح الخالدي دور كبير في إغناء المكتبة العربيّة بتصانيفه الكثيرة ، ومنها :

---

(١) موسوعة المستشرقين : ٣٢١ وما بعدها .

ـ أنظمة التّعليم ، وهو جزآن ، طُبِعَ الأوّل سنة ١٩٣٣ م ، والثّاني سنة ١٩٣٥ م .
ـ نظام التّعليم في العهد العثماني .
ـ أهل العلم بين مصر وفلسطين (١٩٤٦ م) .
ـ رجـال الحكم والإدارة في فلسطين ، من العهـد الرّاشـدي إلى القرن الرّابع عشر الهجري .
ـ العرب والحضارة الحديثة (١٩٥١ م) .
ـ أهل العلم والحكم في ريف فلسطين (١٩٦٨ م) .
ـ تاريخ المعاهد الإسلاميّة ، في ثمانيـة مجلّدات ، تنـاول فيـه تطوُّر الثّقـافـة عنـد العرب والمسلمين في جميع معاهدهم .
ـ تاريخ بيت المقدس .

وقام بنشر عدد من المخطوطات ، منها :

ـ فضائل بيت المقدس للواسطي .
ـ الإعـلام في فضـائـل الشّـام للمنيني[1] ، وأضـاف إليـه ملحقـاً بتراجم الصّحـابـة والتّابعين الّذين نُسبُوا إلى الشّام ، أو نزلوا أو استشهدُوا فيها ، طبع سنة ١٩٤٦ م[2] .

هـذه نماذج من الأعلام ، أصدقـاء بنـدلي الجوزي ، الّـذين كانوا يتبـادلون معـه الآراء ، يحاورونه ويحاورهم عندما يزور مسقط رأسه (القدس) ، ولو أردنا المزيد من الأدباء والمفكّرين الكبار ، لذكرنا بالتفصيل سيرة الأساتـذة : إسحـاق موسى الحسيني ، ويوسف حنّا .

---

(١) أحمد بن علي بن عمر بن صالح (شهـاب الـدّين) أبو النّجـاح المنيني : [١٦٧٨ ـ ١٧٥٩ م] ، أديب من علماء دمشق ، مولده في منين (من قرى دمشق) ، من كتبه : الفتح الوهبي ، الإعلام بفضائل الشّـام ، فتح القريب ، شرح منظومة في الخصائص النّبويّة ، والفرائد السّنيّة في الفوائد النّحويّة ، وله شعر فيه جودة ، (الأعلام ١٨١/١) .

(٢) الموسوعة الفلسطينيّة : ٩٧/١

كما قابل خلال زيارته إلى مصر ، كلاً مِنَ الأساتذة الكبار ، والأُدباء المشهورين :

ـ عبّاس محمود العقّاد : [١٨٨٩ ـ ١٩٦٤ م] الّذي كان إماماً في الأدب ، من المكثرين كتابةً وتصنيفاً مع الإبداع ، فظلّ اسمه لامعاً مدّة نصف قرن ، أخرج في خلالها من تصنيفه ٨٣ كتاباً .

ـ وإبراهيم بن محمد بن عبد القادر المازني : [١٨٩٠ ـ ١٩٤٩ م] ، الأديب المجدّد ، من كبار الكُتّاب ، امتاز بأُسلوب حُلوِ الدّيباجة ، وأتى بالبيان المشرق من السّهل الممتنع ، وهو من أعضاء المجمع العلمي بدمشق ، ومجمع اللّغة العربيّة بالقاهرة .

ـ ومصطفى لطفي المنفلوطي : [١٨٧٢ ـ ١٩٢٤ م] ، نابغة في الإنشاء والأدب ، انفرد بأُسلوب نقيٍّ في مقالاته وكتبه ، وله شعر جيد فيه رقّة وعذوبة ، له : النّظرات والعبرات ، مجدولين ..

ـ ومصطفى صادق الرّافعي : [١٨٨١ ـ ١٩٣٧ م] ، عالم بالأدب ، شاعر ، من كبار الكُتّاب ، شعره نقي الدّيباجة ، ونثره من الطّراز الأوّل ، له : ديوان شعر ، وتاريخ آداب العرب ، إعجاز القرآن والبلاغة النّبويّة ، رسائل الغفران ، وحي القلم ، أوراق الورد ، المعركة ..

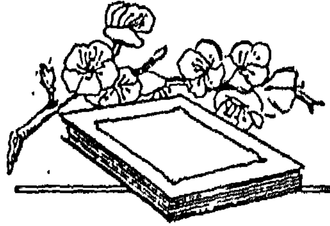
لقد كانت هذه الشّريحة من الأُدباء الكبار ، والمفكّرين الأفذاذ زملاء بندلي الجوزي ، ناهيك عن رجال الطّبقة المثقّفة ، الّتي كان أفرادها يتحلّقون حوله في مقهى (الصّعاليك)[1] ، وهو الاسم الّذي أطلقه خليل السّكاكيني على هذا المقهى ، والّذي لقّب نفسه (شيخ الصّعاليك) ، وهو المقهى الواقع في باب الخليل بالقدس الشّريف .

عدد كبير من الأُدباء ، ومراسلي الصّحف ، والشّبّان .. كانوا يستمعون إلى آراء بندلي ويسألونه في موضوعات تعنّ لهم .

(١) الصُّعْلُوك : الفقير الّذي لا مال له ، وقد تصعْلكَ الرّجل ، إذا كان كذلك ، وكان عروة بن الورد يسمّى : عروة الصّعاليك ، لأنّه كان يجمع الفقراء فيرزُقهم ممّا يغنم في غزوه .

وأثنـاء رحلتـه الـدّراسيَّـة هـذه ، رأى بنـدلي مـا رأى من تـأخُّر وجهـل وظلم الإقطاعيِّين ، فراح يبشِّر بفِكَر جديدة تحرُّريَّة ، ويهيب بـالنَّـاس أن يكسروا القيود ، ويثوروا ضدَّ الظُّلم والقوى المتسلِّطة الحاكمة ، وضـدَّ الوالي الَّـذي بيـده مقـاليـد الأُمور كلِّها ، وهمُّـه الأوَّل أن يجمع خلال ولايتـه الأموال الطَّـائلـة ، ليعوِّض عمَّـا دفعـه حتَّى يحصل على هذا المنصب الرَّفيع[1] .

ورأى بندلي أنَّ اللُّغة العربيَّة في خطر ، والقضاء على العربيَّة ، قضـاء على الأمجـاد العربيَّة ، والأَصالة العربيَّة ، فعاد إلى روسية حزيناً كئيباً .



(١) وهو ماعرف (بالالتزام) ، أي دفع مبلغ كبير للسُّلطان قبالة تعيِّينـه واليـاً في الإمبراطوريَّـة المترامية الأطراف .

بَنْدَلي الجوزي
آثارُهُ

بَنْدَلِي الْجَوْزِي
والتَّفسير الاقتصادي للتَّاريخ

« إنَّ غاية التَّاريخ هي إدراك الماضي كما كان ، لا كما نتوهَّم أنَّه كان ، وكذلك ليس هو تصوير الماضي كما يجب أن يكون ، أو كما نريده أن يكون »[1] .

بعد هذه العبارة المقبولة ، نقول : مَنْ فَسَّر التَّاريخ تفسيراً مادِّيّاً ـ اقتصاديّاً ، رمى الَّذين يكتبون التَّاريخ العربي ، بأنَّهم ينتقون منه حوادثَ وروايات ، ويغفلون دور الحركات التَّقدُّميَّة ـ الاشتراكيَّة ، والتَّاريخ بجميع حوادثه ووقائعه ، يجب تفسيره وتعليله بأسباب مادِّيَّة اقتصاديَّة ، وإنَّ أساليب الإنتاج هي الأساس الَّذي يرتكز عليه تاريخ البشريَّة ، وإنَّ المجتمع ينقسم إلى طبقات ، والتَّاريخ كلُّه يتلخَّص بالنِّضال الدَّائم بين هذه الطَّبقات ، منذ بدأت المُلكيَّة الفرديَّة لوسائل الإنتاج .

ومن كتب التَّاريخ العربي كاملاً متكاملاً كما جاء في مصادره المعتمدة الموثَّقة ، رموه (بالسَّلفيَّة) ، أو قالوا إنَّه يكتب من (روايات رسميَّة حكوميَّة) ، وهم يرون أنَّ الرِّوايات الصَّحيحة عن القرامطة والبابكيَّة والْخُرَّميَّة والزِّنج .. غير موجودة ، وأنَّ ما كتبه أُولئك عن أنفسهم أُتلف ، فكيف يكتبون ! وعلى أي شيء يعتمدون ؟!

إن معظم ما كتبه أُولئك جاء بناء على تخمينات وظنٌّ ، فوقع قسم كبير منهم في الخيال المحض باسم (التَّحليل العلمي) ، أو (التَّفسير العلمي) ، أو التَّفسير الاقتصادي للتَّاريخ ، الَّذي من ضمن ملامحه البارزة : الصِّراع ، أو النِّضال الدَّائم بين الطَّبقات .

---

(١) نحن والتَّاريخ ، قسطنطين زريق ، ص ٥٧

ويتحدَّثون عن التَّفسير العلمي للتَّاريخ ، ويكثرون الكلام عن الرؤية العصريَّة للحركات السِّريَّة ، ونحن نحتاج إلى رؤية حقيقيَّة ثابتة ، بدلاً من الرؤية العصريَّة ، ولو خالفت أهواءنا ، فلا للرؤية العصريَّة ، لأنَّها تتغيَّر بتغيُّر العصر وأهله ، واختلاف الرَّائي ودرجة استيعابه ، ودرجة ثقافته ، ومستواه العلمي ، فالرَّفض منطقي للرؤية العصريَّة ، لأنَّنا سنصل إلى عشرات الرؤى في كلِّ عصر ، وستضيع بذلك الحقيقة كما كانت ، أمَّا الرؤية الحقيقيَّة فإنَّها باقية ثابتة لكلِّ عصر ، هكذا كانت الأحداث مجرَّدة ، وهكذا حدثت في زمان وقوعها ، وهذه هي دوافعها .

إنَّ ما كتبوه قصدوا منه تفسير التَّاريخ تفسيراً اقتصاديّاً ، مغفلين كلَّ الجوانب الأُخرى في المجتمع ، وكتبهم كلُّها تقصد إظهار المجتمع في صراع طبقي مستمر ، حتَّى يصلوا إلى النُّبوءة الكبرى بزوال الطَّبقات الَّتي تستولي على وسائل الإنتاج ، ولا يبقى فيه إلاَّ عامل ومعمل .

والواقع ينطق قائلاً : إنَّ وسائل الإنتاج آلت شيئاً فشيئاً إلى أيدي خبراء الصِّناعة والاقتصاد ، وإنَّ الحكومات المتصرِّفة في الإنتاج والتَّوزيع لن تستغني عنهم ، فعلى الأدمغة الخبيرة تسير الصِّناعة ، وتتقدَّم المعامل ، ويُسَيَّر العمال .

وإنَّ في المجتمع الحالي طبقة غير طبقتي العمَّال وأرباب العمل ، هي الطَّبقة الوسطى الَّتي تضمُّ صغار الصُّنَّاع والمزارعين والتُّجَّار ، وأصحاب المهن الحرَّة ، وهي فئة لم ترتفع كما أثبت الواقع إلى سويَّة البورجوازيِّين ، ولم تنصهر بالطَّبقة العاملة ، علماً أنَّ التَّضامن بين أفراد الطَّبقة الواحدة غير موجود ، والمصالح في الطَّبقة الواحدة ليست متوافقة دوماً ، فالتَّنافس والتَّسابق على احتلال المراكز الشَّاغرة في المعامل معروفان في الواقع ، والتَّضارب بين مصلحة العمال وأرباب العمل ليس موجوداً دائماً ، فالجميع يعمل في مشروع واحد ، والمصلحة المشتركة تفرض التَّعاون للنُّهوض بالمشروع ، والحيلولة دون إفلاسه ، أو خسارته ، وهي تقابل مصلحة العمال وربِّ العمل في المشروع المنافس .

إنّ النّضال بين الطّبقات يستند إلى مصلحة مادّيّة بحتة ، والحرب العالميّة الثّانية ، أثبتت أنّ الرّابطة الوطنيّة ، أو القوميّة ، لها دورها الكبير في المجتمع .

والتّاريخ خير شاهد على أنّ الطّبقة المظلومة في عرف الرؤية العصريّة ، لم تكن متطابقة مطلقاً ، وإلاّ فبماذا نفسّر عدم تعاون صاحب القرامطة[1] مع صاحب الزّنج[2] مثلاً ؟ إنّ التّنافر الموجود بين مبادئهما ، صرف النّظر عن الفائدة الّتي تعود عليهما ، نتيجة لهذا التّحالف من النّاحية العسكريّة على الأقل ، ولا يفسّر عدم التّعاون إلاّ باختلاف الهدف والمطامع المادّيّة ، فلماذا لم تتوحّد الطّبقة المظلومة العربيّة والفارسيّة ؟ وأين نضال الطّبقات الموحّد ضدّ السّلطة (الرّجعيّة) في الخلافة العبّاسيّة حسب ادّعائهم ؟!

إنّ التّحليل العلمي للتّاريخ ، أو التّفسير الاقتصادي المادّي للتّاريخ ، بشكل يجعله يطغى على كلّ جوانب وأسباب سير التّاريخ ، أمر مبالغ فيه ، ولم يقله من قال بتفسير التّاريخ مادّيّاً اقتصادياً طبقيّاً ، بدليل :

أرسل أنجلز إلى كونراد سميث في ١٥ آب (أغسطس) ١٨٩٠ م رسالة مما جاء فيها حرفيّاً : نجد الكثيرين من النّاشئين الألمان ، يكتفي باستخدام عبارة المادّيّة التّاريخيّة - وكلّ شيء يمكن تحويله إلى اصطلاح - لكي يجعلوا من معلوماتهم التّاريخيّة القليلة نسبيّاً نظاماً دقيقاً بأسرع ما يمكنهم ذلك ، ثمّ بعد هذا ينظرون إلى أنفسهم نظرة عالية جدّاً .

---

(١) القرامطة : حركة دينيّة - سياسيّة - اجتماعيّة ، تنسب إلى داعيها الأوّل حمدان قرمط في العراق ، أظهرها قويّة في البحرين أبو سعيد الجنابي (٨٩٩ م) ، سيطرت الحركة على أجزاء من البلاد الإسلاميّة ، واستولوا على مكّة سنة ٩٣٠ م ، انتهى أمرها سنة ١٠٢٧ م بتركيز جهود العبّاسيّين ضدّها .

(٢) الزّنج : حركة أسّسها علي بن محمّد (ت ٨٨٣ م) ضدّ العبّاسيّين ، وأقام نظاماً عسكريّاً شبه اشتراكي ، شيّد في جنوبي العراق مدينتي : المختارة والمنيعة ٨٦٩ م ، قضى عليه الخليفة العبّاسي (الموفق) سنة ٨٨٣ م .

وجاء في رسالة أنجلز إلى يوسف بلوخ بتاريخ ٢١ أيلول (سبتمبر) ١٨٩٠ م : « إنَّ توجيه الكُتَّاب النَّاشئين الاهتمام إلى الجانب الاقتصادي بأكثر ممَّا يستحقُّ ، أمرٌ يقع اللَّوم فيه على عاتقي وعاتق ماركس ، لقد كان علينا أن نؤكِّد هذا المبدأ الرَّئيسي ، لنعارض خصومنا الَّذين كانوا ينكرونه ، ولم يكن لدينا دائماً الوقت ، أو المكان ، أو الفرصة لنضع العناصر الأُخرى الَّتي تتضمَّنها العلاقة المتداخلة في مواضعها الحقيقيَّة .. ولسوء الحظِّ ، كثيراً مايحدث أنَّ النَّاس يتصوَّرون أنَّهم قد فهموا نظريَّة ما فهماً تامّاً ، ويستطيعون تطبيقها دون كبير عناء ، وذلك منذ اللَّحظة الَّتي يتمكَّنون فيها من الإلمام بالمبادئ الرَّئيسيَّة الَّتي تقوم عليها النَّظريَّة ، بل إنَّهم قد لا يدركون هذه المبادئ دائماً ، الإدراك الصَّحيح ، ولا أستطيع أن أُعفي من اللَّوم الكثيرين من الماركسيِّين الأحداث عهداً ، إذ من هذه النَّاحية خرجت أشد الأشياء تفاهة وسخفاً »[١] .

وفي رسالة أرسلها ماركس من بروكسيل في ٢٨ كانون الأوَّل (ديسمبر) ١٨٤٦ م إلى أنتكوف ، جاء فيها : « إنَّ تاريخ النَّاس الاجتماعي ليس إلاَّ تاريخ تطوُّرهم الفردي سواء أكانوا يشعرون به ، أمْ لا يشعرون »[٢] .

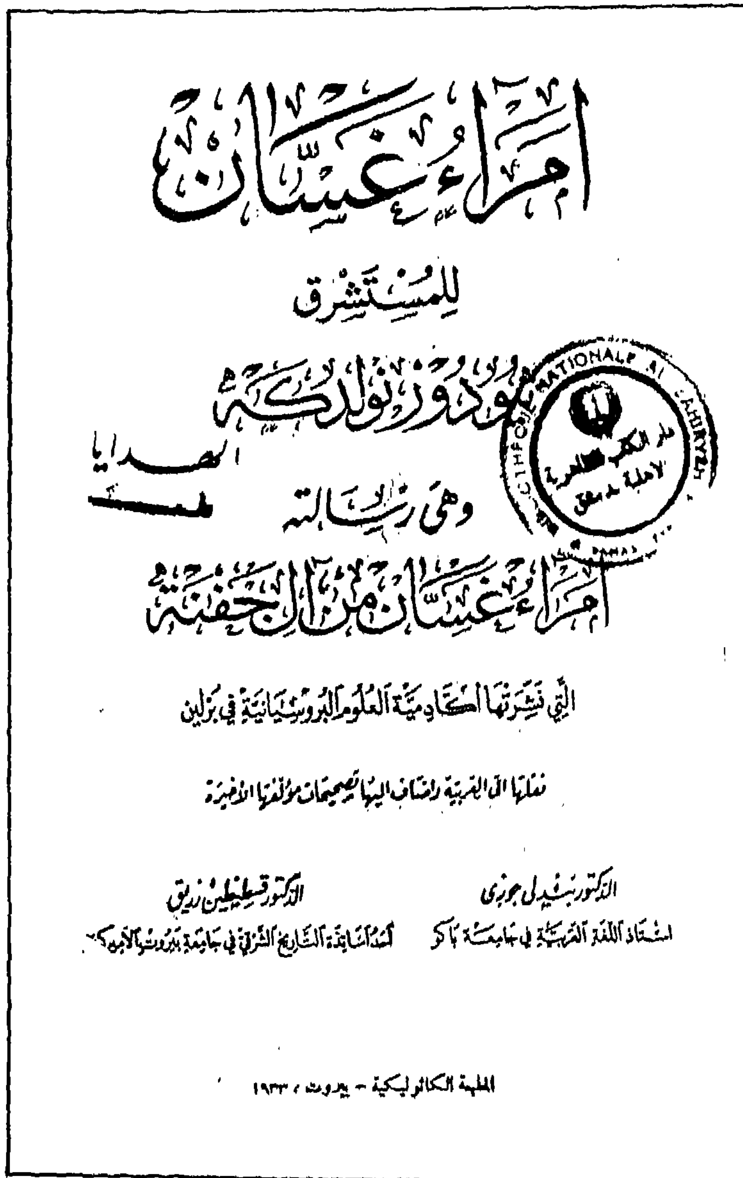
وقال أنجلز لكونراد سميث في رسالة أرسلها من لندن في ٢٧ تشرين الثَّاني (نوفمبر) ١٨٩٠ م : « مِنَ الصَّعب أن نبرهن على أنَّ الحرِّيَّة المطلقة الَّتي ينعم بها الموصي في إنكلترة ، والقيود الشَّديدة المفروضة عليها في فرنسة هي أسباب اقتصاديَّة في جميع تفصيلاتها »[٣] .

وممَّا سبق نجد :

أنَّ وضع التَّفسير الاقتصادي ، أو التَّحليل العلمي ـ المادِّي ، لم يجعل النَّاحية الاقتصاديَّة هي كلُّ شيء ، تشمل كلَّ القيم الأُخرى في المجتمع ، وما أحوجنا اليوم إلى النَّظر في مصوِّر العالم الفكري ، لا في مصوِّر الجغرافي ، أو الاقتصادي .

(١ و٢ و٣) التَّفسير الاشتراكي للتَّاريخ .

ومع ذلك ، اتّخذ بندلي الجوزي التّفسير الاقتصادي - وجهة النّظر الماركسيّة - في كلّ كتاباته .



أمراء غسّان

للمستشرق

تيودور نولدكه

وهي رسالته

أمراء غسّان من آل جفنة

التي نشرتها أكاديمية العلوم البروسيانية في برلين

نقلها الى العربية واضاف اليها تصحيحات مؤلفها الأخيرة

الدكتور بندلي جوزي
استاذ اللغة العربية في جامعة باكو

الدكتور قسطنطين زريق
أحد أساتذة التاريخ الشرقي في جامعة بيروت الأميركية

المطبعة الكاثوليكية - بيروت ، ١٩٣٣

آثار بندلي الجوزي :

بعد هذه المقدّمة عن التّفسير الاقتصادي للتّاريخ ، والّتي لها ضرورتها في هذا الفصل ، نذكر آثار الدكتور بندلي ، الّتي كتب معظمها باللّغة العربيّة ، مع أنّه يعرف خَمْسَ عشرة لغة ، وهي التّالية : العربيّة ، الرّوسيّة ، الفرنسيّة ، الإنكليزيّة ، الألمانيّة ، اليونانيّة ، التّركيّة ، الفارسيّة ، الأذربيجانيّة .

ويجيد : اللاّتينيّة ، واليونانيّة القديمة ، والعبرانيّة القديمة ، والسّريانيّة .

ويقرأ بطلاقة اللّغتَيْن الإيطاليّة والإسبانيّة .

آثاره :

١ ـ مبادئ اللّغة الرّوسيّة لأولاد العرب (جزءان)	قازان	١٨٩٨ ـ ١٨٩٩ م
٢ ـ المعتزلة	قازان	١٨٩٩ م
٣ ـ تحفة العروس في لغة الرّوس[١] (جزءان)	قازان	١٩٠٣ م
٤ ـ محمّد المكّي ومحمّد المدني	قازان	١٩٠٣ م
٥ ـ الأمومة عند العرب (ترجمة عن ريكلن الهولندي)[٢]	قازان	١٩٠٣ م
٦ ـ تاريخ كنيسة أورشليم	قازان	١٩١٠ م
٧ ـ جبل لبنان : تاريخه وحالته الحاضرة	قازان	١٩١٤ م
٨ ـ البحث في القرآن	قازان	١٩١٤ م
٩ ـ المسلمون في روسية ومستقبلهم	قازان	١٩١٧ م
١٠ ـ كتاب : فتوح البلدان (ترجمة)	باكو	١٩٢٧ م
١١ ـ تاريخ اليعقوبي (ترجمة)	باكو	١٩٢٧ م
١٢ ـ من تاريخ الحركات الفكريّة في الإسلام[٣]	القدس	١٩٢٨ م

---

(١) وورد العنوان : تاج العروس في معرفة الرّوس .
(٢) ترجمة عن الألمانيّة ، والمؤلّف (Wilken) أستاذ في كلّيّة ليدن .
(٣) وهو من أهمّ ما قدّم الدكتور بندلي على الإطلاق .

١٣ ـ الشؤون[1] الإنكليزيّة ـ المصريّة	باكو	١٩٣٠ م
١٤ ـ المصطلحات العلميّة عند العرب المعاصرين	باكو	١٩٣٠ م
١٥ ـ أُمراء غسّان[2] (ترجمة عن الألمانيّة)	بيروت	١٩٣٣ م
١٦ ـ تاريخ حياة الفارابي	باكو	بلا تاريخ
١٧ ـ تاريخ أذربيجان : لابن الأثير	باكو	١٩٤٠ م

وله أيضاً : ـ الطّاعون وأعراضه والوقاية منه .

ـ رحلة البطريرك مكاريوس ابن الزّعيم إلى بلاد الكرج .

ـ علم الأُصول عند الإسلام .

ـ أصل الكتابة عند العرب .

ـ أصل سكّان سوريّة وفلسطين المسيحيّين .

أمّا مقالاته فهي :

في مجلّة الآثار (زحلة ـ لبنان) :

ـ من خرافات العرب قبل الإسلام	المجلّد ٢ ، ج ١١	أيّار (مايو)	١٩١٣ م

في مجلّة الكُلّيّة[3] :

ـ هل اللُّغة العربيّة مفتاح اللُّغات ؟	المجلّد ١٦ ، ج ١	تشرين الثّاني (نوفمبر)	١٩٢٩ م
ـ هل اللُّغة العربيّة مفتاح اللُّغات ؟	المجلد ١٦ ، ج ١	كانون الأوّل (ديسمبر)	١٩٢٩ م
ـ حقائق وخواطر في اللُّغة	المجلد ١٧ ، ج ٤	أيّار (مايو)	١٩٣١ م
ـ مواد لغويّة	المجلد ١٨ ، ج ٦	أيلول (سبتمبر)	١٩٣٢ م
ـ الجزية والخراج	المجلد ١٨ ، ج ١	تشرين الثّاني (نوفمبر)	١٩٣١ م

---

(١) أو : العلاقات الإنكليزيّة المصريّة .

(٢) أمراء غسّان ، تأليف المستشرق تيودور نولدكه ، وهي رسالته : أُمراء غسّان من آل جفنة ، الّتي نشرتها أكاديميّة العلوم البروسيانيّة في برلين ، قدّم الدكتور قسطنطين زريق بعض الآراء في التّرجمة ، فكُتِبَ اسمه في التّرجمة العربيّة الّتي طبعت في المطبعة الكاثوليكيّة ـ بيروت ١٩٣٣ م .

(٣) تصدرها الجامعة الأمريكية في بيروت .

في مجلّة الهلال[1] :

ـ تاريخ الألفاظ	المجلد ٥ ، ج ١٥	نيسان (إبريل)	١٨٩٧ م
ـ صفحة من تاريخ التّمدُّن عند العرب	المجلّد ٣٦ ، ج ١٠	آب (أغسطس)	١٩٢٨ م

في مجلّة المقتطف[2] :

ـ الجزية والْخَرَاج في أوائل الإسلام	المجلّد ٧٤ ، ج ٥	أيّار (مايو)	١٩٢٩ م
ـ الجزية والخراج في أوائل الإسلام	المجلّد ٧٥ ، ج ١	حزيران (يونيو)	١٩٢٩ م
ـ أصل لفظة خراج	المجلّد ٧٥ ، ج ١	حزيران (يونيو)	١٩٢٩ م
ـ من المصيب[3] ؟	المجلّد ٧٥ ، ج ١	أيلول (سبتمبر)	١٩٢٩ م
ـ حنين العرب إلى بني أُميّة	المجلّد ٧٨ ، ج ٦	حزيران (يونيو)	١٩٣١ م
ـ المستشرق الرُّوسي كراتشكوفسكي	المجلّد ٧٩ ، ج ٣	أيلول (سبتمبر)	١٩٣١ م
ـ السُّفياني(١)	المجلّد ٨٣ ، ج ١	حزيران (يونيو)	١٩٣٣ م
ـ السُّفياني(٢)	المجلّد ٨٣ ، ج ٢	تموز (يوليو)	١٩٣٣ م
ـ أمير أُموي من سلالة مسيحيّة[4]	المجلّد ٧٩ ، ج ٢	تشرين الأوّل (اكتوبر)	١٩٣١ م
ـ القرآن والبحر[5]	المجلّد ٧٥ ، ج ٢	تموز (يوليو)	١٩٢٩ م

---

(١) الهلال : مجلّة شهريّة مشهورة ، أسّسها جرجي زيدان في مصر سنة ١٨٩٢ م ، وما زالت تصدر حتّى يومنا هذا .

(٢) المقتطف : مرّت ترجمتها في حاشية سابقة .

(٣) ردٌّ على مقالة عبد اللّطيف الطّيبي : (هل أصاب الدكتور الجوزي ؟) ، نُشِرَ في المقتطف المجلّد ٧٥ ، ج ١ ، حزيران (يونيو) ١٩٢٩ م .

(٤) ترجمة ، والمقالة للعلامة بارتولد ، عضو أكاديميّة لينينغراد العلميّة ، والأمير الأُموي المقصود هو (العبّاس بن الوليد) فأمّه كانت نصرانيّة

(٥) للأُستاذ فاسيلي بارتولد "arthold ـ . كاديميّة بطرسبرغ العلميّة ، ترجمها الدكتور بندلي ، ونشرت في المقتطف .

في مجلّة الرّابطة الشّرقيّة[1] :

ـ مسليمة الكذّاب[2] (١)	العدد الثّاني	السّنة الأُولى	١٩٢٨/١٢/١٥ م
ـ مسيلمة الكذّاب (٢)	العدد الثّالث	السّنة الأُولى	١٩٢٩/٢/١٥ م
ـ مسيلمة الكذّاب (٣)	العدد الرّابع	السّنة الأُولى	١٩٢٩/٣/١٥



وللأُستاذ بندلي أيضاً :

ـ ديوان لغة التُّرك (١)	المجلّد ١	باكو	١٩٢٦ م
ـ ديوان لغة التُّرك (٢)	المجلّد ٢	باكو	١٩٢٧ م
ـ باياك وباياكيسم	(١٦ صفحة)	في مجلة باكو	١٩٢١ م
ـ بضع كلمات بمناسبة (الرّدُّلناقدنا)	لـ (إيڤانوف)	قازان	١٩١٦ م

ـ المتغلّبون في بلاد عبر القوقاز في القرنين التّاسع والعاشر . (من تاريخ الاقطاعيّة في بلاد عبر القوقاز) ، أكاديميّة العلوم ـ فرع جورجيا ، تفليس ١٩٣٧ م ، (٧٩ صفحة) .

ـ من تاريخ الحركة الشّيوعيّة في الإسلام ، المجلّة العلميّة ١٩٢٣ ـ ١٩٢٤ م ، العدد الأوّل ، (٧٩ صفحة) .

ـ من التّاريخ الأوّلي لكنعان ، المحدّث الأرثوذكسي ، قازان ، ١٩١٤ م ، (٤٢ صفحة) .

ـ نقد كتاب : (تكريم القدّيسين في الإسلام من وجهة نظر اللاّهوت الأرثوذكسي) لمؤلّفه إيڤانوف ، مجلّة المحدّث الأرثوذكسي ، قازان ، عدد أيلول وتشرين الأوّل ، ١٩١٥ م ، (٤٨ صفحة) .

---

(١) كانت تصدر في القاهرة .

(٢) دراسة من تأليف بارتولد Barthold ، عضو أكاديميّة بطرسبورغ ، ترجمها الأُستاذ بندلي ونشرها في مجلّة (الرّابطة الشّرقيّة) .

وجاء وصف لبعض مؤلّفات الأُستاذ بندلي في مقال (لايبرمن) ، في مجال : مقالات عن التّاريخ القديم للكنيسة في الشّرق :

١ ـ إقليم بلاد العرب الكنائسي .

٢ ـ الحاميات الرّومانيّة في الإقليم العربي (حوران)[١] ، ترجمها عن الفرنسيّة ، ونشرت في مجلّة المحدّث الأرثوذكسي ، ١٩١٢ م .

٣ ـ ملاحظات الطّريق للحجّاج طلاّب أكاديميّة قازان الرّوحيّة ، رحلة إلى الشّرق الأدنى في صيف ١٩١٧ م ، قازان ١٩٠٩ م .

٤ ـ القبائل العربيّة في بلاد عبر القوقاز ومصيرهم فيما بعد ، لينينغراد ، ١٩٣٧/١٠/١٩ م .

ولما كان الأُستاذ بندلي مهتمّاً وشغوفاً بتاريخ أذربيجان ، فقد ترجم إلى الرّوسيّة معلومات من بلاد عبر القوقاز عامّة ، وأذربيجان خاصّة ، نقلاً عن كُتّاب العرب في العصر الوسيط ، منهم : البلاذري[٢] ، اليعقوبي[٣] ، الطّبري[٤] ، ابن مسكويه[٥] ، ابن الأثير[٦] ، ياقوت الْحَمَوي[٧] .

---

(١) حوران : هضبة جنوبي دمشق ، أطلق عليها الرّومان اسم (أورانتيس) ، تربتها بركانيّة خصبة ، اشتهرت بزراعة القمح ، سكنها الغساسنة قبل الإسلام ، مركزها اليوم مدينة درعا .

(٢) البلاذري (أحمد بن يحيى) : [ت ٢٧٩ هـ = ٨٩٢ م] له : فتوح البلدان ، وأنساب الأشراف ..

(٣) اليعقوبي (أحمد بن واضح) : [ت ٨٩٧ م] ، جغرافي مؤرّخ ، من كتبه : كتاب البلدان ، وتاريخ اليعقوبي .

(٤) الطّبري (محمّد بن جرير) : [ت ٣١٠ هـ = ٩٢٣ م] ، شيخ المؤرّخين العرب ، أهم كتبه : تاريخ الأمم والملوك .

(٥) ابن مسكويه (ت ١٠٣٠ م) له : تجارب الأمم وتعاقب الهمم .

(٦) ابن الأثير (علي بن محمد) : [ت ٦٣٠ هـ = ١٢٣٣ م] مؤرّخ ، من كتبه : الكامل في التّاريخ ، وأُسْد الغابة في معرفة الصّحابة .

(٧) ياقوت الحموي (ت ١٢٢٩ م) جغرافي مؤرّخ ، له : معجم البلدان ، ومعجم الأدباء ..

وعلاوة على ذلك ، كتب ثلاث مقالات هي :

١ ـ المتغلّبون الإقطاعيّون العرب في أذربيجان .

٢ ـ شيطان القبائل العربيّة في أذربيجان .

٣ ـ المزيديّة ـ الشّيبانيّة في أذربيجان .

وكتب أيضاً مقالاً باللّغة العربيّة بعنوان : من تاريخ أذربيجان .

ومن المخطوطات الّتي خلّفها الأُستاذ بندلي :

١ ـ ميديا والميديّون ، (١٢ صفحة) .

٢ ـ المتغلّبون في بلاد القوقاز ، (٥٣ صفحة) .

٣ ـ دولة عطاييكوف في أذربيجان ، تاريخ حياة إيلدانيز (أي شعب البحر) .

٤ ـ النّص العربي لرواية مجنون ليلى ، (ليلى والمجنون) ، (٣٥ صفحة) .

٥ ـ الموسوعات العربيّة ، وقواميس الموسوعات ، (٢٧ صفحة) .

٦ ـ ترجمة بعض أجزاء القاموس الجغرافي لياقوت الْحَموي ، الخاصّة ببلاد القوقاز ، وكان معهد التّاريخ لدى أكاديميّة العلوم الأذربيجانيّة يهيّئ ترجمة بعض مقتطفات من القاموس الجغرافي (معجم البُلْدان) لياقوت الحموي ، الخاصّة ببلاد عبر القوقاز ، مع التّعليقات عليها للأُستاذ بندلي .

☆ ☆ ☆

تقول ابنة الأُستاذ بندلي البكر ، أنستاسيا ، في إحدى رسائلها إلى ابن عمّها الأُستاذ نصري الجوزي : نَشَرَ والدي أكثر من مئتي بحث علمي في اللُّغتَيْن العربيّة والرُّوسيَّة ، كما أنَّ قسماً من مخطوطاته تبلغ ثلاث مئة ، محفوظة في (أرشيف) تاريخ العلوم لجمهوريّة أذربيجان .

أمّا مجلّة (الأديب) في عددها نيسان (إبريل) ١٩٦٨ م ، فتقول : يقدّر أصدقاء بندلي الجوزي مؤلّفاته باللُّغة الرُّوسيَّة بين مؤلّف ومترجم ستّة وعشرين مؤلّفاً ، وترك تسع مخطوطات بالرُّوسيّة ، ومخطوطتَيْن بالعربيّة .

مِنْ تَارِيخِ الحركاتِ الفكريّة في الإسلام :

نظراً لأهمّيّة هذا الكتاب ، الّذي ألّفه الدكتور بندلي في القدس ، وطُبع فيها سنة ١٩٢٨ م ، أعادت عدّة وجهات طبعه ، وهي :

١ ـ منشورات صلاح الدّين ـ القدس سنة ١٩٧٧ م ، وصفحاته ٢٣٧

٢ ـ سلسلة إحياء التّراث الثّقافي الفلسطيني ، الكتاب الرّابع ، الاتّحاد العام للكتّاب والصحفيّين الفلسطينيّين (الأمانة العامّة) ، ط٢ ، سنة ١٩٨١ ، وصفحاته ٢٣٧

٣ ـ دار الجليل[١] سنة ١٩٨٢ م .

٤ ـ دار الرّوائع ، بيروت (بلا تاريخ) ، وصفحاته ٢٣٧

٥ ـ ونشره الدكتور فوّاز صَيّاغ في دمشق ، شباط ١٩٧٢ ، آلة كاتبة : ٩١ صفحة .



مِنْ آراء الأُستاذ الجوزي المتميّزة[٢] :

ـ يقول الأُستاذ بندلي الجوزي ، صفحة ١١ : « إذا نحن عرفنا أنّ أوّل من وضع مبادئ علم التّاريخ وأساليب الانتقاد التّاريخي ، هم مؤرّخو الغرب ، كنيبور (Niebur) ، ورانكه (Ranke) ، وشلوسر (Schlosser) وغيرهم[٣] ، وأنّ هؤلاء المؤرّخين بنوا أحكامهم ونظريّاتهم على تاريخ الغرب وحده ، إذْ لم يكونوا يعرفون من تاريخ الشّرق إلاّ الشّيء اليسير ، سهل علينا والحال هذه أن ندرك مقدار ما في أقوال

---

(١) وهي الطّبعة المعتمدة في هذه الدّراسة .

(٢) حسب تسلسل ورودها على صفحات الطّبعة المعتمدة ، طبعة (دار الجليل) .

(٣) ألم يسبق هؤلاء الّذين في القرن الماضي وهذا القرن ، عبد الرّحمن بن خلدون المتوفّى سنة ١٤٠٦ م ، ولنا تعليق مفصّل على ذلك بعد صفحات .

بعض مؤرّخي الغرب عن الشّرق وتـاريخـه من الغرابـة والطّيش ، فهـل من طيش أكبر من أن يقول أحدهم : إنّه لم يكن ، ولن يكون للأمم الشّرقيّة تـاريخ بمعنى هـذه الكلمـة المعروف بين علماء أوربة ، وأنّ أسـاليب البحث التّـاريخي الّتي وضعهـا علمـاء الغرب ، لا يمكن أن تطبّق على تاريخ الشّرق ؛ وأيّـة غرابـة أو بـالأحرى أيّ جهل أعظم من أن يقال : إنّ العوامل المؤثّرة في تاريخ الأمم الأوربيّة ، والنّواميس العموميّـة الفـاعلـة في حيـاتهم الاجتماعيّـة ، هي غير العوامـل والنّـواميس العـاملـة في تـاريـخ الأمم الشّرقيّـة وحياتهم وثقافتهم .

لو صدرت هذه الأفكار الغريبة عن مؤرّخي الأجيال الوسطى ، أو لو صـدرت عن أناس عُرفوا بالتّعصّب الدّيني أو القومي ، والأغراض السّيـاسيّـة أو الاستعماريّـة ، لكان لهم في الجهل والتّعصّب عـذر ، أمّـا وقـد صـدرت ولا تزال أحيـانـاً تصـدر عن فئـة من العلماء ومؤرّخي العصر التّاسع عشر ، بل العشرين ، فأيّ عذر لهم ؟! » .

وقال في الصّفحة ١٢ وبدايـة الصّفحـة ١٣ ، بعـد أن أورد بعض آراء المؤرّخ شلوسر حول الـدّول الشّرقيّـة المشبعـة بروح الاستبـداد والسّلطـة الـدّينيّـة ، والّتي - كما يـدّعي شلوسر - تنفي تطوّر الموجودات ..

وبعد استغراب الأستاذ من هذه الآراء ، يقول : « .. وأشدّ من ذلـك في الغرابـة ، أن يقوم مؤرّخ آخر اشتهر بأبحاثه عن تاريخ الشّرق القديم ، وتـاريخ بـابل والبـابليّين على الأخصّ ، فيحاول أن يؤيّـد صحّـة هـذا الفكر العقيم ببراهين لا تقبلهـا اليوم طلبـة المدارس ، منها أنّ الشّعوب الشّرقيّة كانت تعتقد في أن ما يحدث في هذه الحياة الدّنيـا ، ليس هو إلاّ صورة منعكسة لما يحدث هناك في السّماء ، وأنّ حياة المجتمعـات الإنسـانيّـة يجب أن تنظّم وتجري طبقاً لحركات الكواكب السّماويّة ، ومعنى هذه العبـارة الغـامضـة أنّ هناك فرقاً بيّناً بين نفسيّـة الأمم الشّرقيّـة ، ونفسيّـة الأمم الغربيّـة ، يمكن أن يعبّر عنـه بـأنّ الشّعوب الشّرقيّـة لا تقـول بمبـدأ التّطـوّر والاستقرار اللّـذين همـا أسّ العلـوم الحـديثـة ، ولا تقيم لهما وزنـاً ، وأنّ الأحكام العـامّـة لا تُبنى عنـدهم على استنتـاجـات

منطقيّة مرتبط بعضها ببعض ، ومؤسّسة على فكر أو نظريّة عامّة سابقة لتلك المراقبات تتوقّف عليها جميع أعمالهم وأفكارهم .

هذا رأي بعض مؤرّخي الغرب وتاريخ الأُمم الشّرقيّة وعقليتهم ، فلا عجب والحال هذه إذا رأيناهم ينكرون على تاريخ الشّرق تطوّره ، ويحسبونه نتيجة سبب أو عامل واحد ترجع إليه حياة الأمم الشّرقيّة في جميع أدوارها ومظاهرها ، مما ينتج عنه أن ليس للأُمم المذكورة تاريخ بالمعنى العلمي المقصود من هذه الكلمة ، وهو ما قاله بعضهم كما أشرنا إلى ذلك سابقاً » .

ويتساءل الأُستاذ بندلي : فهل ياترى يصدق هذا الكلام على الأُمم الشّرقيّة الحديثة ، أو أُمم الأجيال المتوسّطة ؟ وهل حاول أحد المؤرّخين أن يطبّق النّظريّة المذكورة على التّاريخ الحديث ، كتاريخ الأُمم الإسلاميّة مثلاً ؟ نعم قد حاول بعض من تأثّر بأفكار شلوسر وفنكلر أن يدخل تحت هذا الحكم تاريخ القرون الوسطى للأُمم الشّرقيّة ، حتّى الحديثة منها ، ولا سيما تاريخ الإسلام ، وأشهر مَنْ أقدم على ذلك المستشرق الفرنساوي أرنست رينان[1] وذلك في بعض محاضراته .. مثل (الإسلام والتّرقّي) ، و (منزلة الأُمم السّاميّة بين سائر الأُمم) ، وإليك ما قاله في محاضرته الثّانية ، مما له علاقة بموضوعنا : « إن الإسلام يكره العلْم ويدعو إلى هدم المجتمع ، وإن هو إلاّ بساطة الرّوح السّامي المائلة الّتي تضغط على دماغ الإنسان ، وتسدُّ أمامه الطّرق المؤدّية إلى كلّ فكر حرّ ، وكلّ بحث علمي ، مستعيضة عن كلّ ذلك بتكرارها الممل : لا إله إلاّ الله » . فأنت ترى أنّه لم يبق بعد هذه العبارة إلا أن يقوم صاحبها ويقول لنا إنّ حياة الأُمم الشّرقيّة الإسلاميّة ترتكز على نواميس وعوامل غير الّتي ترتكز عليها حياة الأُمم الغربيّة ، وقد قاله فعلاً في تلك المحاضرة نفسها حيث جاء : « أنّه كان للشّعوب الآريّة من يوم عرفها التّاريخ مجلّة حقوق قديمة .. أمّا حياة العرب

---

(١) أرنست رينان Renan : [١٨٢٣ ـ ١٨٩٢ م] ، كاتب وعالم أثري فرنسي ، كان من أوّل المهتّمين بالتّنقيب في لبنان وفلسطين .

القديمة ، فإنّها كانت دائماً خاضعة لنواميس أُخرى » ، وقال في موضع آخر : « إنّ تطوّر الأُمم السّاميّة الدّيني كان يقوم دائماً على نواميس أُخرى ، وإنّ العربي أو المسلم على الإطلاق يبعد عنّا اليوم أكثر من ذي قبل ، فالمسلم والأُوربّي اليوم شخصان لا يجمعهما شيءٌ من أساليب التّفكير والشّعور ، كأنّهما عالَمَيْن مختلفَيْن » ، وقد كرّر رينان هذه الأفكار والعبارات في محاضرته الثّانية ، بل جاء بما هو أشدّ منهما ، ولكنّا نقتصر على ما ذكرناه ، تحاشياً للإطالة ، واعتقاداً منّا أنّه لو قُدّر لرينان ، ولمن أخذ عنه نظريّته المذكورة ، أن يعيشوا إلى هذا اليوم[1] ، ويروا بأعينهم آثار الحركة الفكريّة في البلاد العربيّة ، والشّرق على الإطلاق ، لَتبَرَّأ مما قاله من عقليّة الأُمم الشّرقيّة ونفسيّتهم ، ولهذا ، ولأنّ هذه النّظريّة أصبحت اليوم في خبر كان ، لا نرى فائدة في دحضها ، لأنّ الزّمان تولّى دحضها بنفسه ، ويكفينا هنا أن نقول إنّ مصدر هذه الأفكار العقيمة الفاسدة هو أوّلاً : قلّة معرفة أصحابها لتاريخ الأُمم الشّرقيّة ، وضعفهم في تحليل المواد التّاريخيّة الّتي كانت في أيديهم في ذلك الوقت تحليلاً علميّاً محضاً ، وثانياً : لأنّ الكَتَبَة المذكورين بنوا حكمهم على مستقبل الأُمم الشّرقيّة ، مستندين على حالتهم العمرانيّة والاجتماعيّة في الماضي القريب ، وهو حكم في نظر أهل المنطق فاسد ، وما مثلهم إلاّ كمثل عربي مسلم من أهل الجيل العاشر[2] أو الحادي عشر ، زار أُوربّة في ذلك العصر ، ورأى ما كان عليه سكّانها وقتئذٍ من الجهل والتّعصّب الدّيني والفقر ، فحكم عليهم بالجمود ، وقضى على مستقبلهم وقال : إنّه لن تكون لهم حياة اجتماعيّة بمعنى هذه الكلمة في عصرنا الحاضر »[3] .

ثمّ يقول الأُستاذ بندلي : « إلاّ أنّه يسرُّنا أن نجاهر بأنّ أكثر علماء تاريخ الشّرق المعروفين بترفّعهم عن الأغراض القوميّة أو السّياسيّة ، هم على غير رأْي شلوسر وفنكلر ورينان ، ومن حذا حذوهم من مؤرّخي الجيل السّابق ..

(١) يوم تأليف : (من تاريخ الحركات الفكريّة في الإسلام) ، سنة ١٩٢٨ م .
(٢) يستخدم الأُستاذ كلمة (الجيل) بدل كلمة (قرن) كثيراً .
(٣) من تاريخ الحركات الفكريّة في الإسلام ، ص : ١٤

وأهم من ذلك في نظري ، أنّ أكثر علماء أوربّة أصبحوا اليوم يجاهرون بأنّ لا تأثير للدّين على انحطاط العمران في البلاد الشّرقيّة ، وأنّ لهذا الانحطاط الوقتي أسباباً غير الدّين ، أهمّها مهاجرات وفتوحات الأمم المتوحّشة كالمغول والتّرك وغيرهم ، والحروب الصّليبيّة ، وبُعْدُ أكثر بلاد الشّرق عن مراكز الحضارة الجديدة ، وتحوُّل طرق التّجارة ، إلى غير ذلك من الأسباب الّتي يعلمها اليوم طلبة المدارس الوسطى ، والّتي أشرنا إلى بعضها في مقالة نشرناها في اللّغة الرّوسيّة ، قبل ثلاثين سنة تحت عنوان : الإسلام والعِلْم .

ينتج مما ذكرنا ، أنّ تاريخ الشّرق وحياته الاجتماعيّة ، وعقليّة شعوبه على الإطلاق ، والشّعوب الإسلاميّة على الأخصّ ، تخضع لنفس النّواميس والعوامل الّتي تخضع لها حياة وتاريخ الأمم الغربيّة ، وأنّ أمم الشّرق قطعت في حياتها الطّويلة ، وستقطع ذات المراحل ، أو الأدوار الاجتماعيّة الّتي قطعتها الأمم الغربيّة ، فلا فرق إذن من هذا الوجه بين الشّرق والغرب ، ولا تفوّق طبيعي لأحدهما على الآخر ، وهذا بعض ما نحاول أن نبيّنه في كتابنا هذا ، فإن وفّقنا كان ذلك من حسن حظّنا ، وإلاّ فما على المرء إلاّ أن يسعى » .

يقول الأُستاذ بندلي في الصّفحة ٣٥ ، بعد أن عرض جانباً من حياة النّبي العربي الكريم صلّى الله عليه وآله وسلّم : « وأنتَ ترى أنّه لا صحّة لتلك الأحاديث الّتي تصوّره بغير صورته الحقيقيّة ، ولتلك المساعي الّتي بدت في بعض كتب ظهرت حديثاً في روسية وأوربّة الغربيّة ، وهي تحاول أن تجعل من النّبيّ العربيّ رجلاً مثريّاً ، قام للمدافعة عن حقوق أصحاب الثروة والسّلطة في بلاده ومصالحهم الماليّة .. لا نستطيع أن نحشر المصلح المكّي[١] بين الاشتراكيّين أو الشّيوعيّين ، أو أن نقول إنّ دعوته كانت ترمي إلى أغراض اشتراكيّة أو شيوعيّة محضة ، كما خيّل لبعض كتبة الغرب[٢] ، ولكنّنا

(١) يعني الرّسول العربي محمّد بن عبد الله صلّى الله عليه وآله وسلّم .

(٢) أورد الأُستاذ بندلي مثالاً في هامش الصّفحة ٣٥ : انظر كتاب :

M. Grimme : (محمّد) [Ch. I Munster 1892]

نعتقد إنّ للعوامل الاجتماعيّة ـ الّتي قلّما تظهر في الشّرق الأدنى السّامي غير محتجبة بحجاب من الدّين كثيف ـ تأثيراً قويّاً على دعوته ، وإنّهُ وقف في جانب الفقراء والصّعاليك المظلومين ، وقفة رجل مغامر في الحياة ، ودافع جهاراً عن المصالح الحيويّة معرّضاً نفسه للخطر ، وغير مبالٍ بعواقب عمله ، مدفوعاً بعوامل أدبيّة ودينيّة أكثر منه بعوامل اقتصاديّة أو ماليّة » .

« كان سلاح النّبيّ في هذه الحرب الأهلّيّة الّتي أصلى نارها بنفسه .. وما هو السّلاح إلاّ كلمة الإخلاص يدعو بها ويحذّر ويستعطف ويسترحم ، ثمّ يوعد ويهدّد ، لا يخاف في القول لومة لائم ، ويقول الحقّ حتّى على نفسه ، وأقرب النّاس إليه[1] ، وهذا عمّه أبو لهب[2] الّذي برز لمناوأته وراح يفسد عليه عمله ، ويؤلّب النّاس عليه ، فإنّه يلعنه ويلعن امرأته ويوعدهما[3] (بنار ذات لهب) ، تقوم على إيقادها امرأته و ﴿ في جيدِها حَبْلٌ مِن مَسَدٍ ﴾ ، حيث (لا يغني عنه ماله وما كسب) .

وهكذا أحد عظماء مكّة وأغنيائها المغيرة بن الوليد[4] الّذي تعرّض للنّبيّ وأخذ يعاكسه في مهمّته الكبرى ، فإنّ النّبيّ لم يخشَ بأسه وقوّة ثروته ، بل دعاه في وجهه (همزة لمزة)[5] ، وأوعده بمحلٍّ خالدٍ في الْحُطَمَة[6] ، حيث لا ينفعه ماله (الّذي جمعه وعدّده)[7] ، إلى غير ذلك من أدلّة الجرأة الرّوحيّة والاستخفاف بالأخطار والأقوال الّتي

(١) في الهامش : (انظر سورة ٢٨ : ٢ و ٨١ : ٢٢ وغيرها) ، وهذه الآيات لا علاقة لها بالموضوع أعلاه .

(٢) أبو لهب : عبد العزّى بن عبد المطّلب بن هاشم [ت ٢ هـ = ٦٢٤ م] مات بعد وقعة بدر بأيّام ولم يشهدها .

(٣) توعدهما القرآن الكريم ، ولم يتوعدهما رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم .

(٤) صوابه : الوليد بن المغيرة [١ هـ = ٦٢٢ م] : يقال له (العَدْل) ، لأنّه كان عدل قريش كلّها ، وهو والد خالد بن الوليد ، (الأعلام ٨/١٢٢) .

(٥) الهَمَزة الّذي يَهْمِزُ أخاه في قفاه من خَلْفه ، واللّمْزُ في الاستقبال ، أي يغتاب النّاس ، (اللّسان : همز) .

(٦) الحطمة : نارٌ حطمة : شديدة ، والحطمة : اسم من أسماء النّار ، (اللّسان : حطم) .

(٧) العَدُّ : إحصاءُ الشّيء ، عدّه يَعُدُّه عدّاً وتعداداً وعَدَّةً وعَدَّدَه ، (اللّسان : عدد) .

لم يعتدها سادات مكّة وأغنياؤها ، وأعظم من ذلك في الجرأة والتّأثير ، كلمات كان يوجّهها إلى تجّار مكّة ، وينسب فيها إليهم الجشع[1] والتّهافت على حطام هذه الدّنيا والتّكالب على جمع المال بمختلف الوسائل ، ويتّهمه بها بأكل مال اليتامى والقصّر والمساكين والغش في الوزن والكيل (المطفّفون[2] ١ ـ ٣ ، والفجر[3] ٢٠) ، إلى غير ذلك من الصّفات الممقوتة الّتي لم تخلُ منها طبقة التّجّار والمرابين عصراً من العصور الغابرة ، والّتي هي أهمّ مصادر ثروتهم » .

وفي الصّفحة ٤١ ، يقول الأستاذ بندلي : « وأصبحت البلاد العربيّة[4] بعد ثماني سنوات مضت على هجرته ، تأتمر بأمره[5] ، وتنزل في كلّ شيء عند حكمه ، فصار من السّهل عليه أن يقوم بوعوده ، ويحقّق ما كان يدعو إليه في مكّة ، من الإصلاح الاجتماعي ويحلم به منذ سنوات من المبادئ السّامية ، كالعدل والإخاء ، وتحرير المرأة والأرقّاء ، ومحاربة أسباب الشّقاء والفقر بين أبناء بلدته ، بل في سائر البلدان العربيّة .

لو ألقينا الآن نظرة إلى الوراء ، وبحثنا عما تمّ على يد النّبيّ الأمّي من الإصلاح ، لما استطعنا أن ننكر أنّه قام بأكثر وعوده ، وحقّق قسماً كبيراً من أمانيه ، ولو قدّر له أن يعيش أكثر مما عاش ، لكان الإصلاح الّذي أدخله على حياة الأمّة العربيّة أتمّ وأوسع ، ومع ذلك فإنّ ما عمله في هذه السّنين القليلة الّتي قضاها في المدينة بين الحروب والمنافسات الشّخصيّة والدّسائس والحسد والمكر والنّفاق والمنافقين ، لهو شيء عظيم لا ينكره إلاّ كلّ مكابر عنيد ، أو متعصّب أعمى ، فمن الإصلاحات الّتي أدخلها على

---

(١) الجشع : أسوأ الحرص ، ورجل جشعٌ بشع : يجمع جزعاً وحرصاً وخبث نفس . (اللّسان : جشع) .

(٢) ﴿ وَيْلٌ للمطفّفين ، الّذين إذا اكتالوا على النّاس يستوفون ، وإذا كالوهم أو وزنوهم يُخسرون ﴾ .

(٣) ﴿ وتأكلون التّراث أكلاً لمّاً ، وتحبّون المال حبّاً جمّاً ﴾ .

(٤) الأصحّ هنا : « وأصبحت معظم أجزاء الجزيرة العربيّة » .

(٥) الضّمير هنا عائد لرسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم .

حياة الأُمّة العربيّة ، وجعلها مبدأ من مبادئها ، هو هدمه للعصبيّة الجاهليّة ، ومحاولته توثيق عرى المحبّة والمساواة والإخاء ، ولو بين المسلمين فقط[1] ، على أُسس جديدة هي المبادئ الأدبيّة المبنيّة على العقائد الدّينيّة ، ثمّ تحسين حال الفقراء (الصُّفّة)[2] أوّلاً ، ثمّ بالزّكاة وهي تلك الضّريبة الّتي وضعها المصلح العربي على أُولي الثّروة واليسار لمنفعة الفقراء والصّعاليك .. » .

ويقول الأُستاذ بندلي في الصّفحة ٤٣ : « فالزّكاة ضريبة محدودة لا يقصد منها نزع الثّروة من أصحابها وتوزيعها على المحتاجين بالمساواة ، ولا بلوغ المساواة في أسباب المعيشة كما قد يتوهّم البعض[3] ، وعندي أنّ غيرها من الإصلاحات الّتي جاء بها النّبيُّ كتحسين حالة المرأة ، ومنع الرّبا ، وسنّ بعض قوانين تتعلّق بالرّقّ[4] مهما كانت

(١) المحبّة والمساواة والإخاء مبادئ عالميّة في الإسلام ، تشمل النّاس جميعاً على اختلاف أديانهم وأجناسهم ، جاء في القرآن الكريم : ﴿ وما أرسلناكَ إلاّ كافّةً للنّاسِ بشيراً ونذيراً ﴾ ، [سبأ : ٢٨] ، ﴿ تبارَكَ الّذي نزّل الفرقانَ على عَبْدِهِ ليكونَ للعالمينَ نذيراً ﴾ ، [الفرقان : ١] .

(٢) قال ابن سعد في الطّبقات الكبرى : ٢٥٥/١ : « كان أهل الصُّفّة ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ ، لا منازل لهم ، فكانوا ينامون على عهد رسول الله ﷺ في المسجد ويظلّون فيه مالهم مأوى غيره » ، وقال واثلة بن الأسقع : « رأيتُ ثلاثين رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ يصلّون خلف رسول الله ﷺ في الأُزُر ، أنا منهم » ، والأُزُرُ جمع الإزار ، وهو الرّداء الّذي يغطّي وسط الإنسان حتّى ركبتَيْه ، وفي [اللّسان : صفف] : الصُّفّة من البنيان شبه البَهْو الواسع الطّويل السّمْك ، وفي الحديث : ذكر أهل الصُّفّة ، قال : هم فقراء المهاجرين ومن لم يكن له منهم منزل يسكنه ، فكانوا يأوون إلى موضع مُظلّل في مسجد المدينة يسكنونه ، وفي الحديث : « مات رجلٌ من أهل الصُّفّة ؛ هو موضع مظلّل من المسجد كان يأوي إليه المساكين » .

(٣) لا يقف الإسلام عاجزاً أمام مشكلة تضخّم الأموال في يد فئة قليلة من النّاس ، وبقاء المجموع في حال من الشّظف والحرمان ، فهذا مخالف لمبادئه الصّريحة الّتي تحتّم توزيع المال بين الجميع : ﴿ كيلا يكونَ دُولَةً بينَ الأغنياءِ منكُم ﴾ ، [الحشر : ٧] ، على أن مجموعة الأنظمة الإسلاميّة في ذاتها تمنع ابتداء مثل هذا التّضخّم ، فنظام الإرث يُفتّت الثّروة على رأس كلّ جيل ، ويتبع نظام الزّكاة نظامَ التّكافل ، قال رسول الله ﷺ - كما أورد التّرمذي -: « إنّ في المال حقّاً سوى الزّكاة » ..

(٤) وجعل الأُستاذ بندلي في هامش الصّفحة ٤٣ إشارة إلى مرجع : انظر عن الرّقّ في الإسلام كتاب :
B. Roberts, Das Familien-Sklaven und Erbrecht im Qoran, Leipzig 1908

أسبابه[1] .. ومنع أو بالأحرى حصر حقّ الإثآر (الإسراء ٣٣)[2] ، وهو أعظم آفات نظام الأُمّة العربيَّة في الجاهليَّة ، ثمَّ منع الوأْد عند بعض القبائل المتوحّشة (٨١ : ٨ ، ٦ : ١٥٣ ، ١٧ : ٣٣)[3] ، ووضع شرائع اجتماعيَّة أُخرى راقية ، ليس بأقلّ خطورة من الزَّكاة ، إذا حكمنا على ذلك بنظر ذلك العصر ، وقابلنا هذه السُّنن الجديدة بما يحاكيها من شرائع روميَّة والقسطنطينيَّة والمدائن[4] ، ناهيك عن شرائع الأُمم الشَّرقيَّة المجاورة لجزيرة العرب ، أو البعيدة عنها .. » .



---

(١) وهنا أيضاً لا علاقة لها بإلغاء الرّق ، وصوابه : المائدة ٨٩ : ﴿ أو تحريرُ رَقَبةٍ ﴾ ، المجادلة : ٣ ﴿ .. فتحريرُ رقبةٍ من قبْلِ أنْ يتماسّا ﴾ ، النّساء ٩٢ : ﴿ .. وتحريرُ رقبةٍ مؤمنةٍ ﴾ ، التّوبة ٦٠ : ﴿ .. وفي الرّقابِ ﴾ .

(٢) الإسراء ٣٣ : ﴿ ولا تقتلوا النّفسَ الّتي حرّمَ اللهُ إلاّ بالحقّ ومَن قُتِلَ مَظلوماً فقد جَعلنا لوليِّهِ سُلطاناً فلا يُسرِف في القتْلِ إنّهُ كانَ منصوراً ﴾ .

(٣) التّكوير ٨ و ٩ : ﴿ وَإذا الموءودة سُئِلَت ، بأيِّ ذنبٍ قُتِلَت ﴾ ، والأنعام ١٥١ : ﴿ .. ولا تقتلُوا أولادكم من إملاقٍ نحنُ نرزقكُم وإيّاهُم ﴾ ، أما ٣٣/١٧ ، فهي الآية السّابقة في الحاشية (٤) .

(٤) روما : عاصمة الدّولة الرّومانيّة ، عاصمة إيطاليا حالياً ، والقسطنطينيّة : عاصمة الدّولة البيزنطيّة (الرّومانيّة الشّرقيّة) ، وهي اسطنبول اليوم ، على مضيق البوسفور ، والمدائن : عاصمة الإمبراطوريّة الفارسيّة ، قرب موقع بغداد حالياً ، وهي (طيسفون) .

مَصَادِرُ

(مِنْ تاريخِ الحركاتِ الفكريَّةِ في الإسلامِ) ونَقْدُها

كتـاب (من تـاريخ الحركات الفكريَّـة في الإسلام) يتكوَّن من مقـدِّمـة وخمسـة فصول وخاتمة ، والمقدِّمة[1] [من الصَّفحـة ١١ وإلى الصَّفحـة ١٦] ، عنوانها : (وحـدة النَّواميس الاجتماعيَّة) .

والفصـل الأوَّل : [من الصَّفحـة ١٧ ، وحتَّى الصَّفحة ٥٣] ، وعنـوانـه : (أُسس الإسلام الاقتصاديَّة) .

والفصـــل الثَّـــاني : [من الصَّفحـــة ٥٤ ، وحتَّى الصَّفحـــة ٧٧] ، وعنـــوانـــه : (الإمبراطوريَّة العربيَّة والأُمم المغلوبَة) .

والفصل الثَّالث : [من الصَّفحة ٧٨ ، وحتَّى الصَّفحة ١١٦] ، وعنوانه : (حركـة بَابَك وتعاليمه الاشتراكيَّة) .

والفصـل الرَّابـع : [من الصَّفحـــة ١١٧ ، وحتَّى الصَّفحـــة ١٥٨] ، وعنـــوانـــه : (الإسماعيليَّة) .

والفصـل الخـامس : [من الصَّفحـــة ١٥٩ ، وحتَّى الصَّفحـــة ٢١٧] ، وعنـوانـه : (القرامطة) .

---

(١) وفي الطَّبعة الَّتي اعتمدت في هذه الدِّراسة (طبعة دار الجليل ـ الطَّبعة الثَّالثة ، سنـة ١٩٨٢) ، مقدِّمـة من الصَّفحـة ١ ، وحتَّى الصَّفحة ١٠ ، بقلم الدكتور حسين مروة ، تحت عنوان : (هكـذا نقرأُ بنـدلي الجوزي) .

وخاتمة من الصَّفحة ٢١٨ ، وحتَّى الصَّفحة ٢٣٧ ، ولا عنوان لها .

ثمَّ فهرس الكتاب في صفحة واحدة (الصَّفحة ٢٣٨) .

الفصل الأوَّل : أُسُسُ الإسلام الاقتصاديَّة :

اعتمد الدكتور بندلي في هذا الفصل على دراسات المستشرقين ، وبشكل كامل ، فهو في هذا الفصل ، لم يورد اسم مؤرِّخ عربي مسلم واحد ، والمستشرقون الَّذين اعتمد الأُستاذ بندلي آراءَهم ودراساتهم ، هم :

فلهاوزن Wellhausen ، وكايتاني Caetani ، ولامانس : Lammens ، ونولدكه Noldeke ، وبارتولد Barthold ، كما في الصَّفحة ١٧

وكرَّر كايتاني في الصَّفحة ١٨ ،

ودائرة المعارف الإسلاميَّة في الصَّفحة ٢٠

وعاد إلى لامانس في الصَّفحات : ٢٢ و٢٣ و٢٥ و٤٥ و٤٨

وإميل كُوهْن Emil Cohn ، في الصَّفحة ٢٥

وفي الصَّفحة (٣٥) اعتمد M. Grimme في كتابه (محمَّد ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ) ، الجزء الأوَّل Munster ـ ١٨٩٢

وفي الصَّفحة (٤٣) اعتمد B. Roberts في كتابه :

Das Familien - Sklaven und Erbrecht in Qoran, Leipzig 1908

هذه هي مصادر الفصل الأوَّل ، أمَّا :

الفصل الثَّاني : الإمبراطوريَّة العربيَّة والأُمم المغلوبَة :

فمن مصادر الأُستاذ بندلي :

لامــانس في الصّفحــة ٥٧ ، ومــولر Muller في الصّفحــة ٥٩ ، ومــولر بيكر Müller Backer في الصّفحة ٦٣ ، وكولدسيهر Goldziher في الصّفحة ٦٧

وفي الصّفحـة ٦٤ جـاء في الحـاشيـة : « انظر عن المرجئـة كتـابَيْ الملـل والنِّحـل للشّهرستاني ، وابن حزم ، ومقالة في مجلّة Assyriologic ، مج ١٦٩ » .

وفي حاشية الصّفحة ٧٧ جاء حرفيّاً : « اقرأ عن هؤلاء المتغلّبين تـاريخَ اليعقوبي ، وهو أعرف المؤرّخين بهم وبتلك البلاد » .

الفصل الثّالث : حركةُ بابَك وتعاليمُهُ الاشتراكيّة :

اعتمد الأُستاذ بندلي في هذا الفصل على :

ثيوفانس Théophane ، وميخائيل السّرياني ، وفاسيليف في الصّفحة ٨٠

وثيوفـانس وجيسينوس Gesenios ، وأبي الفرج ابن العبري[1] في الصّفحـة ٨١ ، ثمّ عاد إلى Gesenios ثانية في الصّفحة ٨٢

وفي الصّفحـة ١٨٧ اعتمـد Weil في كتـابــه (تــاريـخ الخلفــاء) ، وفي حــاشيــة الصّفحة ٩٣ : انظر

Grundrissd, iranische philologic, B. 11, s, 558

وفي حـاشيـة الصّفحـة ٩٥ : انظر عن حـالـة الفـلاح في أيّـام بني سـاسـان كتـاب الأُستاذ :

Ar. Christensen: Lémpire des Sasanides.

وكرّر العودة إليه في الصّفحات : ٩٦ و ٩٩ و ١٠٢

---

(١) في هـامش الكتـاب : انظر : أبـا الفَرّج وابن العبري .. خطـأ ففريغوريوس بن العبري ، هو أبو الفَرّج نفسه .

أمّا في الصَّفحة ٩٦ فقد اعتمد مولر Müller ، وفي الصَّفحة ١١٥ اعتمد بارتولد .

والأُستاذ بندلي أشار إلى :

كتاب المسعودي (التّنبيه والإشراف)[1] في الصَّفحتَيْن : ٧٩ ، و ١٠٨ ، وإلى مروج الذَّهب الصَّفحة ١١٣

وإلى (الكامل في التّاريخ) لابن الأثير في الصَّفحتَيْن : ٨٠ ، و ١٢٤

وإلى تاريخ اليعقوبي في الصَّفحات : ٨٣ ، و ٨٥ ، و ٨٦ ، و ٨٨

وإلى كتاب البغدادي (الفَرْق بين الفِرَق) ، في الصَّفحات : ٨٣ ، و ٨٩ ، و ٩٠ ، و ٩٢ ، و ٩٩ ، و ١١٦ ، و ١٢١ ، و ١٢٢ ، و ١٣٠

وأحال إلى الطَّبري ، في الصَّفحات : ٨٩ ، و ٩٠ ، و ١٠٩ ، و ١١١

وأشار إلى (الأخبار الطِّوال) للدّينوري ، وفي الصَّفحة ٨٧ ، وإلى (معجم البلدان) ، في الصَّفحات : ٩٣ و ٩٤ و ١٠٨ ، وإلى (البدء والتّاريخ) لمطهر بن طاهر المقدسي في الصَّفحات : ٩١ و ١٠٠ و ١٠١ و ١٠٥ و ١٠٦ و ١١٣

وأحال مرّة إلى الملل والنِّحل في الصَّفحة ٩٩ ، وإلى رسالة الجاحظ (في محاسن الأتراك) في الصَّفحة ١١٨

الفصل الرّابع : الإسماعيليّة :

اعتمد الأُستاذ بندلي في هذا الفصل على : دوزي Dozy في الصَّفحة ١٢٠ ، وعلى المستشرق الهولندي دي خويه DeGoije في الصَّفحات : ١٢٢ و ١٣٢ و ١٣٧ و ١٣٩ ، وفي الصَّفحة ١٢٥ : Encyl, Musulmane, livr, P.812 ، وماسينيون Massignon في الصَّفحة ١٢٨ و ١٥٠ ، والموسوعة الإسلاميّة في الصَّفحة ١٤٠ و ١٤٣

---

(١) هي في حاشية الكتاب (التّنبيه والإشراق) خطأ .

وأشار إلى (الفَرْق بين الفِرَق) في الصَّفحات : ١٣٣ و ١٣٨ و ١٤٨ و ١٥٦ . وإلى (مختصر تاريخ آل سلجوق) لعماد الدِّين الأصفهاني في الصَّفحة ١٣٦ و ١٥٦ ، وإلى الملل والنِّحل ، و (الغزالي ؟!) في الصَّفحة ١٤٠ ، وإلى ابن بطوطة في الصَّفحة ١٥٤

الفصل الخامس : القَرَامِطَةُ :

اعتمد الأُستاذ بندلي في هذا الفصل على : دي خويه في الصَّفحات : ١٦٠ و ١٧٥ و ١٧٧ و ١٨٠ و ١٨٤ و ٢٠٥ و ٢٠٦ و ٢١٠ و ٢١٥ و ٢١٦ . وعلى بارتولد (عضو أكاديميَّة بطرسبورغ) مرَّة واحدة ، في الصَّفحة ١٦٧

وأشار إلى (تاريخ آل سلجوق) في الصَّفحة ١٧٧ ، وإلى ابن الأثير ، في الصَّفحتَيْن : ١٠٨ و ٢٠٦ . وإلى المسعودي (التَّنبيه والإشراف) في الصَّفحة ١٨٧ ، وإلى (تاريخ الوزراء) لابن طباطبا في الصَّفحة ١٨٧ ، وإلى (تحفة الأُمراء في تاريخ الوزراء) لهلال الصَّابئ ، في الصَّفحة ١٨٧ ، وإلى الفَرْق بين الفِرَق في الصَّفحات : ١٨٨ و ٢٠٨ و ٢٠٩ ، وإلى (فهرست) ابن النَّديم في الصَّفحة ٢١٣ ، وأشار إلى (سفرنامه) لناصر خسرو في الصَّفحات : ١٩٣ و ١٩٤ و ١٩٨ و ١٩٩ و ٢٠٠ و ٢٠٢ و ٢٠٦ و ٢٠٩ و ٢١٠ و ٢١٤

الخاتمة :

اعتمد الأُستاذ بندلي فيها على فون بوير Von Boer ـ أحد المشتغلين بالفلسفة الإسلاميَّة ـ في الصَّفحة ٢٢٢ ، وعلى الموسوعة الإسلاميَّة في الصَّفحتَيْن ٢٢٣ و ٢٢٩ ، وعلى جولدتسيهر في الصَّفحة ٢٣٢ ، وبرون Brawne في الصَّفحة ٢٣٢ و ٢٣٦ ، ودائرة المعارف الرُّوسيَّة في الصَّفحة ٢٣٤ ، ومولر في الصَّفحة ٢٣٦

وأشار إلى ابن بطوطة في الصَّفحة ٢٢٥ ، وإلى كتاب رئيس فرع الآداب في جامعة اسطنبول الأُستاذ كوبريلي زادة محمد فؤاد ، تحت عنوان : إيلك متصوفلر ، في الصَّفحتَيْن : ٢٢٥ و ٢٢٨

لقد كان من المفروض ، بناء على المنهج العلمي في البحث والدّراسة ، بدل الاعتماد على مؤلّفات المستشرقين الّذين سبقوا الأُستاذ بندلي ، العودة إلى المصادر العربيّة الأصيلة ، الّتي أشار إليها بشكل ثانوي عابر ، يقرؤها قراءة تفصيليّة وشاملة ، ويتمثّل مادّتها تمثّلاً سلياً كاملاً ، وهذه هي الطّريق الوحيدة الصّحيحة ، لا الطّريق الوحيدة الممكنة .

الطّريق الوحيدة الصّحيحة ، اعتماد المصادر العربيّة الأصيلة منهلاً وعموداً فقريّاً في البحث ، والإشارة إلى دراسات المستشرقين ، للنّقد والتّصويب ، لا العكس .

وبنظرة سريعة إلى تراجم أهمّ المستشرقين الّذين اعتمدهم الأُستاذ بندلي ، نلمس تحيُّزَهم وبُعْدَ غالبيَّتهم عن الحقيقة ، كما قال الأُستاذ نفسه في المقدّمة عن عددٍ من المستشرقين : « وإنَّ هؤلاء المؤرِّخين بَنَوْا أحكامهم ونظرياتهم على تاريخ الغرب وحده ، إذا لم يكونوا يعرفون من تاريخ الشّرق إلاّ الشّيء اليسير ، سهل علينا والحالة هذه أن ندرك مقدار ما في أقوال بعض مؤرّخي الغرب عن الشّرق وتاريخه من الغرابة والطّيش .. » .

مَنْ هُم أهَمُّ هؤلاءِ المستشرقين الّذين اعتمدهم الأُستاذ بندلي ؟

ليون كيتاني : Leone Caetani : [١٨٦٩ ـ ١٩٢٦ م] : مستشرق إيطالي مؤرّخ ، من أهل رومة مولداً ووفاة ، تعلّم في جامعتها ، وقام برحلات إلى الشّرق ، ولا سيّما الهند وإيران ومصر والشّام ، وجمع مكتبة عربيّة عظيمة جعلها بعد وفاته للمكتبة الإيطاليّة ، وكان يحسن سبع لغات منها العربيّة والفارسيّة .

ألّف بالإيطاليّة كتاب : (تاريخ الإسلام : Ans elli dell Islam) ، طبع منه سنة ١٩٠٥ ـ ١٩٠٨ م ثمانية مجلّدات ضخمة ، محلاّة بالرّسوم والخرائط المفصّلة ، انتهى فيها إلى سنة ٤٠ هجريّة ، وكان يرجو أن يُفْسَحَ في أجله ، ليكمل القرن الأوّل للإسلام في ٢٥ مجلّداً[١] .

---

(١) المستشرقون ، نجيب عقيقي : ٤٢٩/١

يوليوس فلهاوزن : Wellhausen : [١٨٤٤ ـ ١٩١٨ م] : عالم ألماني برز في ميدان الدّراسات المتعلّقة بالكتاب المقدّس بقسمَيْه القديم والجديد ، وباحث في ميدان التّاريخ العربي ، درس اللاّهوت في جوتينجن ، وفي هذه المدينة نفسها بدأ حياته الأكاديميّة سنة ١٨٧٠ م مدرّساً في ميدان تاريخ العهد القديم ، وفي سنة ١٨٧٢ م صار أُستاذاً للاّهوت في جامعة جرايفستالد ، ولكنه استقال من هذه الوظيفة في سنة ١٨٨٢ م بعد عشر سنين من البحث والتّفكير في العهد القديم ، تبيّن له في أثنائها أنّه لا يستطيع فيما بينه وبين ضميره ، أن يظلّ متمسّكاً بفكرة أنّ الكتاب المقدّس وحيٌ إلهي ، بل كتبه النّاس ، فصار أُستاذاً للّغات الشّرقيّة في مدينة هالّه ، ثمّ انتقل في سنة ١٨٨٥ م إلى جامعة ماربورغ ، وفي سنة ١٨٩٢ م انتقل إلى جامعة جوتينجن .

من كتبه : (بقايا الوثنيّة العربيّة) ، وترجم كتاب (المغازي) للواقدي بعنوان (محمّد في المدينة) ، ونشر بعض أشعار الهذليّين ، واهتمّ بتاريخ الدّولة العربيّة ، فأثمر اجتهاده (تاريخ الدّولة العربيّة) ، وهو يسرف في تحرّره كما يسرف في تطبيق تصوّره الشّخصي ، ويعزو إلى مصادر بشكلٍ خاطئٍ ، وجرى أحياناً وراء الخيال ، أو عمد إلى التّهويل ، والأساليب المنمّقة .

فهل يُعتمد فلهاوزن ، عندما ندرس تاريخ الإسلام وحركاته الفكريّة ؟!؟

لامَانْس : Henri Lammens : [١٨٦٢ ـ ١٩٣٧ م] : مستشرق بلجيكي ، وراهب يسوعي شديد التّعصّب ضدّ الإسلام ، يفتقر افتقاراً تامّاً إلى النّزاهة في البحث ، والأمانة في نقل النّصوص وفهمها ، ويُعَدُّ نموذجاً سيّئاً جدّاً للباحثين في الإسلام من بين المستشرقين[١] .

---

(١) انظر لترجمة هؤلاء المستشرقين : (موسوعة المستشرقين ، د . عبد الرّحمن بدوي ، دار العلم للملايين ، بيروت ـ ١٩٨٤ ، و (المستشرقون) ، نجيب عقيقي ، طبعة دار المعارف ، الطّبعة الرّابعة ١٩٨٠ م .

ولد في مدينة خِنْت Gent في بلجيكا ، وجاء إلى بيروت في صباه ، وتعلَّم في الكلِّيَّة اليسوعيَّة ببيروت ، وبدأ حياة الرَّهبنة في سنة ١٨٧٨ م ، وفي سنة ١٨٨٦ م صار معلِّماً في الكلِّيَّة اليسوعيَّة ببيروت ، ولما أُسِّس معهد الدِّراسات الشَّرقيَّة ضمن كلِّيَّة اليسوعيِّين سنة ١٩٠٧ م ، صار فيه أُستاذاً للتَّاريخ الإسلامي ، ولما توفِّي لويس شيخو سنة ١٩٢٧ م خلفه الأب لامانس على إدارة مجلَّة الشَّرق .

وإنتاج لامانس يدور حول موضوعَيْن رئيسيَّيْن :

١ ـ السِّيرة النَّبويَّة ، فكتب : مَهْد الإسلام سنة ١٩١٤ م ، ومكَّة عشيَّة الهجرة ١٩٢٤ م ، ومدينة الطَّائف العربيَّة عشيَّة الهجرة سنة ١٩٢٢ م ، وغربي الجزيرة العربيَّة قبل الهجرة ١٩٢٨ م ، والمعابد قبل الإسلام في غرب الجزيرة العربيَّة ، وهو في هذه الكتب الخمسة : إنَّما يلخِّص أبحاث المستشرقين وعلماء الآثار والجغرافية في هذه الموضوعات ، وليس له فيها أيُّ إسهام أصيل .

القرآن والسُّنَّة كيف أُلِّفت حياة محمَّد ، باريس ١٩١٠ م ، هل كان محمَّد أميناً ؟ باريس ١٩١١ م ، فاطمة وبنات محمَّد ، رومة ١٩١٢ م ، الحكومة الثُّلاثيَّة من أبي بكر وعمر وأبي عبيدة ، بيروت ١٩٠٩ م ، وفي هذه الكتب الخمسة تحامل لامانس على السِّيرة النَّبويَّة تحاملاً شديداً ، وأبشع ما فعله ، هو أنَّه كان يشير في الهوامش إلى مراجع بصفحاتها إشارات إلى كتب أحال إليها غير موجودة إطلاقاً ، أو كان يفهم النَّصَّ فهماً ملتوياً خبيثاً ، أو يستخرج إلزامات بتعسُّف شديد ، يدلُّ على فساد الذِّهن ، وخبث النِّيَّة ، ولهذا لا يعتمد القارئ على إشاراته إلى مراجع ، لأنَّ معظمها تمويه وكذب وتعسُّف في فهم النَّص ، ولا يُعْرَف باحث من بين المستشرقين المحدثين قد بلغ هذه المرتبة من التَّضليل وفساد النِّيَّة .

٢ ـ بداية الخلافة الأُمويَّة : وعلى نحو مشابه ، درس لامانس صدر الخلافة الأُمويَّة ، فصنَّف الكتب التَّالية : دراسات عن حكم الخليفة الأُموي معاوية ، بيروت

١٩٠٧ م ، خلافة يزيد الأوّل ، بيروت ١٩٢١ م ، زياد بن أبيه والي العراق ونائب معاوية الأوّل ، معاوية الثّاني (أو آخر السُّفيانيين) ، دراسات عن عصر الأُمويّين ، مجيء المروانيّين وخلافة مروان الأوّل ، وفي هذه الدّراسات بالغ لامانس في تمجيد الأُمويّين بدافع من الحقد الشّديد على الإسلام .

يقول بيكر الألماني[1] : « لامانس يلوّن شخصيّاته الّتي يتكلّم عنها جزءاً جزءاً ، لكنّه يقع على اللّون غير الصّحيح » ، فهل يعتمد لامانس ـ المسرف في تحامله ، والّذي يشير إلى مراجع وإشارات غير موجودة على الإطلاق ، والّذي يفهم النّص فهماً ملتوياً خبيثاً .. ـ هل يعتمد ويستشهد بآرائه ومؤلّفاته ؟

تيودور نولدكه : Theodor Noldeke : [١٨٣٦ ـ ١٩٣٠ م] : أمير المستشرقين الألمان ، يتقن العربيّة والسّريانيّة والعبريّة ، حصل على الدكتوراه الأُولى سنة ١٨٥٦ م برسالة عن تاريخ القرآن وهو في سنّ العشرين ، سافر إلى ڤيينا ثمّ إلى ليدن سنة ١٨٥٧ ـ ١٨٥٨ م حيث اطّلع على المخطوطات العربيّة الوفيرة ، وفي سنة ١٨٦١ م عُيّن معيداً في جامعة جيتنجن ، فأقبل على دراسة الشّعر العربي القديم ، ثمّ اهتمّ بالنّحو العربي ، والنّحو المقارن للّغات السّاميّة ، فأصدر : (في نحو العربيّة الفصحى) ١٨٩٧ م ، (أبحاث عن علم اللّغات السّامية) ١٩٠٤ م ، (أبحاث جديدة عن علم اللّغات السّاميّة) ١٩١١ م[2] .

فالرّجل لُغَويٌّ نَحْوي ، هل يعتمد في : (من تاريخ الحركات الفكريّة في الإسلام) ؟.

---

(١) وارتحل نولدكه سنة ١٩٢٠ من جامعة استراسبورغ وكان يدرّس فيها منذ ١٨٧٢ ، إلى كارلسروهه في منطقة الرّاين الأعلى ، إلى منزل ابنه ، وهناك قضى عشر السّنوات الأخيرة من حياته .

(٢) صدر الجزء الأوّل سنة ١٨٤٦ ، والثّاني ١٨٥٢ ، والثّالث ١٨٦٣ . (موسوعة المستشرقين صفحة : ١٧٢ وما بعدها) .

دُوزِي : Reinhart Dozy : [١٨٢٠ ـ ١٨٨٣ م] : مستشرق هولندي أُولع باللُّغات ، واختصّ بالأندلس ، له : أخبار بني عبّاد عند الكُتّاب العرب ، وترجم : تاريخ بني زَيّان في تِلِمْسان ، وتاريخ الموحِّدين لعبد الواحد الْمَرّاكُشي ، والبيان الْمُغْرِب لابن عذارى . وله أبحاث في التّاريخ السّياسي والأدبي لإسبانية خلال العصر الوسيط ، وابتداء سنة ١٨٥١ وطوال عشر سنوات تفرّغ لتأليف : (تاريخ المسلمين في إسبانية) .

لويس ماسينيون : Louis Massignon : [١٨٨٣ ـ ١٩٦٢ م] : مستشرق فرنسي ، عُرِف بدراساته في التّصوّف الإسلامي عامّة ، وفي الحلاّج[١] خاصّة[٢]

دي خويه : Michael Jan de Goeje : [١٨٣٦ ـ ١٩٠٩ م] : مستشرق هولندي كبير ، اتّجهت عنايته منذ البداية إلى الجغرافية العربيّة ، فكانت رسالة الدكتوراه سنة ١٨٦٠ تحت عنوان : (نموذج من الكتابات الشّرقيّة في وصف المغرب مأخوذ من كتاب البلدان لليعقوبي[٣] ، وعُني دي خويه بنشر فتوح البلدان للبلاذري[٤] ، ونشر لمؤلّف مجهول قسماً من : (كتاب العيون والحدائق في أخبار الحقائق) ، والمسالك والممالك للأصطخري ، وأحسن التّقاسيم في معرفة الأقاليم ، لأبي عبد الله محمّد بن أحمد المقدسي ، وله العلاقة بين قرامطة البحرين والفاطميّين ، أكمله بنهاية دولة قرامطة البحرين .

وأعظم أعماله إشرافه ومشاركته في تحقيق تاريخ الطّبري (تاريخ الرُّسل والملوك) .

---

(١) الحسين بن منصور الحلاّج [ت ٣٠٩ هـ = ٩٢٢ م] ، ولد في فارس وتوفّي في بغداد ، فيلسوف صوفي ، اتّهم بالزّندقة والقول بالحلول ، فحكم عليه وسجن ثماني سنوات في بغداد ، ثمّ عُذّب وصُلب .

(٢) وكان ماسينيون موظّفاً من موظّفي وزارة المستعمرات في شبابه ، ثمّ مستشاراً لها بقيّة حياته (الأعلام ٢٤٧/٥) .

(٣) أحمد بن أبي يعقوب [ت ٨٩٧ م] جغرافي مؤرّخ .

(٤) أحمد بن يحيى [ت ٢٧٩ هـ = ٨٩٢ م] مؤرّخ اعترف له الجميع بصحّة الرّواية والنّقد .

براون : Eduard Granvilie Browne : [١٨٦٢ ـ ١٩٢٦ م] : مستشرق إنكليزي تخصَّص في الأدب الفارسي ، وهو صاحب أفضل وأوسع كتاب في التَّاريخ الأدبي الفارسي ، كما اختصَّ في طائفة (البابيَّة)"[٣] ، والَّتي عُرِفت فيما بعد (بالبهائيَّة) .

جولدتسيهر : Ignaz Goldziher : [١٨٥٠ ـ ١٩٢١ م] : **مستشرق مجري** من أسرة يهوديَّة ، عُني بالدِّراسات العربيَّة عامَّة ، والإسلاميَّة خاصَّة ، أعوزته في أبحاثه التَّجربة الخارجيَّة المباشرة ، وكان لديه نوع من التَّجربة الرُّوحيَّة الباطنة ، له (دراسات إسلاميَّة) سنة ١٨٨٩ م ، وأشهر أبحاثه وأعظمها نضجاً وتأثيراً ، كتاباه المشهوران : (محاضرات في الإسلام) سنة ١٩١٠ م ، و (اتِّجاهات تفسير القرآن عند المسلمين) سنة ١٩٢٠ م .



هذه نماذج من المستشرقين الَّذين اعتمدهم الأُستاذ بندلي : كيتاني ، فلهاوزن ، لامانس ، نولدِكه ، دوزي ، ماسينيون ، دي خويه ، براون ، جولدتسيهر ، وهم وإن تفاوتوا في اقترابهم من البحث الموضوعي وبعدهم عنه ، فهم يقولون ويكتبون ، ومن حقِّهم ذلك ، ولكن من حقِّنا تناول أقوالهم بالنَّقد ، وكتاباتهم بالتَّحليل والتَّنفيذ ، فآراؤهم يُنظر إليها بعين الحذر والاحتراز ، لا بعين الرُّكون إليها والاعتماد عليها .

ونظرة الاستشراق السَّلبيَّة لتراثنا وتاريخنا تزداد جلاء يوماً بعد يوم ، وخصوصاً بعدما تناولها العلماء العرب المسلمون بالدَّرس والنَّقد والتَّوضيح ، وتبيَّن أنَّ الكثير من أقوالهم دعاوى بلا سند من تاريخ ، أو حجَّة من عقل تُغني عن البيان والسَّرد .

المستشرقون في كثير من الأحيان يحكمون على التَّاريخ الإسلامي معتمدين على قيمهم ومقاييسهم الثَّقافيَّة الخاصَّة ، بدلاً من اعتمادهم على المصادر التَّاريخيَّة بروح علميَّة متجرِّدة ، لذلك جاءت بعض آرائهم ضحلة بعيدة عن الحقيقة والتَّاريخ الصَّحيح ، جاعلين أنفسهم في موقفٍ لا يحسدون عليه ، وكأنَّهم يتحدَّثون عن رسالة بأيديهم مغلقة ، يتكهَّنون بما فيها ، أو عن مصدرها ، قبل أن يفتحوها ويقرؤوها .

الأُستاذُ بَنْدَلي

وَ

أمانَةُ النَّقْلِ مِنَ الْمَصادِرِ وَدِقَّتُهُ

أوّلاً نقول : إنّ الأُستاذ بندلي أعاد القارئ الدّارس بأمانة إلى المصادر العربيّة الّتي استقى منها ، كما نقل النُّصوص بدقّةٍ إلى حدٍّ بعيد ، وهذه ميزة ـ ليست يسيرة ـ عند الباحثين ، إنّها شيءٌ يذكر باعتزاز ، فالأمانة في العَزْوِ إلى المراجع ، ودقّة النّقل عنها ، صفة للعلماء تذكر .

ونورد هنا أمثلةً ، وإن كان فيها بعض الملاحظات ، إلاّ أنّها لا تنقض ما قلناه في الأسطر السّابقة :

١ ـ في الصفحة ٦٤ ، ذكر الأُستاذ بندلي ، ما يلي : « أنظر عنها ـ عن المرجئة ـ كتاب الملل والنّحَل للشهرستاني ، وابن حزم » ، دون الإشارة إلى الجزء والصفحة والطّبعة ، وكان الأجود أن يذكر : انظر المِلَلَ والنّحَل (للشهرستاني) مع ذكر الجزء والصّفحة ، والطّبعة الّتي بين يديه[1] ، والفِصَلَ في الملل والأهواء والنّحَل (لابن حزم) ، مع ذكر الجزء والصّفحة والطّبعة الّتي اعتمدت أيضاً[2] .

٢ ـ وجاء في حاشية الصّفحة ٧٧ : « اقرأ عن هؤلاء المتغلّبين[3] تاريخَ اليعقوبي ،

---

(١) الملل والنّحل ١٣٩/١ ، طبعة مصطفى البابي الحلبي ، القاهرة : ١٩٨١

(٢) الفصل في الملل والأهواء والنّحل ١٩٢/٤ ، طبعة دار المعرفة ، بيروت : ١٩٨٦

(٣) يعني بهم : عمال بني العبّاس في أرمينية وأذربيجان ، ورؤساء بعض القبائل ..

وهو أعرف المؤرِّخين بهم وبتلك البلاد » ، والأصوب : انظر تـاريخ اليعقوبي (مع ذكر الجزء والصَّفحة والطبعـة)[1] ، ليسهل على القـارئ العودة إلى المرجع المعتمـد ، والمصـدر المقتبس منه .

٣ ـ وفي نَصِّ الصَّفحـة ٨٣ جـاء : « إنَّ الأكراد كانـوا يـدخلـون في دين بـابَـك أفواجاً » ، وجـاء في حـاشيـة الصَّفحـة ذاتهـا : « انظر : الفَرْق بين الفِرَق ص ٢٦٦ » ، وما جاء في الصفحة ٢٦٦ التَّالي : « **فدخل في دِينه جماعة من أكراد الجبل** » .

٤ ـ ونقل في الصَّفحة ٨٩ نصّاً عن الطَّبري ، جـاء كما يلي : « إنَّ جمـاعـةً كثيرة من أهـل الجبـال (Médie) من همـذان وأصبهـان ومـاسبـذان ومهرجـان قـد دخلـوا في دين الْخُرَّمِيَّة ، وإنَّهم تجمَّعوا فعسكروا في همذان » .

بينما جـاء النَّصُّ في الطَّبري كما يلي : « **وفيهـا دخل ـ فيما ذُكر ـ** جمـاعـة كثيرة من أهل الجبال من همذان وأصبهان وماسبذان **ومِهْرِجانقَـذَق**[2] في دين الْخُرَّميَّـة ، وتجمَّعوا فعسكروا في عمل همذان »[3] .

٥ ـ وقال الأُستاذ بندلي في الصَّفحة ٩٠ : « ذكر الطَّبري أنَّه لمـا أُسِرَ بـابَـك وجيءَ به مع أخيه إلى بغداد للمحاكمة ، أو بـالأحرى للتَّعـذيب : كانت النِّسـاء اللَّواتي أطلقهن قبلاً من الأَسْرِ ، يضربن على وجوههن ، ويبكين حزناً وشفقةً عليه ، فلَمَّا سألهن حيدر الإفْشين عن سبب بكائهنَّ ، أجبنه بأنَّ بابَك كانَ يحسن إلينا » .

ومـا جــاء في الطبري (٥٠/٩) لا يتَّفـق مـع الحقيقــة العلميَّــة الَّتي أوردهــا عن الطَّبري ، **فعندما أُسِرَ بابَك ، لم ينقل مع أخيه إلى بغـداد ، بل نُقِلَ إلى (بَرْزَنـد)**[4] ،

(١) تاريخ اليعقوبي : ٤٧١/٢ ، طبعة صادر ، بيروت (بلا تاريخ) .

(٢) مِهْرِجانقَذَق : كورة حسنة واسعة من نواحي الجبال ، (معجم البلدان : ٢٣٣/٥) .

(٣) الطَّبري : ١٦٧/٨

(٤) بَرْزَنـد : عنـد الأُصطخري : من نـواحي أذربيجـان ، وقيـل : هي بلـد من نـواحي تفليس من أعمـال جُرْزان من أرمينية (معجم البلدان ٣٨٢/١) .

ثمَّ سارَ به الإفْشين إلى سامُرّاء[1] **،** فوصلها في ٢ (أو ٣) صفر سنة ٢٢٣ هـ / ٣ كانون الثَّاني (يناير) سنة ٨٣٨ م ، فقُتِل فيها ثمَّ صُلِبَ جسدُه ، وسُيِّر أخوه إلى بغداد ، وأُمِرَ بضرب عنقه هناك .

٦ ـ ونقل في الصَّفحة ٩٠ أيضاً ، عن (الفَرْق بين الفِرَق) ص ٢٥٢ : « فقد ذكر أبو منصور البغدادي ، وهو عدوُّ البابكيِّين الألد ، أن بابَك وأتباعه ـ وأكثرهم على دين زرادشت[2] ـ لم يكونوا يمنعون المسلمين المقيمين بينهم من التَّمسُّك بدينهم وإقامة شعائرهم علناً ، بل كانوا يساعدونهم على بناء مساجدهم ، حيث كانوا يُؤَذِّنون » .

والنَّصُّ في (الفَرْق بين الفِرَق) كما يلي : « وقد بنوا في جبلهم مساجد للمسلمين **يؤَذِّن فيها المسلمون ، وهم يعلِّمون أولادهم القرآن ، لكنهم لا يصلُّون في السِّر ، ولا يصومون في شهر رمضان ، ولا يرون جهاد الكَفَرَة .. »** .

٧ ـ وفي الصَّفحة ٩٢ نقل عن البغدادي (الفَرْق بين الفِرَق ص ٢٦٧) : « إنَّ الْخُرَّميِّين كانوا على مذهب المزدكيِّين » ، وصوابُه : « **وكان أهل جَبَلِهِ خُرَّميَّة على طريقة المزدكيَّة** ، فصارت الْخُرَّميَّة مع الباطنيَّة يداً واحدة » ، (الفَرْق بين الفِرَق ، ص ٢٦٨) .

٨ ـ وفي الصَّفحة ٩٩ نقل عن ابن العبري (مختصر تاريخ الدُّول) الصَّفحة ٢٤١ ، قال الأُستاذ بندلي : « أورد في كلامه عن سنباط بن مهل أحد بطارقة أرمينية ، الَّذي قبض على بابَك وسلَّمه لأفشين بعد أن خدعه وأهانه ، وهتك حرمة امرأته وأُمِّه وأُخته ، ثم نَقَل حرفيّاً : إنَّ بابَك الملعون ، كذا كان يفعل بالنَّاس إذا أسرهم مع

---

(١) سامُرّاء (سُرَّ من رأى) : عاصمة الدَّولة العبَّاسيَّة أيام المعتصم (سنة ٨٣٦ م) وهي مدينة في العراق شمالي بغداد ، على نهر الدجلة .

(٢) زَرادُشت : [٦٦٠ ق.م ـ ٥٨٣ ق.م] ، أركان عقيدته : اعبد الإله أهرمزدا ، مجِّد الملائكة ، العن الشَّياطين ، تزوَّج أقرب قريباتك ، (الحكماء الثلاثة ، لأحمد الشنتناوي ، سلسلة اقرأ ، الطبعة الأولى ١٩٥٣ م) ، انظر معبد النار في الملحق .

حرمهم » ، وصوابه ـ كما أورده ابن العبري ص ١٣٩ ـ : « فلما ضاق أمره خرج هارباً ومعه أهله إلى بلاد الرُّوم في زيِّ التُّجَّار ، **فعرفه سهل بن سُنْباط الأرمني بعدما ارتكب الأرمن من أمِّه وأخته وامرأته الفاحشة بين يديه ، وكذا كان يفعل الملعون بالنَّاس إذا أسرهم مع حرمهم** » .

٩ ـ وقال في حاشيّة الصَّفحة ١٢٢ : « كان عدد الرُّتب في أوَّل الأمر سبعة[١] ، ثمَّ أصبح تسعة ، وكان لكلِّ درجة اسم يلائم العلم الَّذي كان يتلقَّاه المدعو في تلك الدَّرجة ، وهذه أسماء الدَّرجات : التَّفرُّس ، التَّأنيس ، التَّشكيك ، التَّعليق ، الرَّبط ، التَّدليس ، التَّأسيس ، وأغفل الأُستاذ بندلي ـ كما جاء في الصَّفحة ٢٨٢ في الفَرْق بين الفِرَق الَّذي أشار إليه مرجعاً ـ أغفل المرتبتين الثَّامنة والتَّاسعة ، وهما : « **المواثيق بالأديان والعهود ، وآخرها الخلع والسَّلخ** » .

١٠ ـ جاء في الحاشية (ص ١٢٦) : « وقالوا أيضاً لدعاتهم[٢] : لاتطرحوا بذركم في أرض سبخة[٣] ، وأرادوا بذلك منع دعاتهم عن إظهار بدعتهم عند من لا تؤثِّر فيهم بدعتهم ، كما لا يؤثر البذر في الأرض السَّبخة أيضاً » ، (الفَرْق بين الفِرَق ، ص ٢٨٣) ، وصوابه : « كما لا يؤثِّر البذر في الأرض السَّبخة **شيئاً ، وسمَّوا قلوب أتباعهم الأغنام أرضاً زاكية لأنَّها تقبل بدعتهم** .. » .

١١ ـ وفي الصَّفحة ١٣٤ ، وبعد أن طرح الشُّبَه الَّتي يطرحها الباطنيَّة « من غلاة الرَّافضة كالسَّبابيَّة[٤] » **أغفل الأستاذ بندلي الرَّدَّ الَّذي نقل النَّصَّ منه** ، وهو (الفَرْق بين الفِرَق ، ص ٢٨٤ و ٢٨٥) فشوَّه المعنى .

(١ و٢) الحديث هنا عن (الإسماعيليَّة) في الفصل الرَّابع ، من ص ١١٧ وحتَّى ص ١٥٨

(٣) الأرض السَّبخة : الأرض المالحة ، (اللِّسان : سَبَخَ) .

(٤) صوابها (السَّبائيَّة) أصحاب عبد الله بن سبأ ، أوَّل من أظهر القول بالنَّصِّ بإمامة علي رضي الله عنه ، ومنه انشعبت أصناف الغلاة ، كما يذكر الشهرستاني في الملل والنحل (١٧٤/١) .

والنَّصُّ كاملاً كما جاء في المرجع المذكور ، هو التَّالي : « ومن رآه من غلاة الرَّافضة كالسَّبابيَّة والبيانيَّة والمغيريَّة والمنصوريَّة والخطابيَّة[1] ، لم يحتج معه إلى تأويل الآيات والأخبار ، لأنَّهم يتأوَّلونها معهم على وفْق ضلالتهم ، ومن رآه من الرَّافضة زيديّاً أو إماميّاً[2] مائلاً إلى الطَّعن في أخبار الصَّحابة ، دخل عليه من جهة شتم الصَّحابة ، وزيَّن له بغضَ بني تيمٍ لأنَّ أبا بكرٍ منهم ، وبغَّض بني عديٍّ ، لأنَّ عمر بن الخطَّاب كان منهم ، وحثَّه على بغض بني أُميَّة لأنَّه كان منهم عثمان ومعاوية ، وربَّما استروح الباطنيُّ في عصرنا هذا إلى قول إسماعيل بن عبَّاد :

دُخُولُ النَّارِ في حُبِّ الوَصِيِّ[3] ... وفي تَفْضيلِ أولادِ النَّبيِّ
أحبُّ إليَّ من جنَّاتِ عَدْنٍ ... أُخَلَّدُها بِتَيْمٍ أو عَدِيِّ

قال عبد القاهر : قد أجبنا هذا القائل بقولنا فيه :

أتَطْمَعُ في دُخولِ جِنَانِ عَدْنٍ ... وأنْتَ عَدُوُّ تَيْمٍ أو عَدِيِّ
وَهُم تركوكَ أشقى مِنْ ثَمُودٍ ... وهُم تركوكَ أفْصَحَ من دعِيِّ
وفي نارِ الْجَحيمِ غَداً سَتُصْلَى ... إذا عاداكَ صِدِّيقُ النَّبيِّ

ومن رآه الدَّاعي مائلاً إلى أبي بكر وعمر مدحهما عنده ، وقال : لهما حظٌّ في تأويل الشَّريعة ، ولهذا استصحب النَّبيُّ أبا بكر إلى الغار ثم إلى المدينة ، وأفضى إليه في الغار

(١) من غلاة الشِّيعة : المغيرية فهم أصحاب المغيرة بن سعيد العجلي ، الذي ادَّعى أن الإمامة بعد محمد بن علي بن الحسين في محمد النَّفس الزكية بن عبد الله بن الحسن بن الحسن ، وزعم أنَّه حيّ لم يمت ، والمنصوريَّة : أصحاب أبي منصور العجلي ، الَّذي زعم أن الرُّسل لا تنقطع أبداً . والخطابيَّة : أصحاب أبي الخطاب محمد بن أبي زينب الأسدي ، الَّذي زعم أنَّ الأئمة أنبياء ثم آلهة . والبيانيَّة : أصحاب بيان بن سمعان التيمي ، قال بألوهية علي (المِلَل والنِّحل : ١٧٦/١ ـ ١٧٨ ـ ١٧٩) .

(٢) الزَّيديَّة : أتباع زيد بن علي بن الحسين ، قالوا : بجواز إمامة المفضول مع وجود الأفضل ، فهم لا يتبرَّؤون من أبي بكر وعمر . والإماميَّة : هم القائلون بإمامة علي بعد النبي ﷺ نصّاً ظاهراً وتعييناً صادقاً ، (الملل والنِّحل ١٦٢/١) .

(٣) الوَصيُّ : هو عليّ كرَّم الله وجهه .

تأويل شريعته ، فإذا سأله الموالي لأبي بكر وعمر عن التَّأويل المذكور لأبي بكر وعمر أخذ عليه العهود والمواثيق في كتمان ما يظهره لَهُ . ثمَّ ذكر له على التَّدريج بعض التَّأويلات ، فإن قبلها منه أظهر له الباقي ، وإن لم يقبل منهُ التَّأويل الأوَّل ربطه في الباقي وكتمه عنه ، وشكَّ الغِرُّ من أجل ذلك في أركان الشَّريعة » .

١٢ ـ وجاء ضمن النَّصِّ في الصَّفحة ١٤٦ : « وهذا ما لاحظه وأشار إليه أبو منصور بقوله : (إنَّ الشُّعوبيَّة كانت تدخل في دين الإسماعيلية وتؤيِّده) » ، والمرجع هنا : (الفَرْق بين الفِرَق ، ص ٢٨٥) .

بينما الَّذي جاء في الصَّفحة ٢٨٥ المذكورة ، ما يلي حرفيّاً : « **والصِّنف الثَّاني الشُّعوبيَّة الَّذين يرون تفضيل العجم على العرب** » .

١٣ ـ وفي نَصِّ الصَّفحة ١٦٨ فقرة نُقِلَت عن (الكامل في التَّاريخ) لابن الأثير ، جاءت كما يلي : « أمَّا من وقع في الأسْرِ فإنَّه قُتِل بأمر من أبي سعيد[1] انتقاماً للقرامطة » ، **والنَّصُّ في المصدر المذكور ، فيه كلمة (وحَرَّقهم) : « فإنَّه قتل بأمر من أبي سعيد وحرَّقهم »** .

١٤ ـ وفي حاشية الصَّفحة ١٦٩ ، جاءت الحاشية الأُولى كما يلي : « أنظر التَّاريخ الكامل لابن الأثير » ، وصوابه : « أنظر **الكامل في التَّاريخ** لابن الأثير » .

١٥ ـ وفي الصَّفحة ٢٠٦ أورد الأستاذ بندلي النَّصَّ التَّالي من (الكامل في التَّاريخ ١٨٨/٦) : « فقال له ـ علي بن عيسى ـ : قد خالطتَ عسكرنا وعرفتهم ، فمن منهم على مذهبك ؟ فقال : وأنتَ بهذا العقل تريد الوزارة ؟! كيف تطمع منِّي أنَّني أُسْلِمُ قوماً مؤمنين إلى قومٍ كافرين يقتلونهم ؟ لا أفعل ذلك » ، وصوابه : « .. فقال : **وأنتَ**

---

(١) أبو سعيد الحسن بن بهرام الجَنَّابي : [ت ٣٠١ هـ = ٩١٣ م] ، داعي القرامطة ، أقامه حمدان قرمط في فارس ثم في البحرين حيث نشر الدَّعوة القرمطيَّة ، استولى على البحرين وهجر واليمامة وعمان ، اغتيل في الأحساء .

بهذا العقل **تُدَبِّر الوزارة** ؟ كيف تطمع منّي أنّي أُسْلِمَ قوماً مؤمنين إلى قومٍ كافرين يقتلونهم ؟ » .

١٦ ـ وفي نصّ الصّفحة ٢٠٨ ، وفي معرض حديثه عن القرامطة : « تأوّلوا لكلّ ركن من أركان الشّريعة تأويلاً يورث تضليلاً ، فزعموا أنّ معنى الصّلاة موالاة إمامهم ، والحج زيارته وإدمان خدمته ، والمراد بالصّوم الإمساك عن إفشاء سرّهم بغير عهد ولا ميثاق ، وزعموا أنّ من عرف معنى العبادة ، سقط عنه فرضها ، وحملوا اليقين على معرفة التّأويل » . وصوابه : « .. والمراد بالصّوم الإمساك عن **إفشاء سِرّ الإمام دون الإمساك عن الطّعام ، والزّنى عندهم إفشاء سرّهم** بغير عهد وميثاق .. » ، (الفَرْق بين الفِرَق ص ٢٨٠) .

١٧ ـ ونقل عن (التّنبيه والإشراف) للمسعودي ، أكثر من مرّة ، منها ما ورد في الصّفحة ١٠٨ : « **نواحي** أصبهان والبرج وكرج **أبي دكث** والزّزّين زَزّ معقل **وزَردلف ، ورستاف الدرسنجان** وقسم وكوذشت من أعمال الصيرة من مهرجان **قذف** وبلاد **السيران** وأربوجان من بلاد **ماسبذان وماه** الكوفة ، وماه البصرة وأذربيجان وأرمينية وقم وقاشان **والرق** وخراسان وسائر أرض الأعاجم » .

وصواب النّص[1] : « ومن منهم بنواحي أصبهان والبرج وكرج أبي دلف والزّزّين زَزّ معقل وزَزّ أبي دلف ورستاق الورسنجان وقسم وكوذشت من أعمال الصيمرة من مهرجان قذق وبلاد السّيروان وأربوجان من بلاد ماسبذان وهمذان وماه الكوفة وماه البصرة وأذربيجان وأرمينية وقم وقاشان والرّي وخراسان وسائر أرض الأعاجم وغيرها وما بينهم من التّنازع .. » .

(١) التنبيه والإشراف ، ص ٣٠٦ ، طبعة المكتبة العصريّة في بغداد سنة ١٩٣٨ م .

١٨ - ونقل الأُستاذ عن (سَفَرنامة) لناصر خسرو الكثير في فصل (القرامطة) ، وآثرنا هنا أن نعرض النَّصّ كما أورده الأُستاذ ، وإلى جانبه النَّصُّ كما في التَّرجمة العربيَّة لسَفَرنامة[1] :

النَّصُّ كما أورده د. بندلي	النَّصُّ كما في التَّرجمة العربيَّة
الصفحة ١٩٣ : « وأحفاد [حَفَدة] أبي سعيد يقيمون الآن في قصر واسع يعرف (بدار الهجرة) ، وهذا القصر هو دار الحكومة أيضاً ، حيث يوجد التَّخت الَّذي يجلس عليه الوزراء السِّتَّة الَّذين يضعون الأحكام بعد أن يبحثوا فيها ويتَّفقوا على رأيٍ واحد ، ولهؤلاء ستة مساعدين يقعدون على تخت آخر وراءهم ، ولا يقرر المجلس أمراً إلاَّ بالشُّورى » .	**الصفحة ١٤٢ :** « ولهؤلاء الحكام الآن قصر منيف ، هو دار ملكهم ، وبه تخت يجلسون هم السِّتَّة عليه ويصدرون أوامرهم بالاتِّفاق ، وكذلك يحكمون ، ولهم ستة وزراء ، فيجلس الملوك على تخت والوزراء على تخت آخر ، ويتداولون في كلِّ أمر ، وكان لهم في ذلك الوقت ... (يتبع أدناه) :
الصفحة ١٩٨ : « ثلاثون ألفاً من السُّودان يشتغلون في الحقول والبساتين على حساب العقدانيَّة ، وهي الحقول الَّتي اشترتها بمال الأُمَّة ، وإنَّ الشَّعب هناك لم يكن يؤدِّي لحكومته ضرائب ، ولا أعشاراً ، وأنَّه إذا كان يصيب أحدهم فقر ، أو كان يقع تحت دَيْن لا سبيل إلى وفائه ، كانت العقدانيَّة	... ثلاثون ألف عبد زنجي حبشي ، يشتغلون بالزراعة وفلاحة البساتين ، وهم لا يأخذون عشوراً من الرَّعيَّة وإذا افتقر إنسان أو استدان يتعهدونه حتَّى يتيسَّر عمله ، وإذا كان لأحدهم دَيْن على آخر ، لا يطالبه بأكثر من رأس المال الَّذي له ... (يتبع أدناه) :

(١) سَفَرنامة ، طبعة دار الكتاب الجديد ، وهي النسخة التي نقلها إلى العربيَّة د . يحيى خشاب ، اعتماداً على طبعة (شارل شيفر Charles Schefer) التي اعتمدها د . بندلي ، يقول د . خشاب ص ٣٢ : « بل إنِّي أكاد أكون قد نقلتها نقلاً لما تحتويه من سعة العلم وعظيم الفائدة » ، لقد نقلها حرفياً مع تعليقات شارل شيفر أيضاً .

<table>
<tr><td>تسلّفه ما يحتاج إليه من الدّراهم إلى أن يصلح حاله، وكان إذا استدان من أحد دراهم لا يدفع له عند حلول الأجل إلاّ ما استدانه فقط أي بلا ربا».</td><td></td></tr>
<tr><td>الصفحة ١٩٨: «إن كلّ غريب يدخل الأحسا ويعرف حرفة ما كانت الحكومة -إذا أراد- تقدّم له مبلغاً من النّقود لينفقه على اشتراء أدوات حرفته ويبقى تحت تصرّفه إلى أن يجمع من المال ما يكفيه ويكفي أُسرته، فإن هو اشتغل وكسب ردّ ما استلفه إلى الحكومة بدون ربا».</td><td>... وكلّ غريب ينزل في هذه المدينة وله صناعة يعطى ما يكفيه من المال حتّى يشتري ما يلزم صناعته من عُدَد وآلات، ويرد -إلى الحكّام- ما أخذ حين يشاء».</td></tr>
<tr><td>الصفحة ١٩٩: «إنّ في الأحسا طواحين تخصّ الحكومة، وهي تطحن للنّاس قمحهم مجّاناً، أي بدون أُجرة، لأنّ الحكومة نفسها تنقد الفعلة أجورهم وتقوم بجميع نفقات الطّواحين».</td><td>الصّفحة ١٤٣: «وفي الحسا مطاحن مملوكة للسّلطان، تطحن الحبوب للرّعيّة مجاناً، ويدفع فيها السّلطان نفقات إصلاحها، وأُجور الطحّانين».</td></tr>
<tr><td>الصفحة ١٩٩ (أيضاً): «لم يبقَ في البلاد فقير، وإن مجلس العقدانيّة ضَرَبَ نقوداً جديدة لم تكن متداولة إلاّ في البحرين والبلاد المتاخمة لها، وكان غرضه من ذلك أن تبقى النّقود في البلاد، ولهذا سكّها من رصاص، فكانت لذلك رخيصة جدّاً حتّى</td><td>الصفحة ١٤٣ (أيضاً): «والبيع والشّراء والعطاء والأخذ يتمّ هناك بواسطة رصاص في زنابيل[1] يزن كل منها ستة آلاف درهم، فيدفع الثمن عدداً من الزّنابيل، وهذه العملة لاتسري في الخارج».</td></tr>
</table>

(١) الزّنبيل: الجِراب، أو الوعاء يُحْمَل فيه، والزّنبيل: القفّة، (اللّسان: زبل).

إنّ من أراد أن يبتاع شيئاً في السّوق كان مضطراً أن يملأ من تلك النّقود زنابيل يضع في كلٍّ منها ستّة آلاف درهم..».	
الصّفحة ٢٠٢: «إنّهم لا يشربون خمراً، لا لأنّه كان محرّماً عندهم بل محافظة على النظام».	**الصّفحة ١٤٤:** «ولا يشربون مطلقاً».
الصّفحة ٢٠٩: «وليس في الأحسا مسجد تقام فيه صلاة الجمعة وهم لا يخطبون ولا يصلّون إلاّ أنّهم (سمحوا) ببناء مسجد على حساب أحد الفُرْس السّنيّين.. ولا يمنعون هنا أحداً من إقامة الصّلاة، أمّا هم فلا يقيمونها».	**الصّفحة ١٤٤ (أيضاً):** «وإذا صلّى أحدٌ فإنّه لا يُمْنَع، ولكنهم أنفسهم لا يُصَلّون».
الصّفحة ٢٠٩ (أيضاً): «إنّهم كانوا يبيعون في الأحسا لحوم جميع الحيوانات كالقطط والكلاب والحمير والثيران والخرفان إلخ.. على شرط أن يضع البائع رأس الحيوان وجلده قرب لحمه، وهم يربون الكلاب كالخرفان في المراعي حتّى إذا سمنت وعجزت عن الجري ذبحوها وأكلوها».	**الصّفحة ١٤٤ (أيضاً):** «وفي الحسا تباع لحوم الحيوانات كلّها، من قطط وكلاب وحمير وبقر وخراف وغيرها، ويوضع رأس الحيوان وجلده بقرب لحمه ليعرف المشتري ماذا يشتري، وهم يسمّنون الكلاب هناك كما تُعْلَف الخراف، حتى لا تستطيع الحركة من سمنها، ثم يذبحونها ويبيعون لحمها».
الصّفحة ٢١٤: «وفي الأحسا يكثر البلح حتّى إنّ النّاس يعلفون به الغنم»، وهم «يبيعون الألف منه بدينار».	**الصّفحة ١٤٥:** «وفي الحسا تمرٌ كثير حتّى إنّهم يسمّنون به المواشي، ويأتي وقت يباع فيه أكثر من ألف منه بدينار».

مِنْ تاريخ الحركات الفكريَّة في الإسلام
دِرَاسَةٌ ونَقْدٌ

كان أمامي خياران لعرض هذا الفصل ، الخيار الأوّل : إيراد الملاحظات المتعلّقة في الموضوع الواحد ، كالسّيرة النّبويَّة ، وتاريخ صدر الإسلام ، والدّولة الأُمويَّة .. ضمن فقرة واحدة ، وإن تباعد ورودها في الكتاب ، والخيار الثّاني : إيراد الملاحظات حسب تسلسل ورودها ضمن الفصل الواحد .

وارتضيت الخيار الثّاني لأتجنّب إضافات وحواشي وإيضاحات عن الفقرات الّتي سنوردها ، لتوضيح عمّن تتحدّث ، ومَنْ تعني ، والضّمير فيها إلى من يعود .

وقبل البدء في فصول الكتاب الخمسة ، نورد ملاحظة ، جاءت في المقدّمة (وحدة النّواميس الاجتماعيّة) ، وهي : المقدّمة كلُّها تفنيد لبعض أقوال مؤرّخي الغرب عن الشّرق وتاريخه ، وما فيها « من الغرابة والطّيش » ، وخصوصاً (رينان) الفرنسي الّذي قال : « إنّ تطوُّر الأُمم السّامية الدّيني كان يقوم دائماً على نواميس أُخرى » ، غير نواميس الأُمم الغربيّة ، ويقول الأُستاذ بندلي : « هذه النّظريّة أصبحت اليوم في خبر كان .. إنّ الزّمان تولّى دحضها بنفسه » ، عادّاً مثل هذه الفكَر ، أفكاراً عقيمة فاسدة .. إلى آخر هذا الدّفاع المجيد (والموضوعي العلمي) عن تاريخ أُمّتنا ، إلاّ أنّ الأُستاذ بندلي ، بدأ مقدّمته (ص ١١) بالفقرة التّالية : « إذا نحن عرفنا **أنّ أوّل من وضع مبادئ علم التّاريخ وأساليب الانتقاد التّاريخي ،** هم مؤرّخو الغرب كنيبور (Niebhur) ، ورانكه (Ranke) ، وشلوسر (Schlosser) وغيرهم .. » ، ونتساءل : هل حقّاً أنّ هؤلاء المؤرّخين الغربيّين ، هم أوّل من وضع مبادئ علم التّاريخ وأساليب الانتقاد التّاريخي ؟ أين هؤلاء من عبد الرّحمن بن خلدون المتوفّى سنة ١٤٠٦ م ، هؤلاء المؤرّخون الغربيّون ، عاشوا في القرن التّاسع عشر ومطلع القرن العشرين ؟!

لقد كانت **مقدّمة** كتابه : (العِبَر وديوان المبتدأ والخبر في أيّام العرب والعجم والبربر ، ومن عاصرهم من ذوي السُّلطان الأكبر) صورة حيّة للحياة الاجتماعيَّة في مختلف البيئات الَّتي تقلَّب فيها ابن خلدون ، وللعصر الَّذي انقضت فيه حياته ، لقد وضعها بعد أن شعر بنقص التّاريخ كما يفهمه المؤرِّخون ، إذ يقتصرون على سَرْدِ الوقائع والأسماء ، **فمقدّمته** (نقد تاريخي) مع تعليل وتفهُّم وتفسير .

ثمَّ إنَّ **المقدّمة** علّلت الظّاهرات الاجتماعيَّة ، وأوضحت أثر السّكن على الحياة الاجتماعيَّة ، ودرست الظّاهرات الاقتصاديَّة ، فيكون ابن خلدون بذلك قد بحث في علم الاقتصاد والسِّياسة والاجتماع والعمران ، ويمكن القول : إنَّه ولج ميدان ما يسمَّى اليوم (فلسفة التَّاريخ) .

والكتب الَّتي تتعلّق بفلسفة التَّاريخ مباشرة ، ظهرت بعد تأليف ابن خلدون **لمقدّمته** ، مثل : كتاب (الأمير) لميكياڤيلي الإيطالي[١] ، و (الحكومة المدنيَّة) لجون لوك الإنكليزي[٢] ، و (العالم الجديد) لجان باتيستاڤيكو الإيطالي[٣] ، و (طبائع الأُمم وفلسفة التَّاريخ) لڤولتير الفرنسي[٤] ، و (آراء فلسفيَّة في تاريخ البشريَّة) لِهِرْدِر الألماني[٥] .. وكلُّهم اقتبسوا منه في كتبهم .

وسبق ابنُ خلدون في **مقدّمته** (علماء الاجتماع) بقرون ، سبق غبرييل تارد ـ الفيلسوف الفرنسي ـ بالقول بالمحاكاة والتّقليد[٦] ، وسبق دوركهايم الفرنسي[٧] بالقول

---

(١) ميكياڤيلي : [١٤٦٩ ـ ١٥٢٧ م] .

(٢) جون لوك : [١٦٣٢ ـ ١٧٠٤ م] .

(٣) جان باتيستاڤيكو : [١٦٦٨ ـ ١٧٤٤ م] له : العلم الحديث ، ومبادئ الفلسفة التّاريخيّة .

(٤) فرانسوا ڤولتير : [١٦٩٤ ـ ١٧٧٨ م] .

(٥) هردر : [١٧٤٤ ـ ١٨٠٣ م] أهم كتبه : أفكار حول فلسفة التَّاريخ البشري .

(٦) وكان ابن خلدون أعمق ، لأنّه أعطى رأياً متميِّزاً ، وعدَّ التَّقليد ظاهرة ضعف ، لا دلالة قوّة .

(٧) إميل دوركهايم : [١٨٥٨ ـ ١٩١٧ م] .

بالقسر الاجتماعي ، وأنَّ الإنسان ابن مجتمعه ، والظَّاهرة الاجتماعيَّة هي تفرض نفسها على الأفراد ، ووجه الشَّبه بينه وبين جان جاك روسُّو[1] واضحة من حيث الإيمان الشَّديد بحياة التَّقشُّف ، وبينه وبين نيتشه[2] في نظريَّة الحقّ للقوَّة ، وله لمحات لتفسير الظَّواهر السِّياسيَّة بالعامل الاقتصادي[3] .

ليس ابن خلدون رائداً في علم الاجتماع السُّكوني ، بل هو رائد في علم الاجتماع الحركي ، بدليل أنَّه لم يدرس المدن الفاضلة ، بل درس المدن القائمة ، ووازن بين ما كان وما صار .

كان ابن خلدون شغوفاً بالتَّاريخ ، ومع معاناته للسِّياسة ، جاءت تجربته غنيَّة ، وبعد هذا كلّه ، هل يصح قول الأُستاذ بندلي : « إنَّ أوَّل من وضع مبادئ علم التَّاريخ وأساليب الانتقاد التَّاريخي هم مؤرّخو الغرب كنيبور ، ورانكه ، وشلوسر ؟ » ، وهل سبق هؤلاء ابن خلدون حقّاً ؟



(١) جان جاك روسُّو : [١٧١٢ ـ ١٧٧٨ م] .

(٢) نيتشه : [١٨٤٤ ـ ١٩٠٠ م] .

(٣) من الأفكار الهامّة الّتي عرضها ابن خلدون في (مقدّمته) نظريّته في العمل والقيمة ، حيث ردّ القيمة إلى العمل المبذول في إنتاج السّلعة ، يقول ابن خلدون بصريح العبارة : « وقد يكون مع الصّنائع في بعضها غيرُها ، مثل النّجارة والحياكة معهما الخشب والغزل ، إلا أنّ العمل فيهما ـ أي في النجارة والحياكة ـ أكثر ، فقيمتُه أكثر » ، وعلى هذا فإن العبرة في تقويم سِلَع الإنتاج هي بكميّة العمل الّتي بذلت لتحصيلها ، ذلك أن العمل المبذول في صناعة قِطَع الأثاث أكبر من العمل الذي بُذِل في قطع الأشجار ، والعمل المبذول في النسيج أكبر منه في الغَزْل ، ولهذا يجب أن يجري تقويم كل نوع منهما وفقاً لذلك ، فيكون الأوّل أغلى من الثاني .

ويلحُّ ابن خلدون في توكيد معنى استمداد القيمة من العمل عدة مرّات في مقدّمته : « فلا بُدّ في الرّزق من سعي وعمل » . انظر : (دور العرب في تكوين الفكر الأوربي) ، د . عبد الرحمن بدوي ، ص ١٣٩ وما بعدها ، دار القلم بيروت ، الطبعة الثالثة : ١٩٧٩ م .

الفَصْلُ الأوَّلُ : أُسَسُ الإسلام الاقتصاديَّة

جاء في الصَّفحة ١٧ : « إنَّ القول بأنَّ الإسلام فكرة دينيَّة محضة ، وإنَّ ظهوره وتغلُّبَه على وثنيَّة العرب ، وانتشاره السَّريع بين أكثر أُمم الشَّرق ، وفتوحات الخلفاء الرَّاشدين وبني أُميَّة الواسعة ، ترجع إلى الحماسَة الدِّينيَّة ، أو التَّعصُّب الدِّيني ، يعدُّ اليوم قولاً جزافاً بعيداً عمَّا أثبتته الأبحاث التَّاريخيَّة والاقتصاديَّة ، كأبحاث الأُستاذ يوليوس فلهاوزن Wellhousen ، والأمير كايتاني Caetani ، والأُستاذ هنري لامانس H.Lammens ، ونولدكه Noldeke ، وعضو أكاديميَّة بطرسبرج بارتولد Barthold وغيرهم ، فقد أصبح اليوم من المقرَّر أنَّ الإسلام كغيره من الأديان الكبيرة ليس فقط فكرة دينيَّة ، بل مسألة اقتصاديَّة واجتماعيَّة أكثر من فكرة دينيَّة ، قال الأمير كايتاني : إن الإسلام لم يكن حركة دينيَّة ، إذ لم يكن فيه دينيّاً إلاَّ الظَّاهر .

ردٌّ صحيح من الأُستاذ بندلي على قولٍ خاطئ ، بأنَّ الإسلام فكرة دينيَّة محضة ، وموقفٌ يدلُّ على سعة تحقيقاته حول هذا الأمر ، وما أوردته أبحاث بعض علماء العالم من أنَّ الإسلام هو دين وأُمور أُخرى تتعلَّق بالجوانب الاقتصاديَّة والاجتماعيَّة والسِّياسيَّة ، ممَّا نستطيع معه أن نصل إلى أنَّ الإسلام نظام عام شامل للحياة الدِّينيَّة والدُّنيويَّة ، لكنَّه كإنسان يؤمن بدين آخر ، أو بنظام آخر ، زعم أنَّ الإسلام هو من تأسيس نبيِّ الإسلام ورسوله ـ محمَّد بن عبد الله (صلَّى الله عليه وآله وسلَّم) ـ وهذا ما جعله يعد نبيَّ الإسلام رجلاً عبقريّاً ، أدركَ ببعد نظره ، وسعة أُفقه ، وحِدَّة ذكائه ، أي بعبقريَّته حاجات مجتمعه وظروفه ، فشرَّع ما يحتاج إليه النَّاس ، وربَّما أوجد بذلك دليلاً ـ عن غير قصد ـ يدلُّ به على نبوَّة نبيِّ الإسلام ، فكلُّ من يدرس سيرة نبيِّ الإسلام وبيئته الاجتماعيَّة والثَّقافيَّة ، يثبت له استحالة ما تصوَّره الأُستاذ بندلي من عبقريَّة .

هذا ، وقول الأُستاذ بندلي : « إنَّ القول بأنَّ الإسلام فكرة دينيَّة محضة .. يعدُّ

اليوم قولاً جزافاً بعيداً عمّا أثبتته الأبحاث التّاريخيّة والاقتصاديّة كأبحاث الأستاذ فلهاوزن Wellhausen ، والأمير كايتاني Caetani ، والأستاذ هنري لامانس A.Lammens .. » ، ليس هذا جديداً ، فالمسلم يعلم يقيناً ، أنّ الإسلام دينٌ ودنيا ، حياةٌ وآخرة ، معاملات وعبادة .. منذ أيّامه الأولى : ﴿ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً ﴾ ، [البقرة ٢٠٢/٢] ، وقول النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم : « أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خُلُقاً »(١) ، ويعرف أنّ الدّين المعاملة .

ولكن الإسلام يتميّز عن غيره من الشّرائع ، أنّه ربط الدّنيا والحياة والمعاملات بالعقيدة ، بمَثَلٍ أعلى فيه خير المجتمع ، وفيه انطلاقة من العقيدة الّتي حدّدت السّلوك القويم لهذه المعاملات ، والّتي تنظم العلاقة الفطريّة السّليمة بين (الأنا) والمجتمع ، ضمن أسس : ﴿ فَلَكُمْ رؤوسُ أمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ ﴾ ، [البقرة ٢٧٩/٢] .



وجاء في الصّفحة ١٩ : « معلوم أنّ الإسلام ظهر في مكّة ، وما كان ليظهر إلاّ فيها ، لأنّ الشّروط الضّروريّة لظهوره لم تكن يومئذٍ متوافرة في غير مدينة من مدن العرب » .

ما هذه الشّروط ؟ إنّها كثيرة ، منها :

١ ـ كانت مكّة محطّة للقوافل ، مدينة تجاريّة غنيّة .

٢ ـ مركزاً دينيّاً مهمّاً لقسم كبير من البلاد العربيّة ، تحجُّ إليه كلَّ سنة الألوف ، وألوف الألوف من جميع أطراف العالم العربي لزيارة الكعبة المشرّفة ، وإقامة شعائر الحجّ فيها مدّة ثلاثة أشهر .

---

(١) رواه التّرمذي : رياض الصّالحين : ٢٧٣ ، ومجموع آيات القرآن الكريم ٦٣٤٢ آية ، منها خمس مئة آية فقط تبحث الأحكام ، وأقل من نصف هذه يبحث في شؤون التّشريع والفقه ، بينما ما يقرب من ٤٠٠٠ آية تدعو باستمرار إلى استعمال العقل والفكر ، وإلى استنباط الحقائق العلميّة من الطّبيعة .

« الإسلام ظهر في مكّة ،وما كان ليظهر إلاّ فيها » ، لأنّ شروطاً وظروفاً توافرت فيها دون أن تتوافر في غيرها من المدن ، فهو أمرٌ فيه الكثير من المبالغة ، والبعد عن الواقع ، فقد كانت مدن أُخرى كثيرة تعاني ما يعانيه أهل مكّة ، من ظلم اجتماعي وسياسي واقتصادي وانهيار خلقي .

لقد كانت هناك مدنٌ أُخرى كثيرة محطّات تجاريّة غنيّة ، وليس من الضّروري أن تكون دعوة الإسلام في مدينة كانت مركزاً دينيّاً يحجُّ إليها العرب الوثنيُّون ، أمّا شعائر الحجِّ فهي تتمُّ في أيّام لا تتجاوز الثّلاثة ، ولا أدري إن كان الأُستاذ بندلي يقصد بالأشهر الثّلاثة الأشهر الْحُرُم ، حيث يتوقّف القتال بين القبائل ، وهي أربعة أشهر ، وليست ثلاثة .



ورد في الصّفحة ٢٤ : « وكان أكثر هؤلاء الْخُفَراء من الأحابيش أو عبيد إفريقية ، وكان عددهم يزداد سنة عن سنة ، حتّى تألّف منهم جيشٌ منظّم كان يقوم بنفقاته تُجّار مكّة » .

وصواب العبارات السّابقة : جاء في (لسان العرب) مادّة (حَبَشَ) : الأحابيشُ : أحياءٌ من القَارّة انضمُّوا إلى بني ليث في الحرب الّتي وقعت بينهم وبين قريش قبل الإسلام ، سُمّيت تلك الأحياء بالأحابيش من قِبَلِ تجمُّعها ، صار التّحبيش في الكلام كالتّجميع ، وحُبْشي : جبل بأسفل مكّة ، يقال منه سُمّي أحابيشُ قريش ، وذلك أنّ بني المصطلق وبني الهَوْن بن خزيمة اجتمعوا عنده فحالفوا قريشاً ، وتحالفوا بالله إنّا ليدٌ على غيرنا ما سَجَا ليل ، ووضح نهار ، وما أرسى حُبْشي مكانه ، فسُمُّوا (أحابيش قريش) باسم الجبل ، فالأحابيش ليسوا عبيد إفريقية ، أو جالية حبشيّة قطعاً ويقيناً .



ويقول الأُستاذ بندلي (الصَّفحة ٢٥) : « [كان] الرِّبا في مكَّة فاحشاً جدّاً يتراوح بين ٤٠ و ١٠٠ في المئة[1] ، أي كما هي اليوم في كثير من البلاد ، ولولا ذلك لما حمل صاحب القرآن الكريم حملاته المعروفة على المرابين والرِّبا ، بل لما منع الرِّبا ولعن المرابين على كلّ صفحة من صفحات سُوَرِهِ المكّيّة » .

أوّلاً : جعل الأُستاذ بندلي مصدر معلوماته هذه ، مؤلّفات الأب اليسوعي هنري لامانس ، وهو مبشّر متعصّب معاصر[2] ، مَقَتَه قومُه لبعده المفرط عن الحقيقة ولحقده وغلوّه ، فهل يمكننا الرّكون إلى أقواله والاعتماد والبناء عليها ؟

ثانياً : وعبارة (صاحب القرآن الكريم) تدلّ دلالة واضحة على أنّ القرآن الكريم من عند محمّد بن عبد الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ، ولا شكّ أنّ هذا مخالف للحقّ الّذي يعتقده المسلمون ، ويعرفه عنهم غيرهم ، وكان يجب عليه مراعاة لمقتضيات الواقع ، والبحث العلمي النّزيه ، أن يشير إلى ذلك بصراحة ، ثمّ يبحث عن الحكمة الّتي ترمي إليها آيات القرآن الكريم من تحريم الرِّبا .

ثالثاً : القضيّة ليست قضيّة نسبة الرِّبا قليلة أو كثيرة ، فهناك ربا ، وربا فاحش ، والإسلام حرّم الرِّبا بكلّ أشكاله وأنواعه ، لأنّ فلسفة الإسلام في المال : (أنّ المال لا يلد المال) .



وأورد الأُستاذ بندلي (الصَّفحة ٣١) : « نحن لا نحب أن ندخل هنا في البحث عن صفات المصلح العربي الشّخصيّة .. وتحقيق مبادئه السّامية الّتي توصّل إليها بجهده وأصبحت جزءاً من نفسه ، اسم هذا الرّجل الّذي توافرت فيه هذه الشّروط الّتي قلّما

---

(١) المصدر (لامانس) : La Mecque ، الصَّفحة ٣٠٦ ـ ٣٣٢

(٢) مرّت ترجمته مفصّلة .

تجتمع في شخص واحد هو محمّد بن عبد الله ـ [وفي الحاشية : الأرجح أنّ اسمه قبل الدّعوة كان قُثَم[1] بن عبد اللاّت] ـ انتدب هذا الرّجل ليكون مصلحاً لبلاده ، أو كما يسمّيه القرآن منذراً وبشيراً لقومه ، فلبّى راضياً مسروراً .. » .

البحث والكلام بموضوعيّة عن صفات المصلح العربي ـ النّبيّ الكريم صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ أمرٌ ضروريٌّ ، لأنّه من الدّلائل العقليّة الّتي تثبت أنّه لم يكن رجلاً كبقيّة الرّجال ، فقد اختارته العناية الإلهيّة ، كما اختارت قبله بقيّة الأنبياء والرُّسل ، ومن الجميل أنّ الأُستاذ بندلي يعبّر عن هذا الاختيار بقوله : « انتَدِب هذا الرَّجل ليكون مصلحاً لبلاده » ، فمن انتدبه ؟!؟

أمّا اختيار اسم آخر لمحمّد بن عبد الله قبل بعثته ، فهو أمر لا يمسّ شخصه نبيّاً كريماً ، ولا يُغَيِّر من تاريخه وسيرته وعظمة رسالته شيئاً ، إلاّ أنّ هذا الأمر لم يرد له ذكر في جميع المصادر العربيّة الموثوقة ، ولا في الرّوايات المتواترة عن أخبار تلك الفترة .



وجاء في الصّفحة ٣٢ : « ثمّ صار مستخدماً أو وكيلاً في محلّ تجاري يخصّ أرملة عاقلة تكاد تكون أُمّه ، فأصبح مضطرّاً بحكم وظيفته أن يسافر كل سنة ، ويخالط النّاس ، ويطّلع على أحوالهم ويسمع شكواهم ، ويفكّر في أسباب شقاء الطّبقة الكبرى منهم ، والطُّرق الّتي يمكن أن تخفّف من وطأة الفقر والظُّلم عليهم ، فكانت هذه الرّحلات ، وهذا الاختلاط بالنّاس والإصغاء إلى أحاديثهم مدرسة عمليّة له ، أعدّته لأن يكون ذلك العامل الاجتماعي ، والمصلح الكبير ، الّذي نعرفه ، ويعرفه التّاريخ »[2] .

---

(١) قُثَم (في لسان العرب) : الذّكَر من الضّباع ، والأُنثى قَثام .

(٢) وجاء في الصّفحة ٣٣ : « لا شكّ أنّ الفقر وما يتبعه من الحالات النّفسيّة كان أكبر مدرسة للمصلح العربي » .

قارئ النّص يفهم منه أنّ محمّداً كان يقود في كلّ عام قافلة تجاريّة للسّيّدة خديجة ـ الّتي تزوّجها بعد ذلك ـ علماً بأنّ جميع الرّوايات الّتي ذكرت هذا الأمر ، أكّدت أنّ محمّداً خرج بقافلة للسّيّدة خديجة لمرةٍ واحدةٍ انتهت بزواجه منها ، ولهذا كانت جملة « هذه الرّحلات » غير صحيحة .

لقد ذهب محمّدٌ صلّى الله عليه وآله وسلّم مع عمّه أبي طالبٍ إلى الشّام ، وكان عمره آنذاك تسع سنوات فقط[1] ، وعاد ثانية مع ميسرة خادم خديجة في تجارة لها ، هذه (رحلاته) كلّها !! وهذا ما ورد في مصادرنا العربيّة ، وهي مصادر كافية وافية .



وورد في الصّفحة ٣٩ ما نصّه : « إنّ أكثر الّذين اتّبعوا في بادئ الأمر النّبيّ أو كلّهم ـ [وهنا حاشية نصّها : ما عدا عثمان بن عفّان أحد أغنياء وأدباء بني أميّة ، وربما أبو بكر الصّدّيق] ـ كانوا من طبقة الصّعاليك والأرقّاء وأصحاب الحرف الصّغيرة ، فهذا أمر معلوم ، وهذا ما لم يخفَ على أصحاب الطّبقة العُليا في مكّة كما يظهر من عباراتهم : ﴿ وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إلاَّ الَّذِينَ هُم أرَاذِلُنا ﴾ ، [هود ٢٧/١١] ، ولهذا كانوا يحتقرونه وجماعته ويُعْرِضُون عنه إلى أن قويت دعوته .. » .

من الطّبيعي أن يكون معظم من تابع محمّداً على دعوته ودينه من الضّعفاء والفقراء ، لأنّ تعاليم الدّين الجديد كانت إلى جانب أمثال هؤلاء دون أن يكون عدوّاً لغيرهم ، أو متحاملاً على الأغنياء ، لكنّه وقف إلى جانب كلّ مظلوم ومُسْتَعْبَد ، لكن هؤلاء لم يكن يُطْلَقُ عليهم اسم (الصّعاليك) ، فإنّ لهذه التّسمية مدلولاً آخرَ[2] ، فصعاليك العرب : (ذؤبانها) ، أي لصوصهم الّذين يتلصّصونَ ويتصعلكون ، وكان

---

(١) انظر : الكامل في التّاريخ ٢٣/١ ، والطّبري ٢٧٨/٢ ، وعيون الأثر ٤٠/١ ، والوفا بأحوال المصطفى لابن الجوزي ١٣١/١ ، والرّوض الأنُف ٢٠٦/١

(٢) في (لسان العرب) الصُّعلوك : الفقير الّذي لا مال له ، وصعاليك العرب : ذؤبانها ، أي لصوصهم ..

عروة بن الورد[1] . يُسَمَّى (عروة الصَّعاليك) ، لأنَّه كان يجمع الفقراء في حظيرة فيرزقهم مما يغنمه في الغزو .

أمَّا الحاشية : « ما عدا عثمان بن عفان أحد أغنياء وأُدباء بني أُميَّة ، وربما أبو بكر الصِّدِّيق » ، فيمكننا وبسهولة أن نضيف أسماء أُخرى كثيرة ، مثل : عبد الرَّحمن بن عوف ، وأبو عبيدة بن الجرَّاح ، وصهيب الرُّومي ، وأغنياء يثرب في بيعَتَيْ العقبة الأُولى والثَّانية .



قال الأُستاذ بندلي في الصَّفحة ٢٠ : الشَّعائر الدِّينيَّة في مكَّة قبل الإسلام ، « حفظها لنا الإسلام إلى هذا اليوم بدون تغيير يذكر » .

بينما قال في الصَّفحة ٤٠ : « من نتائج انتشار الدَّعوة الجديدة ودخول النَّاس فيها القضاء على الكعبة وشعائر الحجِّ والوثنيَّة الَّتي لم تكن لتلتئم مع الدِّين الجديد ، وفي القضاء على مكَّة والدِّين القديم قضاء على سكَّانها كلِّهم ، وبالأخصِّ على أصحاب الثَّروة والسُّلطة فيها » .

إنَّ عبارة « دون تغيير يذكر » ، لا تنطبق على ما أصاب الشَّعائر الدِّينيَّة في مكَّة بمجيء الإسلام ، لقد كان التَّغيير كبيراً جدّاً ، لقد تغيَّر الجوهر ، وانتقلت جميع تلك الشَّعائر من أشكالها الوثنيَّة إلى شكلٍ جديد ، جوهره التَّوحيد .

ولم يكن من نتائج انتشار الدَّعوة الجديدة القضاء على الكعبة وشعائر الحج الوثنية ، بل كان من النَّتائج للدِّين الجديد ، إعادة وظيفة الكعبة إلى ما كانت عليه يوم تأسيسها وبنائها على أيدي إبراهيم وإسماعيل ، أي طوافٌ حولها لعبادة الله الواحد - ربِّ الكعبة - وتطهيرها مما علق بها من عهود الوثنيَّة .

(١) عروة بن الورد : (ت ٥٩٦ م) ، من الشُّعراء الصَّعاليك في الجاهليَّة ، فارس مغوار كان لا ينفكُّ عن الغزوات في نجد وأطرافها ، قُتِل في إحدى المعارك ، له (ديوان) جمعه وشرحه ابن السِّكِّيت .

هذا .. وبين عبارة « حفظها لنا الإسلام إلى هذا اليوم بدون تغيير يذكر » الواردة في الصَّفحة ٢٠ ، وعبارة : « القضاء على الكعبة وشعائر الحجّ الوثنيَّة الَّتي لم تكن لتلتئم مع الدِّين الجديد » الواردة في الصَّفحة ٤٠ تناقض واضح .



وجاء في الصَّفحة ٤١ : « أشار ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ على أصحابه أن يتركوا مكَّة ويسيروا إلى المدينة الَّتي سبق وتفاهم مع بعض سكَّانها ممَّن كان يمتُّ إليهم بالخؤولة ، أو بصلة أُخرى لا نعرفها ، فتركوها وهاجروا إلى المدينة اللَّيلة السَّادسة عشرة من شهر تموز (يوليو) سنة ٦٢٢ م[1] ، وكان النَّبيُّ وصديقه الأعز أبو بكر آخر من هجر بلدته » .

ليس هناك صلة لا نعرفها بين محمَّد صلَّى الله عليه وآله وسلَّم وأهل المدينة ، والصِّلة القويَّة هي إيمان مجموعة من أبناء المدينة (يثرب) بالدِّين الجديد ، الَّذين بايعوه على نصرته : « أُبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم ، فأخذ البراء بن معرور بيد رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم وقال : نعم والَّذي بعثك بالحقّ لنمنعنَّك مما نمنع منه أُزُرَنا[2] ، فبايِعْنا يا رسول الله فنحن أبناء الحروب ، وأهل الحلقة[3] ، ورثناها كابراً عن كابر »[4] ، بناء على ذلك ، فكَّر صلَّى الله عليه وآله وسلَّم بالهجرة إلى يثرب ، وبدعوة منهم ، بعد أن رأوا في الدِّين الجديد ونبيِّه الكريم ما يجمع كلمة قبيلَتَيْ الأوس والخزرج ، ويزيل كلَّ خلاف بينهما .



(١) هجرة الصَّحابة كانت قبل هذا التَّاريخ ، وهجرته صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ، مع أبي بكر تمَّت بتاريخ ١٨ تموز (يوليو) سنة ٦٢٢ م ، وهو تاريخ وصولهما إلى المدينة المنوَّرة .

(٢) العرب تكنِّي عن المرأة بالإزار . وتكنِّي أيضاً بالإزار عن النَّفس .

(٣) الحلقة : الدُّروع ، وهنا السِّلاح عامَّة .

(٤) انظر : الكامل في التَّاريخ ٦٩/٢ ، والطَّبري ٣٦٢/٢ ، والسِّيرة الحلبيَّة ٣٤٢/١ ، وابن هشام ٦٦/٢ ، والبداية والنِّهاية ١٦٢/٣

وقال الأُستاذ بندلي في الصَّفحة ٤٤ : « لا شكَّ أنَّ النَّبيَّ العربيَّ لم يقصد بأقواله وأفعاله في مكَّة والمدينة أن يستأصل أسباب الشَّر الاجتماعي ويقتل جميع جراثيمه .. بل كانت غايته الكبرى أن يخفِّف من وطأة تلك الأمراض على بعض طبقات النَّاس ممَّن خُلقوا بعد قسمة الأرزاق ، أو وقعوا في الفقر والرِّقّ لأسباب لم يقووا على مقاومتها » .

ويتابع في الصَّفحة ٤٥ قوله : « وعليه يمكننا أن نقول إنَّ محمَّداً أجاد في وصف الأمراض الاجتماعيَّة العربيَّة وتعدادها أكثر منه في علاجها واستئصال جراثيمها ، فإنَّ تصويره لتلك الأمراض كان يبلغ أحياناً حدَّ الإعجاز ، ويحدث في عقول سامعيه ومخيّلاتهم تأثيراً لا يمحى ، أمَّا علاجه للدَّاء ، فكان أقلّ درجة من تصويره له إلاَّ ما ندر » .

وللدّلالة على صحَّة ما سبق ، ولإقناع القارئ بصواب هذا الطَّرح ، اعتمد الأُستاذ بندلي على هنري لامانس الَّذي قال عن النَّبيّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم : « إنَّ ذلك لم يكن ليحمله على قتل أسباب الاستياء قتلاً قاضياً كأن يمنع مثلاً التِّجارة الشَّخصيَّة ويجعلها كلَّها تحت مراقبة الحكومة الَّتي أسَّسها في المدينة ، أو يمنع الرِّقّ منعاً باتّاً ، أو ينتزع الأراضي من أصحابها ويجعلها ملكاً لمن يعتملها ، أو يحتكر بقيَّة مصادر الثَّروة الفرديَّة الَّتي كانت ولا تزال أصل الشُّرور الاجتماعيَّة » .

بل إنَّه قصد بأقواله وأفعاله أن يستأصل الشَّر الاجتماعي ، فالدَّلائل من سيرته في أقواله وأفعاله ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ تؤكِّد أنَّه أراد بصدق وإخلاص تنفيذ تعاليم دينه الَّتي من صلب أهدافها ولباب جوهرها ، استئصال بذور الشَّر الاجتماعي في تحريمه للرِّبا والزِّنا والخمر والظُّلم والاستغلال وأكل أجر العامل .. هل كان هذا التَّحريم تخفيفاً فقط ، أو كان اقتلاعاً للجذور من أساسها ؟

أمَّا بالنِّسبة للرِّق ، فقد مرَّ بمرحلة موقَّتة طلب فيها الرِّفق وحسن المعاملة للرَّقيق ، ريثما يصل المجتمع حسب الخطَّة المرسومة لديه إلى انتهاء مرحلة الرِّق نهائيّاً .

لقد حرّم الإسلام الرّقّ بكلّ أنواعه ، ولم يُبِحْ منه إلاّ مصدر الحرب ، معاملة بالمثل ، فقد كان غير المسلمين يستحلّون استرقاق المسلمين ، فكان لابُدَّ أن يعاملهم المسلمون بالمثل ، وحتّى في العصور الحديثة اليوم ، ماذا يحدث لو لم يصبح تبادل الأسرى معاملةً متّفقاً عليها بين المتقاتلين ؟

ويمكن القول : إن الإسلام ضيّق مداخل الرّق ، ووسّع مخارجه ، أو ضيّق موارده ، وأفْسَحَ مصارِفَه ، ووضع تنظيماً لتبادل الأسرى ، حتّى إذا بقيت لأحد الجانبَيْن بقيّة من الأسرى افتديت بالمال ، وهو بذلك ألغى جميع مداخل الرّق ، ولم يبقَ منها إلاّ مدخلاً واحداً ، وقد ضيّقه حتّى لم يعد ينفذ منه إلى الرّق إلاّ القليل النّادر أشدّ النّدرة .

إنّ الأحكام الّتي أصدرها الأُستاذ بندلي ، وجهة نظر تؤمن بإديولوجيّة معيّنة تعتقد بأنّ الشّرور تكمن في الملكيّة الفرديّة ، وفي امتلاك الأفراد لمصادر الثّروة ، وقد أثبتت الأيّام الّتي مرّت بعد وفاة الأُستاذ بندلي ، أنّ هذه الأحكام ليست صحيحة ، أو على الأقل لاتؤمن أكثريّة النّاس بصحّتها ، بل وتطوّر الأحداث أثبت أنّ الشّعوب بأغنيائها وفقرائها ، ليسوا مع هذه النّظريّة تماماً ، فهي مع العدالة الاجتماعيّة ، وليست مع القضاء نهائيّاً على المُلكيّة الفرديّة . وهذا ما يتناسب مع فطرة الإنسان .



وجاء في الصّفحة ٤٨ : « المدينة ـ وأكثر سكانها فلاحون فقراء ـ غير مكّة صاحبة الثّروة والتّجارة الواسعة ، وعليه فاللّسان الّذي كان يصلح في مكّة ، لم يعد يصلح في المدينة ، بل لم يعد مفهوماً هناك ، والغاية الّتي أخذ يرمي إليها النّبيّ في المدينة ، ويعمل على تحقيقها هي غير غايته في مكّة ، وفوق ذلك فإنّ سياسته مع المكّيّين قد تغيّرت كثيراً في المدينة تحت تأثير عوامل جديدة ، ولأسباب عديدة أوجدتها الظّروف ، وأدّى إليها الاختيار وحبُّ النّبيّ لوطنه الأصلي وأهله وذويه ، إلى غير ذلك من الانفعالات النّفسيّة ، والعوامل السّياسيّة الّتي ظهرت بعد موقعَتَيْ بدر وأُحُد

وحصار المدينة ، وكان من نتائجها أنّ النّبيّ أخذ يلطّف من سياسته نحو إخوانه المكّيّين » .

لسان النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلّم في مكّة ، هو لسانه في المدينة ، ربّما تغيّر أسلوب العمل مع تغيّر أو تطوّر التّشريع الّذي استوجبه المجتمع الإسلامي الجديد في تطوّره ، والّذي تطلّبته الدّعوة في تطوّرها نحو التّكامل ، لأنّ رسالة الإسلام لم تنزل دفعة واحدة ، ولكن الأهداف والغايات للنّبيّ في مكّة ، وهي فترة بناء الفرْد المسلم والصّبر على أذى قريش ، هي ذاتها في المدينة ، وهي فترة بناء الدّولة بعد تغيُّر الأحوال ، حيث انقضى دور الضّعف وقلّة الأتباع ، وحلّ دور القوّة في المدينة ، القوّة بكثرة الأتباع ، وصار في موقفه الجديد يستطيع ردّ كيد المعتدين- ، والضّرب على أيدي المهاجمين الظالمين ، والأخذ على أيديهم لنصرة الضّعفاء والمظلومين .

إنّ سياسته صلى الله عليه وآله وسلّم لم تتغيّر مطلقاً ، لقد بدأ دعوته في مكّة بالكلمة الطّيّبة ، والفكرة تغرس في العقول والنّفوس ، وعرض نفسه في موسم الحجّ على القبائل ، فاستجاب نفرٌ من الأوس والخزرج أهل يثرب ، وبقي يدعو في مكّة ثلاث عشرة سنة محتملاً الأذى والظّلم والألم والاضطهاد من قريش ، ثم هاجر إلى المدينة ، وصادرت قريش أموال المسلمين ، مضيفة ظلماً جديداً إلى مظالمها السّابقة ، وفي المدينة أعلن صلى الله عليه وآله وسلّم حرباً اقتصاديّة بدأتها قريش منذ حصارها للمسلمين في شِعْب أبي طالب ، ليرغمها على الاعتراف بحقوق المسلمين في مكّة ، وبحقّه في نشر دعوته .

هذا .. وعرف عنه صلى الله عليه وآله وسلّم بُعْدهُ عن الانفعالات النفسيّة الآنيّة ، كردود فعل للأحداث السّياسيّة[1] ، علماً أنّ قريشاً هي الّتي سارت إلى بدر سنة

(١) لم يذكر ﷺ في أوّل خطبة له في المدينة المنوّرة قريشاً ، التي أخرجته من مكّة وطاردته ، مع أنّ ذلك كان موضوع السّاعة ، فهو ﷺ يرى في الهجرة كلها صورة عارضة في مسيرة الدّعوة ، وسيعود ﷺ فاتحاً ، مزيلاً وثنيّة قريش ، مالكاً لمفتاح الكعبة المشرّفة .

٦٢٤ م ، وهي الَّتي سارت إلى أُحُد سنة ٦٢٥ م ، وهي الَّتي سارت مع أكبر حشد أمكنها جمعه إلى حصار المدينة سنة ٦٢٧ م . رغم ذلك كانت سياسته الإنسانيَّة الرَّحيمة هي هي ، في مكَّة وفي المدينة ، ولكن من غير جُبْنٍ أو انفعالات آنيَّة ، فمنذ أيَّام الاضطهاد في مكَّة : ﴿ وَٱصْبِر كَمَا صَبَرَ أُولُـو العَـزْمِ مِنَ الرُّسُـلِ وَلا تَسْتَعْجِـل لَهُم ﴾ ، [الأحقاف ٣٥/٤٦] ، وبعد الهجرة وقيام الكيان السِّياسي للدَّولة الإسلاميَّة النَّاشئة : ﴿ أُذِنَ لِلَّـذينَ يُقاتَلون بِأَنَّهُم ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلى نَصْرِهِم لَقَـدِير ، الَّـذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إلاَّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنـا الله ﴾ ، [الحج ٣٩/٢٢ و ٤٠] ، ﴿ وَقـاتِلُوا في سَبيلِ الله الَّذينَ يُقاتِلُونَكُم وَلا تَعْتَدُوا إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ ، [البقرة ١٩٠/٢] .

وعندما دخل صلى الله عليه وآله وسلّم مكَّة سنة ٦٣٠ م فاتحاً منتصراً ، بقي بعيداً جدّاً عن الانفعالات النَّفسيَّة ، وسأل : « يا معشر قريش ، ويا أهل مكَّة ، ماترون أنِّي فاعلٌ بكم ؟ » ، فأجابوه على لسان سهيل بن عمرو : « نقول خيراً ، ونظنُّ خيراً ، أخٌ كريم ، وابن أخٍ كريم وقد قَدِرت » ، أجابوه بهذه العبارات لأنَّهم أعلم النَّاس ببعده عن الانفعالات تبعاً للظروف ، مع أنَّهم هم الَّذين طاردوه وطلبوه للقتل ، واستحلُّوا أملاك المسلمين .. وعلى الرغم من ذلك قال لهم : « اذهبوا فأنتم الطُّلقاء » .

ويتابع الأُستاذ بندلي آراءه في المجال ذاته قائلاً في الصَّفحة ٥٠ : « يخال لي أنَّ من جملة الشُّروط الَّتي اتَّفق عليها الطَّرفان في الحديبية[1] أو في مكان وزمان آخرين أن يكفَّ النَّبيُّ عن الطَّعن في الملأ المكِّي ، وأن لا يحرِّض صعاليك العاصمة الحجازيَّة وأرقاءها عليه ، وهذا على ما يظهر لي أحدُ وأهمُّ أسباب خلوّ السُّوَر المدنيَّة ، ولا سيَّما تلك الَّتي نزلت في الدَّور الأخير من العبارات القارصة والطَّعن في سكَّان مكَّة ، وهناك سبب آخر لا يقل خطورة عن الَّذي ذكرناه الآن ، وهو أنَّ حالة النَّبيِّ الاجتماعيَّة في المدينة تغيَّرت كما هو معلوم تغيُّراً ظاهراً أدَّى إلى تغييرٍ في نفسيَّته ، وهذا شيء طبيعي قلَّ من ينجو منه ، فكان من نتائج هذا التَّغيير . ومن الأسباب الَّتي ذكرنا بعضها

(١) صلح الحديبية في شباط (فبراير) ٦٢٨ م .

وغيرها مما لم نذكر أنَّ بعض إصلاحات النَّبيِّ الاجتماعيَّة والدِّينيَّة جاءت مبتورة ، وفيها شيءٌ مما يدعوه الأوربيُّون بالتَّساهل (Compromis) ، ربَّما كان لشخصيَّة النَّبيِّ ومميِّزاته القوميَّة أثرٌ في ذلك يصعب تعريفه وتحديد مقداره .. » .

ويكرِّر في الصَّفحة ٥١ : « وهي سياسة اقتضتها الظُّروف الجديدة ، وما طرأ على نفسيَّة النَّبيِّ من تغيِّير » .

لن أعود لمناقشة عبارات : « حالة النَّبي الاجتماعيَّة في المدينة تغيَّرت » ، و « ما طرأ على نفسيَّة النَّبي من التَّغيير .. » ، ولكن أقول : صحيح ما جاء في قول الأُستاذ بندلي : « خلو السُّوَر المدنيَّة ولا سيَّما تلك الَّتي نزلت في الدَّور الأخير من العبارات القارصة والطَّعن في سكان مكة » ، وهذا أمرٌ طبيعيٌّ بعد صلح الحديبية سنة ٦ هـ / ٦٢٨ م الَّذي نَصَّ على وَضْع الحرب عن النَّاس عشر سنين تأمن فيه النَّاس ، ويكفُّ بعضهم عن بعض ، وشرطوا أنَّه من أحبَّ أن يدخل في عقد محمَّد وعهده دخل فيه ، ومن أحبَّ أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه . وبذلك فسحت قريشٌ الطريقَ لدعوة النَّبيِّ محطِّمةً كبرياءَها ، الَّتي لولا قوَّة النَّبيِّ والمسلمين المتناوبة لما تنازلت عنها ، فَلِمَ بعد الصلح من جهة ، وبعد فتح مكَّة ودخول قريش في دين محمَّد سنة ٦٣٠ م « العبارات القارصة والطَّعن في سكان مكَّة » ؟ .

وأقول : ليت الأُستاذ بندلي أورد أحد تلك الاصطلاحات الَّتي جاءت مبتورة ، أو فيها تساهل ، علماً بأنَّ التَّساهل هو غير البتر ، فهل تساهل النَّبيُّ في أمر التَّوحيد ، وهو القاعدة الَّتي يقوم عليها الإسلام ؟ وهل تساهل بفريضة فرضها الله كالصَّلاة والزَّكاة ؟ وهل تساهل بحدٍّ من حدود الله ؟ وهذا لا يتعارض مع كون الآيات كانت تأتي مناسبة للظُّروف المستجدَّة ، وهو أمر طبيعي في بناء الدَّعوة وتطوُّرها حتَّى كَمُلَت .

☆ ☆ ☆

وجاء في الصّفحة ٥٣ : « وأغرب من ذلك وأنكى ، أنّ تجّار مكّة في الأمس ، قد استفادوا من الحركة الإسلاميّة ، وبعض أفكار ومبادئ عدوّهم ، فأسّسوا دولة من أعظم دول العالم ، تكاد لا تكون بينها وبين (الأُمّة) الّتي أوجدها النّبيّ علاقة تذكر » .

عجيب هذا الرّأي وغريب ، فالأُستاذ بندلي يقصد بتجّار مكّة الّذين أسّسوا دولة من أعظم دول العالم بني أُميّة ، والدّولة الأُمويّة ، ودولة بني أميّة قامت على تعاليم الإسلام ، وطبّقت شريعته ، وتقدّمت جيوشها شرقاً وغرباً تحمل إلى الشّعوب لا منتجات مكّة ، ولا صادرات الحجاز ، ولا سِلَع الجزيرة العربيّة ، بل تحمل دعوة النّبيّ وتعاليم دينه ، ولهذا .. فإنّ الّذي ساد تحت ألوية من سمّاهم الأستاذ بندلي « تُجّار مكّة » من بني أميّة ، إنّما هو الإسلام ، ولغته العربيّة ، لغة القرآن الكريم ، والشّواهد ما زالت قائمة حتّى اليوم في تلك البقاع ، تتحدّث عن الإسلام ونبيّه وشريعته ، وليس عن تجّار مكّة أو بني أميّة .



الفَصْلُ الثّاني : الإمبراطوريّةُ العربيّةُ والأُممُ المغلوبَةُ

يقول الأُستاذ بندلي في الصّفحة ٥٥ : « لا ريب في أنّ اشتغال العرب بالفتوحات الواسعة ، وتمصير البلدان ، مع ما تبع ذلك من تدفّق الأموال المغتصبة والمجموعة بشتّى الطّرق إلى جزيرة العرب ، وتفرّق القبائل العربيّة في عرض البلاد المفتوحة وطولها ، أَلْهَتْهم زمناً طويلاً عن التّفكير في المسائل الاجتماعيّة الّتي كانت أهم بواعث الحركة الإسلاميّة ومصدر ثروتهم ، بل ربّما أنستهم إياها .. » .

ليست الأموال الّتي تدفّقت على العرب المسلمين مغتصبة ، فالأمثلة من التّاريخ تثبت أنّ سكان البلاد الّتي فتحها العرب المسلمون رحّبوا بهم لما سمعوا عن عدلهم بعد عهود من الظّلم وجباية الأموال والضّرائب الثّقيلة . فعندما انسحب جيش المسلمين بقيادة أبي عبيدة بن الجرّاح من حمص ، أعاد إلى أهل حمص ما أخذوه منهم قُبالة

حمايتهم ، وقالوا لهم : شُغلْنا عن نصرتكم والدَّفع عنكم ، فأنتم على أمركم ، فقال أهل حمص : إنَّ ولايتكم وعدلكم أحبُّ إلينا مما كنَّا فيه من الظُّلم والغشم ، ولندفعن جند هرقل عن المدينة[1] ..

وفي مصر ، دفع أهلها عُشْرَ ما كانوا يدفعونه للرُّوم البيزنطيِّين .

وفي إسبانية ، كما يذكر (دوزي Dozy) : تَسَامَحَ العرب في إسبانية كمظهر لرحمة الفاتحين ، ويسَّروا الضَّرائب الَّتي فُرِضَت ، والَّتي كانوا يدفعون أضعافها مضاعفة[2] .

وجاء في كتاب (فتح السِّند)[3] : « ثمَّ أُعطي الأمانُ للصُّنَّاع والتُّجَّار وعوام النَّاس ، وتركوا بعضاً من أسراهم ، وتشكَّلَت محكمة لردِّ المظالم ، ومحاكمة الَّذين حملوا السِّلاح وقاتلوا ضدَّ المسلمين ... ثمَّ نودي على العوام المتضرِّرين بالحرب ، والَّذين نُهِبَت أموالهم أثناء القتال من عوام النَّاس والصُّناع والتُّجَّار والكسبة الصِّغار ، وتقرَّر إعطاء كل منهم اثني عشر درهماً .. » .

ومن يصبح فقيراً أو محتاجاً من غير المسلمين ، فلا يعفى من الضَّريبة فحسب ، بل يجري له عطاء من بيت المال ، لذلك قال المؤرِّخ الفرنسي غوستاف لوبون[4] : « ماعرف التَّاريخ فاتحاً أرحم من العرب » .

ولم يذكر الأُستاذ بندلي ماالمشكلات الاجتماعيَّة الَّتي نسيها العرب المسلمون في غمرة فتوحاتهم وغناهم ، ولِمَ القول : إنَّ تلك المسائل الاجتماعيَّة هي أهمُّ بواعث الحركة الإسلاميَّة ؟ وأين الدَّليل ؟

---

(١) فتوح البلدان (البلاذري) ، ص ٧ ، الدعوة إلى الإسلام (توماس آرنولد) ، ص ٧٩

(٢) الدَّعوة إلى الإسلام ، ص ١٥٧

(٣) فتح السِّند ، أبو المظفَّر محمَّد بن سام ، ص : ٢٧٠٢ و ٢٤٧٢ و ٢٤٧٣ ، الطبعة العربية - دار الفكر بيروت ، تحقيق د . سهيل زكَّار .

(٤) صاحب كتاب : (حضارة العرب) نشر : دار إحياء التراث العربي - بيروت ، الطَّبعة الأولى ١٩٤٥ م .

الإسلام هو الحلقة الأخيرة من حلقات الشّرائع السّماويّة ، والباعث الأساسي لـه ، إعادة النّاس إلى جادة التّوحيد ، لأنّ الشّرك والوثنيّة وعبادة غير الله الخالق ، لون من ألوان انحطاط العقل البشري وانحداره .



وجاء في الصّفحة ٥٦ : « إنّ نظام الضّرائب الّذي وضع أساسه المصلح العربي ، مع ماأدخله عليه خلفاؤه من التّغيير والزّيادات ، ولا سيّما عمر بن الخطّاب مؤسّس الإمبراطوريّة العربيّة الحقيقي ، وواضع دستورها ونظامها ، ثمّ خلفاء بني أميّة ، كان عبئاً ثقيلاً على عاتق الأمم المغلوبة أكثر منه على عاتق الأمّة الفاتحة ، وذلك لأنّ هذه الأمم كالأقباط والسّريان والفرس والتّرك إلخ ، كانت مضطّرة بحكم هذا النّظام أن تؤدّي ـ ماعدا ضريبة الأراضي ـ الْخَراج والجزية ، ضرائبَ ورسوماً أخرى على الصّنائع والحرف ، ربما كانت أشدّ وطأة على الأقوام المذكورة من الْخَراج والجزية ، لأنّها لم تكن محدّدة معروفة ومبنيّة على قاعدة مقبولة ، وكان مقدارها وزمن تأديتها منوطَيْن بعمّال الخليفة ، وجباة المال ، بعكس الخراج والجزية ، فإنّهما كانا محدّدَيْن ومعروفَيْن من قبل » ، ومصدر هذه الآراء : « أبحاث عن خلافة معاوية الأوّل ، ص ٢٣٣ » للأب اليسوعي هنري لامانس .

وفي الصّفحة ٥٨ ، شبّهت الشّعوب المغلوب « ببَقرةٍ حلوب » .

مِنَ الممكن القول : إن ماقاله هنري لامانس قول فاسد في أرومته ، « يفتقر افتقاراً تامّاً إلى النّزاهة في البحث ، والأمانة في نقل النّصوص وفهمها ، ويعدُّ نموذجاً سيّئاً جدّاً للباحثين في الإسلام من بين المستشرقين .. وهو لا يسوق أيّ دليل نقلي أو عقلي .. بل يُلْقي الكلام جزافاً ، ويعتمد على تحكمات ذهنيّة استقرّت حسب معانٍ ذهنيّة سابقة .. ويفهم النّصّ فهماً ملتوياً خبيثاً ، أو يستخرج إلزامات بتعسّف شديد ، يدلّ على فساد الذّهن وخبث النّيّة »[1] .

(١) كما جاء في موسوعة المستشرقين ، ص ٣٤٧ وما بعدها .

ومع ماسبق أُضيف الملاحظات التَّالية :

١ ـ لم يكن عمر بن الخطَّاب في يوم من الأيَّام واضع دستور الإمبراطوريَّة العربيَّة[1] ، لأنَّ دستور هذه الإمبراطوريَّة هو القرآن الكريم ، ويمكن القول إن عمر بن الخطَّاب منظِّم ، أو موطِّد الإمبراطوريَّة العربيَّة ، ولسنا هنا في معرض شرح كيف حلَّ المشكلات الَّتي استجدت بعد توسُّع الفتوح ، ولكن التَّاريخ يذكر أنَّها حُلَّت على ضوء القرآن الكريم والسُّنَّة الشَّريفة ، لا حسب أهواء عمر ودستوره ونظامه الخاص .

٢ ـ أمَّا نظام الضَّرائب ، فلم يكن عبئاً ثقيلاً على عاتق الشُّعوب ، وعند قولنا ضريبة الأراضي ، فهي ليست إلاَّ ضريبة الْخَراج ، ولو عدنا إلى تعريفه لوجدنا أنَّه ضريبة الأراضي الَّتي فتحها المسلمون وتركوها بأيدي أصحابها ، ومثل هذه الضَّرائب تدفع الشُّعوب اليوم إلى حكوماتها أضعاف أضعافها ، ولا نقول إنَّها عبء ثقيل ، والمسلم في تلك الدَّولة يدفع مثل تلك الضَّرائب أعشاراً وزكاة ، وربما زادت عليها .

٣ ـ أمَّا قول لامانس : لم تكن ـ الضَّرائب ـ محدَّدة معروفة ، ولم تكن مبنيَّة على قاعدة مقبولة ، هذا ينطبق على دولة الرُّوم البيزنطيين ، جاء في كتاب الْخَراج[2] (ص : ٨٣) : « ويُعيَّن مقدار الجزية اعتباراً لحالتهم الاقتصاديَّة ، فيؤخذ من الموسرين أكثر ، ومن الوسط أقل منه ، ومن الفقراء شيء قليل جدّاً ، والَّذين لا معاش لهم أو هم عالة على غيرهم فيعفون من أداء الجزية » ، وهي مقابل الحماية الَّتي كفلها لهم المسلمون ، « لأنَّ قبول الجزية تثبت معه عصمة الأنفس والأموال » .

أمَّا تشبيه الشُّعوب المغلوبة « بالبقرة الحلوب » ، فهو تشبيه مقتبس من (يوليوس فلهاوزن) صاحب كتاب (تاريخ الدَّولة العربيَّة) ، الصَّفحة ٢٧ : « الذِّميُّون بقرة .. الوالي يمسكها من قرونها حتى تسكن ، وعامل الْخَراج يحلبها » !؟!

---

(١) والأصح « الخلافة العربيَّة الإسلاميَّة » ، لأنَّه لم يتربَّع في عاصمة الدَّولة إمبراطور ، بل خليفة .

(٢) وهو من أوثق وأشهر كتب المال والسِّياسة الاقتصادية وأسسها في الدَّولة الإسلامية .

وجـاء في الصَّفحـة ٦١ : « انتقـال الخـلافـة سنــة ٦٦١ إلى بني أميَّــة خصـوم النَّبيِّ والإسلام حتَّى سنة ٦٢٨ م » .

لقـد كانت الهجرة إلى المـدينـة سنـة ٦٢٢ م ، وبعـد ثمـاني سنوات كان فتـح مكَّـة وإسلام الطُّلقاء ، إذن تصوَّب العبارة إلى : « حتَّى سنة ٦٣٠ م » ، هذا .. وهل التَّعميم الوارد في العبارة صحيح سليم ؟

بنو أميَّـة ليسوا خصومـاً للنَّبيِّ ، فقـد كان منهم من اعتنق الإسلام مخلصاً صـادقـاً كعثمـان بن عفّـان ، ومنهم من خـاصم النَّبيَّ ، أمَّـا بعـد فتح مكَّـة فقـد اعتنقـوا جميعـاً الإسلام ، ولا يمكن القول ـ بموضوعيَّة ـ إنَّ بني أميَّة ـ ويقصد بهم خلفـاء بني أميَّـة ـ هم خصوم النَّبيِّ ، فـلا عبـد الملـك بن مروان ، ولا الـوليـد بن عبـد الملـك ، ولا عمر بن عبد العزيز ، ولا الأُمويُّون في الأندلس ، خصوم النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلَّم .



وجاء في الصَّفحة ٧٠ : « ثمَّ قَتْلُ البرامكـة ـ من قِبَل هـارون الرَّشيـد ـ واضطهـاد من سَلِم من أصحابهم وموالي الأُسرة السَّابقة ، إلى غير ذلك من مظاهر الظُّلم » .

لا يجوز للمؤرِّخ المطَّلع ، وللمفكِّر البـاحث المنصف ، أن يقـول : إنَّ قتـل الرَّشيـد للبرامكـة ـ ومن والاهم ـ هـو من مظـاهر الظُّلم ، والمـوضـوع كبير متشعِّب ، لا مجــال لبحثه مطوَّلاً ، فقد أشبعته دراسةً في كتابي (هارون الرشيد : أمير الخلفاء وأجلُّ ملوك الدُّنيا)[1] ، ويمكنني إيجاز الأمر بأسطر :

إنَّ نكبـة البرامكـة نكبـة وهلاك جمـاعي ، فهو لا بُـدَّ عقـاب على فعـل جمـاعي ، خُطِّط له لكنه لم يتم ، فالرَّشيد نكب البرامكة لأنَّهم كانوا يميلون إلى كسرويَّة فارسيَّة ، يظهرون إسلامـاً ، ويبطنون مجـوسيَّـة ، وحمـوا بجـاههم ، وبـالأمـوال الَّتي وضعت بين

(١) طبع دار الفكر بدمشق (عدَّة طبعات) .

أيديهم الثَّقافة الفارسيَّة ، ونشروها بما لهم من جاه وسلطان ، روى الجاحظ عن ثمامة[1] ، قال : كان أصحابنا يقولون : لم يكن يُرى لجليس خالد - البرمكي - دار إلاَّ وخالد بناها له ، ولا ضيعة إلاَّ وخالد ابتاعها له ، ولا ولد إلاَّ وخالد ابتاع أُمَّه إنْ كانت أمَةً ، أو أدَّى مهرها إنْ كانت حُرَّة ، ولا دابَّة إلاَّ وخالد حمله عليها[2] ..

لقد نكب الرَّشيد البرامكة لمضاهاتهم له ، والبدء بترك مشورته ، والبتِّ في الأُمور دون الرُّجوع إليه ، حتَّى استعمل عدد من المؤرِّخين عبارة « دولة البرامكة »[3] ، وبالفعل فقد أصبحوا دولة ضمن دولة ، ولم يكن الرَّشيد ذلك الخليفة السَّاذج البسيط ، ليدع لهم الحبل على الغارب .

ويمكن القول أيضاً : نكب الرَّشيد البرامكة بسبب استعمال السُّلطة ، أطلقوا عدوَّ الرَّشيد (يحيى بن عبد الله ووجَّهوا معه من أوصله إلى مأمنه) دون علمه أو إذنه ، فكانت إنسانية الرَّشيد العالية ، تستحيل قسوة ضارية كلَّما كانت الدَّولة محلَّ هجوم عليها ، أو دفاع عنها .

ولم يكن البرامكة من البساطة أو السَّذاجة بمكان ، بل كانوا في غاية اللَّباقة والعلم ، أو ما يعرف في عصرنا اليوم (بالبروتوكولات) ، لقد كانوا على ذكاء يساعدهم على تنفيذ مهمتهم ، ومثلهم من ينتقى لمثل أعمالهم .

وكان الرَّشيد يقول بحقِّهم : « من يرد غير مائه ، يصدر بمثل دائه ، ومن لم يؤدِّبه الجميل ، ففي عقوبته إصلاحه » ، ولم يندم مطلقاً على فعلته ، وأبقى يحيى البرمكي في سجن الرَّقة حتَّى توفي سنة ٨٠٥ م وهو ابن سبعين سنة[4] .

---

(١) ثمامة بن أشرس النميري [ت ٢١٣ هـ / ٨٢٨ م] ، أحد الفصحاء البلغاء ، كان له اتِّصال بالرَّشيد ثم بالمأمون ، وكان ذا نوادر وملح ، من تلاميذه الجاحظ ، وأراد المأمون أن يستوزره فاستعفاه . [الأعلام ١٠٠/٢] .

(٢) تاريخ بغداد ١٤٤/٤

(٣) أوردها المسعودي ص ٣٩٨ ، والفخري ص ١٩٧

(٤) تاريخ بغداد ١٣٢/١٤

وعلى ماسبق .. إن نكبة البرامكة ليست من مظاهر الظُّلم مطلقاً ، إنَّها هلاك جماعي ، على فعل جماعي ، من مظاهره : (إساءة استعمال السُّلطة) ، حتى أصبحوا : (دولة ضمن دولة) ، فهل يَدَعُهُم الرَّشيدُ ؟!؟



الفصلُ الثَّالِثُ : حَرَكَةُ بابَكَ وتَعالِيمُهُ الاشتراكيَّة

جاء في الصَّفحة ٨٢ : « إنَّ قسماً كبيراً من جيش بابَك اجتاز الحدودَ البيزنطيَّة بعدما أصاب بابَك من الفَشَل ، ونزل في أرض الرُّوم على الرّحب والسَّعة ، وهناكَ تنصَّر » ، وكرَّر ذلك في الصَّفحة ١١١ : « واضطرَّت فلوله إلى الهرب إلى بلاد الرُّوم ، حيث تنصَّروا ، ودخلوا في خدمة إمبراطور القسطنطينيَّة[1] » .

وفي الصَّفحة ٨٤ : « قال مازيار[2] في جلسة من جلسات المحكمة العرفيَّة المذكورة ، إنَّ حيدر الأفشين[3] كتب إليه يقول : لو اتَّبعتني لاستطعنا أن نقضي على الإسلام ، ونرجع إلى ديننا الفارسي القديم » .

وفي الصَّفحة ٨٥ : « إنَّ الغاية الكبرى من هذه المؤامرة هو سحق السُّلطة العربيَّة في تلك البلاد ، والقضاء على الإسلام وأهله » .

وهنا يمكن التَّساؤل : وهل في تنصُّر هذا القسم الكبير ـ كما في الصَّفحتَيْن ٨٢ و ١١١ ـ من جيش بابَك تحقيق للأهداف الاشتراكيَّة ؟ وهل ينعم الشَّعب بالاشتراكيَّة

---

(١) إمبراطور الرُّوم تيوفيل [ت ٢٢٩ هـ / ٨٤٣ م] في زمن الواثق ، فنصَّبوا ابنه ميخائيل في كفالة أمِّه (ندورة) .

(٢) مازيار [ت ٨٣٩ م] : آخر سلاطين بني قارن (طبرستان) ، ثار على المعتصم ودعا الفلاحين إلى الثَّورة على سادتهم .

(٣) الأفشين : حيدر بن كاوس الآشروسني ، والأفشين لقب لملوك أشروسنة ، وأشروسنة كورة من بلاد ماوراء النهر ، شرقيها فرغانة ، وغربيها سمرقند .

إذا قُضي على الإسلام ، مع العودة إلى الدّين الفـارسي القـديم كما في الصَّفحـة ٨٤ ؟ وهل تتحقّق العدالة الاجتماعيّة بعد سحق السُّلطة العربيّة في تلك البلاد والقضاء على الإسلام وأهله ، كما في الصّفحة ٨٥ ؟



ووردت عبارة غريبة في صفحات كثيرة هي : « استناداً على أقوال كَتَبَـةِ المسلمين عن حركة بابَك وتعاليمه » ، « ذكر بعض مؤرّخي العرب » ، [الصّفحة ٨٩] .

« الكَتَبَةُ المتأخّرون » ، [الصّفحة ٩٩] .

« وهناك فئة أخرى من الكتبة وجلُّهم من المتأخّرين البعيدين عنـه زمن الحركـة البابكيّة » ، [الصّفحة ١٠٠] .

« كَتَبَةُ الإسلام » ، [الصّفحة ١٣١] .

« أكثر الكتبة المتأخّرين » ، [الصّفحة ١٤١] .

« إنّ تعريف بعض الكتبة للإسماعيليّة .. » ، [الصّفحة ١٤٤] .

« كتبة العرب والفرس وشعراؤهم » ، [الصّفحة ١٥٢] .

« من أقوال بعض كتبة العرب عن القرامطة » ، [الصّفحة ١٩٩] .

« كتبة العرب والفرس » ، [الصّفحة ٢٠٠] .

« أقوال بعض الكتبة » ، [الصّفحة ٢١٠] .

« بعض الكتبة المتأخّرين » ، [الصّفحة ٢١١] .

« أقوال كتبة الأعصر المتأخّرة » ، [الصّفحة ٢٢٢] .

« كتبة العرب » ، [الصّفحة ٢١٥] .

لاأدري لماذا استعمل الأُستاذ بندلي في هذه الجمل كلمة (الكتبة) ، ولم يعترف للعرب المسلمين بمؤرّخين ، فهل كان كلُّ مَنْ كَتَبَ عن بابَك والبابكيَّة ، والإسماعيليَّة والقرامطة ، هم من الكتبة ؟ أما كان بينهم من يستحق لقباً آخر ؟ أليسوا هم الَّذين أرَّخوا لنا تلك الفترة من تاريخ العرب والإسلام ؟ أليس بينهم علماء ومؤرّخون ؟

هذا .. وعلم (مصطلح التَّاريخ) ، أو : المنهج العلمي في دراسة التَّاريخ ، علم لبابه وجوهره عربي إسلامي ، أسَّسه العلماء المسلمون عندما وضعوا القواعد للتَّوصُّل إلى الحديث الشَّريف الصَّحيح ، ولو اطَّلع الأوربيُّون على مصنَّفات أئمَّة الحديث الشَّريف ، لما تأخَّر تأسيس علم (مصطلح التَّاريخ) ، أو البحث المنهجي في دراسة التَّاريخ حتَّى أواخر القرن التَّاسع عشر ، والمنصفون الأوربيون يعلمون أنَّ ما يفاخرون به اليوم ، علْمٌ نشأ وترعرع في بلادنا العربيَّة الإسلاميَّة .

فالموضوعيَّة والنَّزاهة ، والبحث العلمي بما فيه من تمحيص وتدقيق وتثبُّت ودراسة للرَّاوي والرِّواية .. نحن قدمناه إلى العالم ، وهذا لا يمنع مناقشة وتمحيص بعض الرِّوايات بِسَوْقِ دليل نقلي ، أو عقلي موثَّق مقبول ، لا يتناقض مع الرِّوايات الصَّحيحة السَّليمة .

فالموضوعيَّة تفرض علينا أنَّ الخبر الوارد في مصادرنا الموثوقة ، خبر موثوق ، لا داعي لتمريضه وتوهينه ، والارتياب بصحَّته ، لأمر ما ، حَسُنت النِّيَّة في تمريضه أمْ ساءت .

« كَتَبَةُ العرب » ، عبارة ظالمة ، لا تليق بالمؤرِّخين العرب الكبار .



وفي الصَّفحة ٩١ : « إنَّا لنأسف جداً أنَّ مؤرِّخي الفرس والعرب لم يحفظوا لنا برنامج بابَك الاجتماعي بحرفه الواحد ، وإنَّ الشَّيء القليل الَّذي حفظوه لا يشفي غليلاً ، ولا يحلُّ الألغاز والصُّعوبات الَّتي يجدها الباحث في تاريخ الحركة البابكيَّة وغايتها » ، وفي هامش الصَّفحة المذكورة : « نجد خرافات وتُرّهات عديدة عن الخُرَّميين في كتاب (البدء والتَّاريخ) لمطهر بن طاهر المقدسي » .

ألَمْ نتساءل قبل الأسف ، لماذا لم يحفظ مؤرّخو الفرس والعرب ذلك البرنامج الاجتماعي لبَابَك ؟ وإذا صحّ وجود برنامج اجتماعي له ، فلماذا لم تشر إليه المصادر الأجنبيّة الأُخرى ؟ فهل كتبت مصادر الرُّوم شيئاً عنه ، خصوصاً وإنَّ جماعة بَابَك التجؤوا إلى بلاد الرُّوم وتنصَّروا ، كما يذكر الأُستاذ بندلي ؟

على ذلك .. ألا يمكن القول : لم يكن لديهم برنامج إصلاح اجتماعي ؟! وإلاَّ لأورد أطرافه المؤرّخون العرب ، وأتمّه المؤرّخون الفرس أو المؤرّخون البيزنطيّون .

☆ ☆ ☆

وفي الصّفحة ١٠٣ : « إنَّ الطَّبيعة والعدل يقتضيان أن لا يكون لأحدٍ أراضٍ أو عقار أو نساء أكثر مما لغيره ، وعلى ذلك يجب عند اختلال هذه القاعدة ، أن يؤخذ من الغنيّ المغتصب ما يزيد على حاجته ويُعطى المحتاجون ليعود النَّاس إلى المساواة الأصليَّة ، وأن يكون المُلْك والنِّساء شائعة كالماء والنَّار والمراعي .. هذا هو العمل الطَّيِّب الَّذي يرضي الله ويجازي المرء عليه أضعافاً » .

من قال إن العدل أن يتساوى الكسول والمُجد ؟

وأن يعطى من مال المنتج العامل بنشاط إلى المتسكِّع الخامل ؟

أمَّا الغنيُّ المغتَصِب ، فلا نأخذ من ثروته ما يزيد عن حاجته لنعطي المحتاجين ، بل نأخذ ثروته كلَّها ، مادامت مغتَصَبَة ، وكذلك الفقير المغتَصِب ننظر إليه بالعين ذاتها الَّتي نظرنا من خلالها إلى الغنيِّ المغتَصب .

الطَّبيعة والعدل ألاَّ يداوى الفساد بفساد ، ولا الاغتصاب باغتصاب ، إنَّ الخلل الاجتماعي يعالج بنُظُم تمنع الاستغلال بكلِّ صوره ، وتمنع ابتداءً التَّضخُّم في الثَّروات : ﴿ كَيْلا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِياءِ مِنْكُم ﴾ ، [الحشر ٧/٥٩] ، مع تجزؤ الثَّروات على رأس كلِّ جيلٍ .. كلُّ ذلك لا يكفي ، إلاَّ إذا كان مرتبطاً بدعوة خلقيَّة روحيَّة تمهِّد للتَّشريعات الاقتصاديَّة الَّتي ستقف في وجه التَّرف والظُّلم واحتكار الثَّروات .

وبعد أن كرّر الأُستاذ بندلي عبارة « الكتبة المتأخّرين » كثيراً ، أورد قول المقدسي[1] صاحب كتاب (البدء والتّاريخ) ، وهو معاصر لبابك ، حيث قال [٢٤/٤] : شهدت بعينَيْ من يقول بإباحة النِّساء على الرِّضى منهنَّ ، وإباحة كلّ ما يلذُّ النَّفس ، وينزع إليه الطَّبع ، ما لم يعد على أحد بضُر .. » ، وبعد ذلك يقول : « لم يكن بَابَك يدعو إلى التَّهتُّك وتحليل المحرَّمات ، ولم يقصد بقوله : (إنَّ النَّاس شركاء في الأموال والنِّساء) إباحة الجماع ، بل أراد أن يقول إنَّ للمرأة ما للرَّجل من الحقوق والواجبات العائليَّة ، فلها أن تختار من الرِّجال من أحبَّت ، لا من أحبَّ ساداتُها أو أقاربها ، ولها أن تتصرَّف في ما تملك كما يوحيه إليها قلبها وعقلها ومصلحتها الشَّخصيَّة » .

وإذا قال المقدسي ـ وهو شاهد عيان ـ [١١٧/٦] : « يخرُجُون على النَّاس فلا يدعون رَجُلاً ولا امرأةً ولا صبيّاً ولا طفلاً من قريب وبعيد إلاّ قطّعوه وقتلوه .. ويقتلون من أصابوا من النَّاس من أيِّ صنف كان ، صغيراً كان أو كبيراً ، مسلماً أو ذمّيّاً ، حتّى مَرِن النَّاسُ على القتل ، وانضوى إليه ـ إلى بابك ـ القطّاع والخرّاب والذُّعّار ، وأصحاب الفتن ، الَّذين انضمّوا لمآرب شتّى إلى البابكيين ، ولم يكونوا على مبادئهم الأدبيّة والاجتماعيّة أبداً »[2] .

أوّلاً : من المسؤول عن أعمال هؤلاء القطّاع والخرّاب والذُّعّار وأصحاب الفتن ، وقد انضمّوا إلى بَابَك لمآرب شتّى ؟

---

(١) مُطهّر بن طاهر المقدسي (المؤرّخ) ، صنّف كتابه (البدء والتّاريخ) في ستّة أجزاء سنة ٣٥٥ هـ = ٩٦٦ م ، (الأعلام ٢٥٣/٧) .

(٢) وفي الصّفحة ١٢٨ دفاع عن الإسماعيليّة : « خذ مثالاً على ذلك رسالة تُعْزَى كذباً إلى بعض الإسماعيليّة ، تجد فيها من التُّهم القبيحة والأقوال الفظيعة .. » ، وفي الصّفحة ١٥٤ : « وهذا إذا صحّ لا يقدح في الإسماعيليّة .. » ، وفي الصّفحة ١٦٠ : « وأفعال الفسق والتّهتُّك الّتي كانوا يتّهمونهم بها كذباً وبهتاناً .. » ، وفي الصّفحة ٢٠٣ : « نحن لا ننكر الحوادث ، إلاّ أنّنا نعلّلها بغير ما يعلّلها خصوم القرامطة .. » .. إلى غير ذلك من الدّفاع عن البابكيّة والإسماعيليّة والقرامطة .

ثـانيـاً : لمـاذا إذا ارتكب عـامل خَرَاج عمـلاً لا يليـق ، ولا يقبلـه الإسـلام مبـدأ ومنهجاً ، عمّمت الجزئيّة ، وحوسب الإسلام ؟ كما جـاء في الصّفحـة ٩٧ : « إنّ الضّرائب الّتي كانت تؤخذ من تينك المقاطعتَيْن ـ الأهواز وفارس ـ قد تضـاعفت في مئـة سنـة ، مع بقاء الأرض على حالها ، فتأمّل ! أمّا كيف وممّن كانت تؤخذ الضّرائب ، فـإنّـا نترك الجواب على ذلك إلى القارئ اللّبيب » .

لذلك أرى أنّ معظم من حاول تبرير أعمال الفِرَق الباطنيّة ، والدّفاع عن مبـادئ بعض الفِرَق كالبـابكيّـة والإسماعيليّـة والقرامطـة .. إنّما انطلقـوا من خنـدق بعيـد عن الموضوعيّة ، فرأوا في كلّ حركة مناوئة للدّولـة العربيّـة الإسلاميّـة ، مـا يـدعوهم لتبرير أعمالها والـدّفـاع عنهـا ، حتّى ولو كانت بعيـدة عن المنطق والحجّـة ، وكأنّهم قـد نصّبوا أنفسهم (محامين) لأفعالهم وتجاوزاتهم ؟!



وجـاء في الصّفحـة ١٠٧ : « إلاّ أنّ كلّ مـا نعلمـه من شـؤون هـذه الحرب ، يكاد ينحصر في أمر واحد وهو أنّ أصحاب بَابَك كانوا يقاتلون قتال الأبطال ، قتال من كان يـدافع عن مبـدأ أو اعتقـادٍ راسخٍ في النّفـوس وآمـال حلـوة لـه ، لا قتـال المـأجـورين المرغَمين ، وأنّه لم يسمع عن أحـدهم خيـانـة أو ضعف ، كلّ هـذه المـدّة الطّويلـة بخلاف ما نعلمه عن جيش وقُوّاد عدوّهم » .

غريبة هذه الموازنة ، وبهذه العبارات ، بين مقاتلي بَابَـك الّـذي وصفتهم النّصوص السّابقة بأنّهم القطّاع والخُرّاب والذّعّار وأصحاب الفتن ، وأنّهم انضمّوا إلى بـابَـك لمـآرب شتّى ، فأين هو المبـدأ أو الاعتقـاد الرّاسخ في نفوسهم ، اللّهم إلاّ إذا كان هـذا المبـدأ هو مبدأ القتل والسّفك والنّهب ؟ فلِمَ نجعل منهم أصحاب مُثُلٍ عُلْيا ، ومبادئ سامية ؟

هذا .. ولم يذكر الأُستاذ بندلي ، ولو مثالاً واحـداً ، عمّـا يعلمـه عن جيش المعتصم وقوّاده من خيانة أو ضعف ، مع أنّ كتب التّـاريخ حفظت لنـا عكس هـذه الصّورة ،

لقد جاء جند المعتصم إلى الأفشين يطلبون الإسراع في الزَّحف : « أيُّها الأمير لا تحرمنا شهادة إن كانت قد حضرت » ، كما جاء في الطَّبري ٣٨/٩ ، وابن خلدون ٢٦٠/٣ ، والكامل في التّاريخ ٢٤٢/٥



وورد في الصَّفحة ١١٣ : « فاضطرَّ ـ بابَك ـ أن ينسحب من ساحة الحرب ، ويلجأ إلى قلعته في بذين حيث أقام عدَّة أشهر يدافع عن نفسه وأصحابه دفاع الأبطال ، إلى أن نفدت مؤونته ، وخارت قواه ، فاضطرَّ أن يترك عاصمته ليلاً ، ويحاول أن يدخل متخفِّياً بلاد الرُّوم ، ليطَلب مساعدة صديقه الإمبراطور تيوفيل ، فخانته الأقدار ، بل خانه أحد بطارقة الأرمن سهل بن سُنباط[1] » .

وهنا يفرض سؤالٌ نفسه : ما الصَّداقة الَّتي جمعت بين بابَك وتيوفيل ؟ الأستاذ بندلي لم يشر إليها من قريب أو بعيد ، مع أنَّ كتب التَّاريخ أوردت : كتب بابَك إلى حليفه تيوفيل عندما ضيَّق عليه الأفشين ، قائلاً : إنَّ ملك العرب ـ المعتصم ـ قد جهَّز إليَّ جمهور جيشه ، ولم يبقَ في أطراف بلاده من يحفظها ، فإن كنت تريد الغنيمة فانهض سريعاً إلى ما حولك من بلاده فخذها ، فإنَّك لا تجد أحداً يمانعك عنها[2] ..



وجاء في الصَّفحة ١١٤ : « ضجَّ النَّاس بالتكبير وعمَّهم الفرح وأظهروا السُّرور ، وصارت سكان بغداد وسامرّا تتصافح في الشَّوارع ، فكان ذلك من أعظم الفتوح في الإسلام ، ويوم قُبِضَ عليه ـ على بابَك ـ كان عيداً للمسلمين » .

---

(١) في الأصل : سنباط بن سهل خطأ .

(٢) الطَّبري ٥٦/٩ ، ابن خلدون ٢٦٢/٣ ، الكامل في التَّاريخ ٢٤٧/٥ ، مروج الذَّهب ٥٩/٤

وهنا نتساءل أيضاً ، لماذا ضجَّ النَّاس ـ وننبِّه إلى كلمة (النَّـاس) بشكلٍ خـاصٍّ ـ بـالتكبير وعمَّهم الفرح وأظهروا السُّرور ؟ لولا أنَّهم تخلَّصوا من خطر عظيم ، وانتصرت دولتهم على عدوٍّ مخيفٍ ، لقد فرح النَّاسُ وضجُّوا ، ولم يفرح الأثرياءُ فقط بالتكبير ، ولم يعم الأغنياءَ دون غيرهم الفرح .. لقد فرح النَّاس ، نساءً ورجالاً ، كباراً وصغاراً ، فقراء وأغنياء ..



الفصلُ الرَّابعُ : الإسْماعِيليَّةُ

يقول الأستاذ بندلي عن الإسماعيليين ، الصَّفحة ١١٩ : « رأوا بعد درس شؤون الدَّولة العبَّاسيَّة درساً وافياً ، أنَّه لابُدَّ للقضاء عليها وعلى نظامها الاجتماعي من بثِّ الدَّعوة الاشتراكيَّة الجديدة بين جميع الأُمم والطَّبقات والأديان المؤلَّفة منها دولة المنصور[1] وقتئذ ، كما لابُدَّ من جمع كلمة جميع المستائين من حكم خلفاء بغداد ، وإثارة عواطف البغض فيهم عليهم ثمَّ دكِّ تلك الأُسس الَّتي كانت قائمة عليها الدَّولة المذكورة ، وأهمها الدِّين والأدب والعاطفة القوميَّة ، أو ما كان يقوم وقتئذ مقامها » .

وبناء على ماسبق ، نستنتج أنَّ الحركة الإسماعيليَّة حركة سياسيَّة استهدفت قَلْبَ نظام الحكم العبَّاسي ـ أي الخلافة ـ عن طرق شتَّى ، منها استغلال الحاجة والفقر ، بالدَّعوة إلى الاشتراكيَّة لتحقيق أحلام الفقراء بحياة أفضل ، والعمل على محاربة مقوِّمات تلك الدَّولة ديناً ولغةً وأدباً وقوميَّةً ، وبكلمة مختصرة ، العمل على محاربة الإسلام .

وأثبت الزَّمن أنَّ الدِّين والأدب والقوميَّة أشياء خالدة لاتُدَك ، وأحداث عامَيْ ١٩٨٩ و ١٩٩٠ في العالم ، خير شاهد .

وتظهر لباقة الأستاذ بندلي جليَّة واضحة في الجملة الأخيرة من المقطع السَّابق ، وهي : « وأهمها الدِّين والأدب والعاطفة القوميَّة ، أو ما كان يقوم وقتئذ مقامها » ،

(١) أبو جعفر المنصور ، الخليفة العباسي الثاني : [٧٥٤ ـ ٧٧٥ م] .

فالّـذي كان يقوم مقـامهـا هو الإسلام !! وتوضّح ذلـك في الصّفحـة ١٣١ : « ومن كان غرضهم دكّ أركان الدّولة العبّاسيّة المؤسّسة على العصبيّة القوميّة والإسلام » .



الفصلُ الخامِسُ : القَرامِطَةُ

جاء في الصّفحة ١٦١ : « هدف (صاحب الزّمان) تحرير النّاس من نير العبوديّـة وظلم الدّولة وأصحاب الأملاك » . وفي الصّفحة ١٧٢ : « .. ولا شـك دخول أبي طـاهر مكّة عنوة (في ١٢ كانون الثّاني من سنة ٩٣٠ م) وسلبه بيتها المقدّس وقتلـه حجّـاجهـا وسكانها إلى غير ذلك من الفظائع الّتي اقترفها هو وجيوشه في بيت الله والمدينة ممـا لابُـدَّ من ذكر بعضـه هنـا للوقوف على قسم من برنـامج القرامطـة الّـذي لـه علاقـة بالـدّين والأدب » . وفي الصّفحــة ١٧٣ : « فكان يتعرّض للحجّــاج في طريقهم إلى الحرمَيْن أو منهما ، ويحاول أن يمنعهم من تأدية الحجّ ، وإقامة شعـائره الّتي كان يحسبهـا من شعـائر الجـاهليّـة ، ومن قبيل عبـادة الأصنـام ، حتّى كاد يقضي على الحجّ وشعـائره ، وينسي المسلمين طريقهم إلى الحرمَيْن إلاّ في مـا نـدر من السّنين ، وكان يقتصر في هـذه الغزوات على نهب الحجّـاج ومنعهم من زيـارة البيت الحرام .. » . وفي الصّفحــة ١٨١ : « فترك عـاصمـة بلاده ، وخرج يريـد بيت الله الحرام ، ليضرب الإسلام في صميم قلبـه ، ويقضي عليـه في منشئـه إن استطـاع إلى ذلـك سبيـلاً » ، وفي الصّفحـة ١٨٢ : « وكان يـدعـو أصحـابـه وقـد ثَملُوا بسورة الفتح ، ومـا غنموه من المـال والحلي أن أجهزوا على الكفّـار وعبـدة الأحجـار ، ودكّـوا أركان الكعبـة ، واقلعـوا الحجر الأسـود حتّى لا يبقى منــه أثر » ، وفي الصّفحـة ١٨٥ : « كان في جملـة مـا نهبـه القرامطـة في مكّــة الحجر الأسـود المعروف ، وهو الحجر الّـذي كانت ولا تزال الحجّـاج تطوف حـولـه وتتبرّك بـه .. » ، وفي الصّفحة ذاتها (١٨٥) : « أقـام أبو طـاهر وأصحـابُـه في مكّـة اثني عشر يومـاً وهم يُعْمِلُون السّيوف بأهاليها وبحجّـاج بيت الله ، وينهبون أموالهم ، ويـأتون من الأفعـال

ما تقشعر له الأبدان ، وقد أخذوا كلَّ ما وصلت إليه أيديهم من الحلي الثَّمينة والتُّحف القديمة الَّتي كانت معلَّقة على جدران الكعبة أو محفوظة في خزانتها .. » .

طبعاً ، الأستاذ بندلي لم يقر القرامطة على أفعالهم : « .. ويأتون من الأفعال ما تقشعر له الأبدان .. » ، ولكن ـ بعد تأكيدنا على سلامة ما أورده الأستاذ وصحَّته ـ نسأل :

ـ هل ذبح الحجيج في الْحَرَم ، يحقِّق تحرير النَّاس ، ورفع نير العبوديَّة وظلم الدَّولة ؟!؟

ـ وهل صحيح أنَّ الحج في الإسلام من شعائر الجاهليَّة ، ومن قبيل عبادة الأصنام ؟

ـ وهل حقّاً أن الحجَّاج يطوفون حول الحجر الأسود ، أمْ حول الكعبة ؟

أمورٌ كانت تحتاج إلى الإيضاح ، ثمَّ الاستنتاج ـ وبموضوعيَّة تامَّة ـ أنَّ أهداف القرامطة الَّتي كشف الأستاذ بندلي عن حقيقتها ، هي ضرب الإسلام في عقيدته وكعبته وأتباعه ، فأين تحرير النَّاس من نير العبوديَّة وظلم الدَّولة وأصحاب الأملاك ؟ إنَّ الَّذين ذُبِحوا في الْحَرَم المكِّي هم (النَّاس) الَّذين نريد تحريرهم ، لا رجال الحكم العباسي وأصحاب الأملاك .



وورد في الصَّفحة ٢٠٤ : « وسائر فِرَق الإسماعيليَّة تنتظره ـ تنتظر إمام الزَّمان (المهدي) ـ وتعوِّل عليه في دكِّ دولة الظُّلم وإقامة دولة العدل والمساواة ، ومملكة (السِّلم والمحبَّة) .. » .

« دكّ دولة الظُّلم » ، ألا وهي الدَّولة العبَّاسيَّة ونظامها الاجتماعي ، إذن الهدف عند جميع الفرق الباطنيَّة ، أو على الأقل عند مؤسِّسيها ، ضرب الإسلام حقداً عليه ،

وثأراً منه ، لإعادة عقائدهم القديمة ، مستغلّين في هذا السّبيل كلّ ما يمكن أن يُسْتَغَل من عواطف ومشاعر عند الفقراء تارة ، وعند غيرهم من الحاقدين أو النّاقمين أو الطامعين ..



وجاء في الصّفحة ٢١٢ : « فلم يكد هذا الخبر ينتشر بين جيرانهم حتّى خرجت عليهم سكان أواسط جزيرة العرب ، وانفصلت عنهم ، ثمّ تبعهم سكان عُمان سنة ٣٧٥ هـ = ٩٨٥ م ، وقبائل المتفق الّتي انقضّت عليهم سنة ٣٧٨ هـ = ٩٨٨ م وكسرتهم شرّ كسرة ، ثمّ تعقّبتهم إلى عاصمتهم الّتي التجأ إليها القرامطة فحاصرتهم فيها ، لكنها لم تقوَ على فتحها ، فتحوّلت عنها إلى القطيف ففتحتها .. » .

بينما جاء في الصّفحة ٢٠٠ : « فلا عجب والحالة هذه ، إذا كان سكان البلاد المذكورة راضين عن حكومتهم ونظامها ، وعاملين على تأييدها عند الحاجة ، كما لا عجب أيضاً إذا كنا لم نسمع ، ولم نقرأ شيئاً يستفاد منه وجود طبقة من النّاس ، تعمل على قتل النّظام الجديد ، أو إسقاط الحكومة الّتي أوجدته ومشت عليه » .

أليس بين المقطعَيْن تناقض بَيِّن ؟

في الصّفحة ٢٠٠ : « كان سكان البلاد المذكورة - وهي البحرين ، أي ساحل الخليج كلّه - راضين عن حكومتهم ونظامها .. » ، ولم نسمع ، ولم نقرأ شيئاً يستفاد منه وجود طبقة من النّاس تعمل على قتل النّظام الجديد ، أو إسقاط الحكومة الّتي أوجدته ومشت عليه .

بينما في الصّفحة ٢١٢ : « فلم يكد هذا الخبر ينتشر بين جيرانهم حتّى خرجت عليهم سكان أواسط جزيرة العرب وانفصلت عنهم ، ثم تبعهم سكان عُمان .. » .

لم نسمع ، ولم نقرأ شيئاً يستفاد منه وجود طبقة من النّاس تعمل على قتل النّظام الجديد ، أو إسقاط الحكومة .. بسبب بطشها ، وشدة إرهابها ، وفحشها في القتل

والتّنكيل . ولكن بعد افتضاح أمرها ، وضعف قوتها : « فلم يكد هذا الخبر ـ خبر انهزامهم في حربهم مع السّلطان صمصام الدّولة (٩٨٩ ـ ٩٩٨ م) الّتي انتهت بكسرهم ، ورجوع فلولهم إلى البحرين ـ ينتشر بين جيرانهم حتّى خرجت عليهم سكان أواسط جزيرة العرب ، وانفصلت عنهم ، ثمّ تبعهم سكان عُمان .. » .

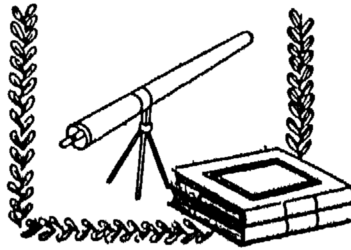
وبعد الحديث عن قرامطة البحرين وعُمان ، ورد في الصّفحة ٢١٦ : « فيا حبذا لو قام بيننا سائحٌ كناصرخسرو أو ابن بطوطة ، فزار تلك الجمهوريّة العربيّة ، وما يجاورها من البلاد الّتي تأثّرت بنظامها وتعاليمها الاشتراكيّة ، وبحث هناك عن تاريخها في الأعصر المظلمة ، وما حُفِظَ من كتبها القديمة ، فيطلعنا على أحوالها الحاضرة » .

عبارات الأستاذ بندلي هنا ، تناقض فيما يظهر من إعجاب وإكبار لدولة القرامطة ، وتمنّيات بالكتابة عن أحوالها وتاريخها ، تناقض ما جاء في الصّفحات : ١٧٢ و ١٧٣ و ١٨١ و ١٨٢ و ١٨٥ من وصفه لأعمال القرامطة الّتي لا تقوم بمثلها وحوش الغاب ، من اقتحام للمدن ، وبخاصة المقدّسة منها ، وقتل للحجّاج ، ونهبهم للأموال ، وخرابهم للدّيار ، فهل هذه هي الجمهوريّة الّتي يتمنّى أن يعرف أخبارها في تلك الأعصر المظلمة ؟

وأيُّ عصور مظلمة تلك ؟ أهي عصور بغداد مدينة العلم والنّور والرّقي والتّقدّم ؟ أتراه يبكي على طبقات فقيرة ظلمها المجتمع ؟ ولو قبلنا جدلاً وجود طبقات فقيرة ، فهل يسمح لنا العقل والعلم والموضوعيّة أن نسميها عصور ظلام ؟ وهل وجود طبقة فقيرة اليوم في بعض الدّول الّتي رادت أعماق المحيطات ، وتحرّرت من الجاذبيّة الأرضيّة فغزت الفضاء وهبطت على أجرامه ، هل نسمح لأنفسنا بتسمية عصرها اليوم ، بعصر الظلام ؟

صحيح تماماً أنّ العصور الوسطى هي عصور ظلام ، وحرق للعلماء ، ومحاربة

للمعرفة ، هذا حقٌّ لا ريب فيه ، لكنه لا ينطبق إلاَّ على أوربة ، فالشَّرق في العصور الوسطى شرق المكتبات والجامعات والعلماء ، بينما كانت أوربة غارقة في ظلام الجهالة وعمايتها ، فحاكمت رجال الفكر والعلم على ما يعدُّه رجال الدِّين مخالفاً لآراء الكنيسة ، يقول غوستاف لوبون في (حضارة العرب) ساخراً ممَّن يقارن العرب في العصور الوسطى بالأوربيين في الوقت نفسه : « فقد كان الوضع على عكس الوقت الحاضر تماماً ، العرب هم المتحضِّرون ، والأوربيُّون هم المتأخِّرون ، ولا أدلّ على ذلك ، من أنَّنا نسمِّي تاريخ أوربة في ذلك الوقت العصور المظلمة » .



خَاتِمَةٌ

كان الفصل السّابق دراسات ونظرات في كتاب الأستاذ بندلي الجوزي الأهم : (من تاريخ الحركات الفكريّة في الإسلام) ، واستكمالاً نوجز أهم الفِكَر الّتي وردت في مقالات الأستاذ بندلي ، والّتي جمعت في كتاب : (بندلي صليبا الجوزي ، دراساتٌ في اللّغة والتّاريخ الاقتصادي والاجتماعي عند العرب)[1] ، والّذي ضَمَّ المقالات التّالية :

الجزيَةُ والخراجُ في أوائِلِ الإسلامِ : (سياسة الخلفاء الاقتصاديّة) ١ و ٢[2] :

يذكر الأستاذ بندلي في الصّفحة ٢٢ : « من فضل النّبيّ العربيّ على أمّته وأكبر الأدلّة على عبقريّته وقوّة إرادته أنّه أوّل من وُفّق في تاريخ هذه الأمّة على ما نعلم إلى جمع شتاتها ، وتوحيد كلمتها ، وجعلها شعباً واحداً ، أو أمّة واحدة ، بمعنى هذه الكلمة الحقيقي ، تسعى وراء غاية كبرى Ideal معتمدة في ذلك على وسائل أدبيّة وسياسيّة معقولة ، تضمن لها بلوغ هذه الغاية في أقرب وقت ، وذلك بعد أن كانت قبائل متخالفة متطاحنة لا جامعة أدبيّة أو دينيّة تجمعها ، ولا شعور قومي يربط أجزاءها المتباعدة المتنافرة ، وهو مالم يتم لغير محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلّم ـ قبله ، مع أنَّ الّذين حاولوا جمع الأمّة العربيّة بالسّيف ، إن كان في جنوب الجزيرة ، أو في وسطها وشمالها كانوا كثيرين ذكر التّاريخ بعضهم وأهمل أكثرهم ، وهذا شأنه مع مَنْ أصابه الفشل .

---

(١) جمع وتقديم الأستاذين : جلال السّيّد وناجي علوش ، نشر : دار الطليعة ـ بيروت ، الطّبعة الأولى ١٩٧٧ م .

(٢) (المقتطف) ، نشر القسم الأول من الدراسة في ١ أيار (مايو) ١٩٢٩ ، والقسم الثاني في حزيران (يونيو) ١٩٢٩ م .

وإنَّ لمن أقوى الأدلَّة على بعد نظر المصلح العربي الكبير ، وحسن سياسته ، وعظيم ذكائه الطَّبيعي ، أنَّ جمعه لتلك القبائل المتباغضة المفكَّكة العُرى ، بل لتلك الرِّمال المتناثرة ، لم يكلِّفه من التَّعب والضَّحايا ما كلَّف غيره من موحِّدي الأمم ، ومؤسِّسي الممالك الضَّخمة قبله وبعده ، مع توافر الوسائل لديهم ، ومساعدة الأحوال لهم أكثر من مساعدتها له » .

لقد جعل الأُستاذ بندلي (السِّياسة الاقتصاديَّة) أهمَّ أسباب سقوط الدَّولة العربيَّة (الأُمويَّة) .

وفي رأينا أنَّ السَّبب الأهم من ذلك هو تعصُّب الأمويين للعرب ، ذاك التَّعصُّب الَّذي بعث روح الشُّعوبيَّة في أرجاء الدَّولة ، شعوبيَّة بدأت باللِّسان والأقلام ، وانتهت بالأَسِنَّة والرِّماح ، مما جعل العباسيين يستغلون كراهية (الموالي) لبني أُميَّة ودولتهم ، فضلاً عن أن تولية العهد الأُموي لاثنين معاً أحياناً ، قد أورث شقاقاً ومنافسة في البيت الأُموي ففكَّكَ دولتهم وعجَّل بسقوطها .

ولكن الهفوة الكبرى ، تبنِّي الأستاذ بندلي لآراء بعض المستشرقين دون تمحيص أو نقد ، حيث يقول في الصَّفحة ٢٣ : « إنَّ النَّبيَّ العربيَّ لم يفكِّر قط في بناء مملكة ضخمة كإحدى الممالك الَّتي ذكرناها » ، وهي : مملكة الإسكندر الكبير ، أو إمبراطوريَّة الرُّومان ، أو إحدى ممالك المغول والتُّرك بعده ، ومع أن الأستاذ يقرر : « إلاَّ أنَّ ذلك لا يقدح في عمله - صلى الله عليه وآله وسلَّم - لأنَّ الغرض الأوَّل من دعوته لم يكن سياسياً ، بل اجتماعيّاً ودينيّاً ، ولا أراني بعيداً عن الحقيقة إذا قلتُ إنَّ توحيد الأمَّة العربيَّة السِّياسي على يد محمَّد - صلى الله عليه وآله وسلَّم - كان نتيجة توحيدها الأدبي والدِّيني » ، (الصَّفحة ٢٣) .

إنَّ مقولةَ : « إنَّ النَّبيَّ العربيَّ لم يفكِّر قط في بناء مملكة ضخمة كإحدى الممالك الَّتي ذكرناها » ، مقولةٌ قالها مو ير Miur في كتابه (الخلافة) الصَّفحة ٣٤ ، وجاك ريسلر في كتابه (الحضارة العربيَّة) الصَّفحة ٢٧ ، وهي مقولة ينقضها :

﴿ وَما أرْسَلْنـاكَ إلاّ رَحْمـةً لِلعـالَمينَ ﴾ ، [الأنبيـاء ٢١/١٠٧] ، و ﴿ إنْ هُـوَ إلاّ ذِكْرٌ لِلعالَمينَ ، وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حينٍ ﴾ ، [ص ٣٨/٨٧ و ٨٨]، و ﴿ وَمَا أرْسَلْنـاكَ إلاّ كافَّـةً لِلنَّاسِ بَشيراً ونَذيراً ولكِنَّ أكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمونَ ﴾ ، [سَبَأ ٣٤/٢٨][1] .

وتنبّأ صلى الله عليه وآله وسلّم : « إنّ اللهَ سيفتح عليكم بعدي مصر ، فاستوصوا بقبطها خيراً ، فإنّ لهم فيكم صهراً وذِمّة »[2] .

كما تنبّأ أثناء حفر الخندق شمالي المدينة المنوّرة ، قبيل غزوة الأحزاب (٥ هـ = ٦٢٧ م) بفتح الحيرة وقصور كسرى ، وفتح القصور الْحُمْرِ في الشّام ، وأنّ دينه وسلطانه سيبلغان ما بلغا ملك كسرى[3] ، وقد بلغ فعلاً ما بلغه ملك كسرى وأكثر .

وقال الأُستاذ عن أبي يوسف صاحب (كتاب الْخَرَاج)[4] : « لم يكن يفرّق بين الْخَرَاج والجزية ، فهو يستعمل كلمة خَرَاج للدّلالة على الجزية وبالعكس » ، (الصّفحة ٣٥) .

والصّواب ، لقد فرّق أبو يوسف بين الْخَرَاج والجزية ، ولكنّه عدّ الْخَرَاج فيئاً[5] .

ففي (فصل في الفيء والْخَرَاج) ، الصّفحة ٢٥ من كتاب الْخَرَاج ، يقول

---

(١) ويُصِرُّ الأستاذ في الصّفحة ٢٠٦ على أن المراد (بالعالمين) وبـ (كافّة النّاس) العرب فقط ، ولكن اللغة العربية لا تسعفه في ذلك من ناحية ، ولثبوت إرسال رسائل إلى كسرى وقيصر والمقوقس .. من ناحية ثانية ، وهؤلاء ليسوا من قومه العرب قطعاً !؟!

(٢) الكامل في التّاريخ ٢/١٢٢ و١٢٣

(٣) الكامل في التّاريخ ٢/١٤٦

(٤) (كتاب الخراج) للقاضي أبي يوسف يعقوب بن إبراهيم [١١٣ ـ ١٨٢ هـ ـ ٧٣١ ـ ٧٩٨ م] ، صاحب الإمام أبي حنيفة ، اقترح عليه إنشاءه وتصنيفه هارون الرّشيد ، واعتمدنا هنا طبعة : المطبعة السّلفيّة ومكتبتها ـ القاهرة ، الطّبعة الرّابعة ١٣٩٢ هـ .

(٥) الفيء : هو المال الّذي يصيبه المسلمون دون قتال . (لسان العرب : فيأ) .

الباب الأول (4) في صفة الأرض وما فيها من الجبال
والبحار وغير ذلك

الباب الثاني (25) في ذكر الأقاليم السبعة واشتقاقها
والاختلاف في بعضها.

الباب الثالث (27) في تفسير ألفاظ التي يتكرر ذكرها
في هذا الكتاب. فرسخ، درجة، دقيقة
السكة...

الباب الرابع (48) في أقوال الفقهاء في أحكام
أرض الفيء والغنيمة وكيف
قسمة ذلك، ستة أراضي
عشر، أراضي خراج، خمس غنيمة

الباب الخامس (92) في جمل من أخبار البلدان

نموذج من خط الأستاذ بندلي

أبو يوسف : « فأمّا الفيء يا أمير المؤمنين - يخاطب هارون الرّشيد - فهو الخراج عندنا ، خراج الأرض ، والله أعلم » .

ويقول أبو يوسف في الصّفحة ١٣١ (فصل فيمن تجب عليه الجزية) : « والجزية واجبة على جميع أهل الذّمّة .. وإنّما تجب الجزية على الرّجال منهم دون النّساء والصّبيان .. » .

لقد عدّ أبو يوسف الْخَرَاج فيئاً ، ولكنّه على الأرض حصراً ، أمّا الجزية ، فتفرض بعد الفتح على الرّجال حصراً .

☆ ☆ ☆

الجِزْيَةُ وَالخرَاجُ[١] :

يقول الأُستاذ في الصّفحة ٤٤ عن الدّولة العربيّة : « همّها الأعظم كان جمع المال » ، أي كانت (الغنيمة هي الهدف) ، وهي تهمة قالها ستانلي لان بول في كتابه : Arabs in Spain, P.43 ، وفيليب حِتّي في كتابه : History of the Arabs, I, P. 195 ، ونورمان بينز في كتابه الإمبراطوريّة البيزنطيّة ، الطّبعة العربيّة الثّانية ، الصّفحة ٥٥ ، نشر : الدّار القوميّة للطّباعة والنّشر .

ويكفي أن نذكّر هنا بقول عمر بن عبد العزيز : « إنّ الله أرسل محمّداً ﷺ داعياً ، ولم يبعثه جابياً »[٢] ، وبقول ابن عبّاس : « ليس في أموال أهل الذّمّة إلاّ العفو »[٣] .

---

(١) مجلّة الكلّيّة ، مجلّة الجامعة الأمريكيّة في بيروت ، المجلّد ١٨ ، تشرين الثّاني (نوفمبر) ١٩٣١ م .

(٢) الطّبري ٥٥٨/٦ ، أحداث سنة ١٠٠ هـ .

(٣) الخراج ، الصّفحة ١٣٣ ، وهذا يذكّرنا بإرجاع المسلمين المال إلى أهل حمص ، عندما انسحبوا جنوباً إلى اليرموك .

وقال الأُستاذ بندلي في الصَّفحة ٤٥ : « إنَّ الضَّرائب الَّتي وضعها العرب على أهل الذِّمَّة لم تكن بحدٍّ ذاتها باهظة ولا مجحفة ، لأنَّهم حاولوا أن يراعوا في وضعها حالة المزارعين والعمال ، فقسَّموهم إلى ثلاث طبقات : ١ ـ طبقة الموسرين ، و ٢ ـ طبقة الأوساط ، و ٣ ـ طبقة المحتاجين ، وهم الفلاَّحون العاملون بأيديهم ، فجعلوا جزية أصحاب الطَّبقة الأُولى ثمانية وأربعين درهماً ، وجزية الطَّبقة الثَّانية أربعة وعشرين درهماً ، وجزية الطَّبقة الثَّالثة اثني عشر[١] ، وأخرجوا منها النِّساء والأولاد والشَّيوخ فوق السِّتِّين سنة ، والمرضى المزمنين والعبيد ، أمَّا ضريبة الأراضي أو الْخَرَاج أو الطَّسْق[٢] كما كانوا يسمُّونها أحياناً ، فلم تكن أيضاً ثقيلة على عاتق الفلاَّح وصاحب الأرض ، لأنَّهم راعوا في وضعها طبيعة الأرض وما تحتمله ، ولهذا كان خَرَاج أراضي مصر ، غير خَراج العراق وفارس وهلم جرّاً » .

وقال الأُستاذ أيضاً في الصَّفحة ٥٦ : إنَّ عمر بن الخطَّاب كان يكتب أموال عمَّاله إذا ولاَّهم ، ثمَّ يقاسمهم ما زاد على ذلك ، حرصاً للعدل والإنصاف في الجباية .



حَنِين العَرَبِ إلى بَنِي أُمَيَّة[٣] :

اعتمد الأُستاذ بندلي في مقالته هذه على يوليوس فلهاوزن وكايتاني والأب اليسوعي هنري لامانس ، وكتاب (الأغاني) لأبي الفرج الأصفهاني .

---

(١) الخراج ، الصَّفحة ٦٩

(٢) الطَّسْقَ : ما يوضع من الوظيفة على الجربان من الخراج المقرّر على الأرض (فارسي معرَّب) ، وكتب عمر إلى عثمان بن حنيف في رَجُلَيْن من أهل الذِّمَّة أسْلما : ارفع الجزية عن رؤوسهما وخذ الطَّسْقَ من أراضيهما ، (لسان العرب : طسق) .

(٣) القسم الأوَّل (المقتطف) حزيران (يونيو) ١٩٣١ ، والقسم الثَّاني (المقتطف) تموز (يوليو) ١٩٣١ م .

جاء في موسوعة المستشرقين ، الصَّفحة ٣٤٩ ، بعد ذكر مصنَّفات لامانس حول الخلافة الأُمويَّة : « وفي هذه المصنَّفات بالغ لامانس في تمجيد الأُمويِّين بدافع من الحقد الشَّديد على الإسلام ، وفارق هائل بين ما قام به يوليوس فلهاوزن في كتابه (الدَّولة العربيَّة وسقوطها) من إنصافٍ لمعاوية ، ولبعض الأُمويِّين من تحامل اقترفه المؤرِّخون المسلمون ، الَّذين كتبوا في العصر العبَّاسي ، وكانوا تبعاً لذلك متأثِّرين بكراهية العبَّاسيِّين للأُمويِّين ، ومشايعين لرواية أهل العراق ، وبين الاندفاع الأهوج عند لامانس في تبرير أبشع جرائم يزيد والأُمويِّين بعامَّة » .

أمَّا كتاب (الأغاني) ، فهو كتاب أدب ، لا كتاب تاريخ يعتمد ، وهذا لا يعني مطلقاً أنَّ كلَّ كتاب أدب لا يؤخذ به ، بل يؤخذ به إذا كان صاحبه ثقةً ومعروفاً عنه الأمانة في النَّقل والصِّدق في الرِّواية ، جاء في (لسان الميزان) للإمام الحافظ شهاب الدِّين أبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني بشأن صاحب (الأغاني) لأبي الفَرَج الأصفهاني : يأتي بالأعاجيب بحدَّثنا وأخبرنا ، وهذا ما ذكره أيضاً عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذَّهبي في (ميزان الاعتدال في نقد الرِّجال : ١٢٣/٣ و١٢٤) .



السُّفْيَانِيُّ[1] :

بعد حديث الأُستاذ بندلي عن فكرة المهدي ، يقول في الصَّفحة ٩٤ : « فَمِمَّن ذُكِرَوا بين الَّذين أدخلوا على الإسلام هذا التَّعليم عبد الله بن سبأ ، وعبد الله بن السَّوداء وغيرهما ، وكلُّهم كانوا من اليهود الَّذين أظهروا الإسلام ليفسدوا ـ كما يقول صاحب (الفَرْق بين الفِرَق)[2] ـ على المسلمين دينهم بتأويلاتهم في عليٍّ وأولاده .. » .

(١) نشر القسم الأوَّل في (المقتطف) حزيران (يونيو) ١٩٣٣ ، والقسم الثَّاني في عدد تموز (يوليو) ١٩٣٣ م .

(٢) في (الفَرق بين الفِرَق) الصَّفحة ٢٢٥ : « عبد الله بن السَّوداء كان يعين السبابيَّة (؟) على قولها » ولعلَّ الالتباس جاء من هنا ، وبعض المسلمين يعدُّون ابن سبأ (أو ابن السَّوداء) شخصيَّة أُسطوريَّة خياليَّة ، لا وجود لها أصلاً .

وصواب ماسبق : عبد الله بن سبأ هو ابن السَّوداء ذاته ، جـاء في الأعلام ٨٨/٤ : « عبـد الله بن سبـأ (ت نحـو ٤٠ هـ = نحـو ٦٦٠ م) يقـال لـه ابن السَّـوداء ، لسـواد أمّه » ، وجاء في القاموس الإسلامي[١] : « عبـد الله بن سبـأ ، رأس الفرقـة السَّبئيَّـة ، ويعرف بلقبه ابن السَّوداء » .

وفي فجر الإسلام ، الصَّفحـة ١١٠ : « ونحن نعلم أنَّ ابن السَّوداء هـذا لقب لُقِّب بـه عبد الله بن سبأ » .



أميرٌ أُمَويٌّ مِنْ سُلالَةٍ مَسيحيَّةٍ :

للعلاَّمة (بارتولـد) عضو أكاديميَّـة لينينغراد العلميَّـة ، مقـالـة نقلهـا عن الرُّوسيَّـة الأُستاذ بندلي ، ونشرها في (المقتطف) ، تشرين الأوَّل (أُكتوبر) ١٩٣١ م ، وبمـا أنَّ المقالة ليست من صنعة الأُستاذ بندلي ، لا نقف طويلاً عنـدهـا ، ولكن نوجِّـه الأنظـار أو الانتباه إلى أن العلاَّمة (بارتولد) اعتمد الواقدي بشكل بارز في دراسته .

ومحمَّد بن عمر الواقدي : [٧٤٧ ـ ٨٢٣ م] أحد الرُّواة الَّـذين جُرِّحوا لـذكره أقوالاً كذَّبها قومٌ عدولٌ ثقات كالإمام الشَّـافعي[٢] ، وإنَّـه لمن دواعي الأسف أن بعض كتَّـاب الغرب قد احتجُّوا بأقوال الواقدي هذا ، وتتبَّعوا بـالـذَّات تلـك الرِّوايـات الَّتي جرَّحهـا الثِّقات .

يقـول ابن خَلِّكان[٣] عن الـواقـدي : « وضَعَّفُـوه في الحـديث وتكلَّمُـوا فيـه »[٤] ، والإمام الشَّافعي يقول : « كتبُ الواقدي كلُّها كذب » .

(١) لأحمد عطية الله ، نشر : مكتبة النَّهضة المصريَّة ، الطَّبعة الأُولى سنة ١٩٧٠ م .

(٢) محمَّـد بن إدريس الشَّـافعي [١٥٠ ـ ٢٠٤ هـ = ٧٦٧ ـ ٨٢٠ م) ، الإمـام الشَّهير ، ولـد في غـزَّة (فلسطين) ، وتوفِّي بالقاهرة .

(٣) أحمد بن محمَّد بن إبراهيم خَلِّكان : [٦٠٨ ـ ٦٨١ هـ = ١٢١١ ـ ١٢٨٢ م] ، صاحب كتـاب (وفيـات الأعيان وأنباء أبناء الزَّمان) ، وهو من أشهر كتب التَّراجم .

(٤) وفيات الأعيان ٣٤٨/٤

الأُمومَة عِنْدَ العَرَب :

كُرَّاس صدر في قازان سنة ١٩٠٢ ، ترجمه الأُستاذ بنـدلي عن الألمـانيَّـة ، والموضوع أصـلاً كتبـه G.A.Wilken ، ولن نقف مطـوَّلاً عنـده ، لأنَّـه ليس من صنعـة الأُستـاذ بندلي وإنشائه ، ولكن نوجِّـه الانتبـاه إلى فقرة جـاء فيهـا حرفيّـاً : « إنَّ عليّـاً ـ صهر النَّبيِّ ـ اتَّخذ بعد فاطمة ، أكثر من مائتي امرأة من المطلَّقـات ، وممَّـا قيل عنـه إنَّـه كان أحياناً يبني على أربع نساء ، بعد أن يطلِّق مثل هذا العدد » .

هذه العبارات على خطئها وبُعْدِها عن الحقيقة تماماً ، استنـاداً لـدراسـة سيرة علي كرَّم الله وجهه ، قيلت بحق الحسن بن علي رضي الله عنه ، وهو بعيد كلَّ البعد عنهـا ، فلم يُحْصَ للحسن أكثر من عشر نساء ، وهذا ليس بغريب في ذلك العصر .

القُرآنُ والبَحْرُ :

مقالـة نشرت في (المقتطف) تموز (يوليو) ١٩٢٩ ، مترجمـة عن الرُّوسيَّـة ، فهي للعلاَّمة فاسيلي بارتولـد ، عضو أكاديميَّـة لينينغراد العلميَّـة ، نقلهـا إلى العربيَّـة الأُستـاذ بندلي .

وممَّا جاء في الصَّفحة ١٩٤ : « إنَّ تصوُّرات القرآن عن البحر وعواصفه تمتـاز بشـدَّة جلائها ، وقوَّة وصفها ، وإنَّ محمَّـداً الَّـذي لم يعرف بسعـة تخيُّلاتـه في وصف الطَّبيعـة ، حتَّى في وصف جنَّـات النَّعيم ، صوَّر لنـا تصـويراً جليّـاً ذا حيـاة جريـان الأفـلاك في البحر (النَّحـل ١٤)[1] وتسيير الله للنَّـاس فيـه ، ويصف فرحهم وهم في الفُلْك ﴿ وجَرَيْنَ بِهِمْ بِريحٍ طَيِّبَـةٍ ﴾[2] ، وشـدَّة خوفهم إذا ﴿ جـاءَتْهـا رِيحٌ عـاصِفٌ وجـاءَهُم الموجُ من كلِّ مكانٍ ﴾[3] ، (يـونس ٢٢) ، ويشبِّـه حيـاة الكفَّـار ﴿ بِسَراب

(١) ﴿ وَهُوَ الَّذي سَخَّر البَحْرَ لِتَأْكُلوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وتَسْتَخْرِجُوا مِنْـهُ حِلْيَـةً تَلْبَسُونَهـا وَتَرى الفُلْـكَ مَواخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُم تَشكُرُونَ ﴾ ، [النَّحل : ١٤/١٦] .

(٢ و٣) ﴿ هُـوَ الَّـذي يُسَيِّرُكُم في البَرِّ والبَحْرِ حتَّى إذا كُنْتُم في الفُلْـكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِريحٍ طَيِّبَـةٍ وَفَرِحُـوا بِهـا ﴾

بقيعةٍ ﴾[1] ، ﴿ أو كَظُلُماتٍ في بحرٍ لُجّيٍّ يغشاهُ مَوْجٌ من فَوقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوقِهِ سحابٌ ظُلُماتٌ بعضُها فوقَ بعضٍ إذا أخرجَ يدَهُ لم يكَدْ يراها ﴾[2] ، [النُّور ٤٠] .

إنَّنا لسوء الحظّ لا نجد في السِّيرة النَّبويَّة الَّتي لا تزال الأبحاث الحديثة تزعزع ثقتنا بها ، موادَّ كافية نقدر معها أن نجيب عن السؤال الآتي ، وهو : كيف ومتى تحصَّلت لدى محمَّد ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ تصوُّراته الجليَّة عن البحر وعواصفه ، وهذا السؤال في نظري على جانب عظيم من الأهمِّيَّة ، لأن وصف البحر وماله علاقة بالبحر من الموضوعات الَّتي لم يطرقها الشِّعر العربي ، وعلى الأخصِّ الجاهلي منه ، من المعلوم أنَّ أصحاب السِّيرة النَّبويَّة لا يذكرون عن رحلات النَّبيِّ البحريَّة ، أو رحلاته إلى أحد شواطئ البحر شيئاً ، بل هم لا يذكرون شيئاً عن زيارته للمرافئ القريبة من مكَّة كجدَّة وشعيب .. » .

أوَّلاً : عبارة « .. السِّيرة النَّبويَّة الَّتي لا تزال الأبحاث الحديثة تزعزع ثقتنا بها .. » ، ونتساءل لمن هذه الأبحاث الحديثة ؟ فنجدها في الصَّفحة ١٩٦ للأب اليسوعي لامانس في كتابه (مهد الإسلام) !؟!

ثانياً : أمَّا القول : « من المعلوم أنَّ أصحاب السِّيرة النَّبويَّة لا يذكرون عن رحلات النَّبيِّ البحريَّة أو رحلاته إلى أحد شواطئ البحر شيئاً ، بل هم لا يذكرون شيئاً عن زياراته للمرافئ القريبة من مكَّة كجدَّة وشعيب » ، لم يذكروا شيئاً عن رحلات النَّبيِّ ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ البحريَّة .. لأنَّها لم تكن ، فما درست في العالم سيرة بتفاصيلها ودقائقها كسيرة محمَّد بن عبد الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ، لقد ذكر

= جاءَتها ريحٌ عاصِفٌ وَجاءَهُمُ المَوْجُ مِن كُلِّ مَكانٍ وَظَنُّوا أنَّهُم أُحيطَ بِهِمْ دَعَوُا الله مُخْلِصينَ لَهُ الدِّينَ لَئِن أنجيتَنا مِنْ هذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكرينَ ﴾ ، [يونس ١٠/٢٢] .

(١) ﴿ وَالَّذينَ كَفَروا أعمالُهُم كَسَرابٍ بقيعةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمآنُ ماءً .. ﴾ ، [النُّور ٢٤/٣٩] .

(٢) أورد الأستاذ بندلي في مقالته الآية بشكل خاطئ وناقص ، فصوَّبنا الخطأ وأضفنا النقص .

أصحاب السِّيرة مشيته وضحكه وتبسُّمه ، وكيف كانت جلسته ، ووصفوا احتباءه واستلقاءه وتحريك يده حين كلامه ، وكيف أكل ، وكيف شرب ، حتَّى إنَّهم ذكروا خُفَّه وناقته وبغلته وحماره .. فمن باب أوْلى أن يذكروا ما هو أهمُّ ممَّا سبق لو وُجدَ !؟!



مَنِ الْمُصِيبُ[1] ؟

يؤكِّد الأُستاذ بندلي في هذه المقالة ، الَّتي ردَّ فيها على الأُستاذ عبد اللَّطيف الطِّيباوي ، بروح العالم الباحث المنصف (الصَّفحة ٢٠٢) : « وإنِّي أكره الجدلَ الباطل ، ولا أتعامى عن الحقيقة إن بدت لي في أبحاث غيري » .

ويذكر الأُستاذ في مقالته هذه ، أنَّه اعتمد في أبحاثه على آراء المستشرقين ، مثل كايتاني ، وفلهاوزن ، وجولدتسيهر ، والأب هنري لامانس .

وجاء في الصَّفحة ٢٠٨ : فَشِلَ النَّبيُّ في الحديبية سنة ٦ هـ = ٦٢٨ م ، « الفشل الَّذي اضُّطر معه أن يعود إلى المدينة ولم يقض وأصحابه شعائر الحجِّ .. » .

أوَّلاً : لم يقضِ وأصحابه شعائر العمرة ، لا شعائر الحج .

ثانياً : وضوح الرؤيا في الابتداء ، جعل النَّبيَّ يقبل بنود صلح الحديبية كما أملتها قريش ، فحقَّق الهدف في الانتهاء ، فلما كانت الهدنة ، ووضعت الحربُ أوزارها ، وأمن النَّاس بعضهم بعضاً ، والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة ، فلم يُكَلَّم أحدٌ بالإسلام يعقل شيئاً إلاَّ دخل فيه ، ولقد دخل تينك السَّنتين ـ وهما مدَّة الهدنة الفعليَّة قبل نقضها من قِبَل قريش ـ مثل ما كان في الإسلام قبل ذلك وأكثر .

وصلح الحديبية اعتراف رسمي مُوَقَّع من قريش ، بأنَّ النَّبيَّ ومن معه ، قوَّة مستقلَّة متميِّزة ، وصنو قريش زعيمة القبائل ، وهذا يعني أيضاً ـ أمام كلِّ قوى جزيرة

(١) نشرت في (المقتطف) ، تشرين الثَّاني (نوڤمبر) ١٩٢٩ م .

العرب ـ أنَّ قريشاً قد اعترفت رسميّاً بمن كانت تريد استئصاله ، ممَّا جعل القبائل العربيَّة تعيد حساباتها .

وأثمر صلح الحديبية بأسرع مما كان متوقَّعاً ، وبأعجب مما كان يتصوَّره إنسان ، حتَّى ذكرت دائرة المعارف الإسلاميَّة : « أنَّ محمَّداً فاز في صلح الحديبية على قريش فوزاً سياسيّاً باهراً »[1] . فلو جاء الصُّلح لصالح قريش ، لماذا إذن نقضته بنداً بعد آخر ؟ فلو جاء الصُّلح لمصلحتها ، لحرصت عليه ، وعملت جاهدة على إبقائه ، وسعت بكلِّ ما تملك على تثبيت وُجُوده ، مع الالتزام المطلق به ، بل وتجعل تمديده هدفاً ، وإطالة مُدَّته مطلباً ، والحفاظ عليه ألاَّ يخرق مبدأ .

☆ ☆ ☆

مُسَيْلَمَةُ الكَذَّاب[2] :

البحث للأُستاذ بارتولد ، ترجمه عن الرُّوسيَّة الأُستاذ بندلي ، ومما جاء فيه ، الصَّفحة ٢٣٧ : « .. ولكن قد يكون صحيحاً أنَّ مسيلمة وأتباعه وبينهم الرَّجال[3] ، وهو أحد القُرَّاء ، خرجوا على النَّبيِّ الَّذي رجع عن كثير من أفكاره السَّابقة القريبة إلى النَّصرانيَّة ، وعقد صلحاً مع القرشيِّين » .

ولم يذكر في البحث مثالٌ واحد عن الفِكَر الَّتي رجع عنها ، مع أنَّها كثيرة !؟!

ويستغرب (بارتولد) كلَّ حديث عن مسيلمة ، ويعدّه خرافةً ، ويضعِّف روايات المؤرِّخين الَّتي لا تصوِّر مسيلمة كما تخيَّله مسبقاً ، حتَّى شكَّ بمرجعه (كتاب الأغاني) عندما أورد التَّفاصيل المخجلة البذيئة في حياة مسيلمة ، ودافع عنه قائلاً : « إنَّ الحديث الموشَّى بالتَّفاصيل المخجلة البذيئة ليس إلاَّ حديث خرافة لا قيمة تاريخيَّة

---

(١) دائرة المعارف الإسلاميَّة ٣٢٩/٧

(٢) نشرت في (الرَّابطة الشَّرقيَّة) ، الأعداد : ١٩٢٨/١٢/١٥ و ١٩٢٩/٢/١٥ و ١٩٢٩/٣/١٥ م .

(٣) الرَّجّال هو نهار بن عُنْفُوَة ، ارتدَّ مع مسيلمة ، قتله في (حروب الرِّدَّة) زيد بن الخطَّاب .

له ، لا يتَّفق مع تعاليم مسيلمة الأدبيَّة » ، (الصَّفحة ٢٤٣) ، ونذكِّر هنـا بقول مسيلمـة لأتباعه عندما حضره الموت : « أمَّا الـدِّين فلا دين ، ولكن قـاتلوا عن أحسـابكم »[1] ، فاستيقن القومُ أنَّهم كانوا على غير شيء !؟!



---

(١) الاكتفاء ١٣/٢

الأُستاذ بَنْدَلي

مَالَهُ وَمَا عَلَيْهِ

مَالَهُ : لقد تخرَّج على يَدَيْ الأُستاذ بنـدلي علماءُ كثيرون ، حـاز بعضهم على أعلى الألقـاب والجـوائـز ، من بينهم (أنستـاسيـا) زوجـة الأكاديمي السُّـوفييتي الشَّهير (ماكاروف) ، الَّتي حازت على جائزة الدَّولة لأبحاثها العلميَّة البيولوجيَّة ، والبروفيسور (فلاديير) صاحب المؤلَّفات العـديـدة والمعروفـة عـالميّـاً في إطـار العلوم الفيزيـائيَّـة ـ الرِّياضيَّة .

حضرت جلسة المدافعة امرأة عجوز تجاوزت التِّسعين من عمرها ، دعاهـا الـدكتور ضياء ، وكانت مفاجأة ، لقد وقفت لتقول بعـد تهنئتي وشكري : يسرُّني ويثلج صـدري أن أسمع اسم الجوزي ثانية بعد أكثر من خمسين سنة ، لقد كان خفيف الظِّل ، قريباً إلى القلب ، لقد أحييتَ ذكرياتي عن أُستاذي العربي المقدسي المسيحي ، صاحب المحاضرات الشَّيِّقة جدّاً ، درَّسنا تاريخ الإسلام والقرآن ، وطالبنا بالامتحان الأخير بحفظ عشرين سورة من القرآن الكريم ، مـع الشَّرح ، لـلامتحـان الأخير ، وقـال لنـا منـذ محـاضرتـه الأُولى : أنـا أعرف أنَّكم جميعـاً مسلمون ، لا تتـذمَّروا منِّي إن لم أقُـل شيئـاً منـاسبـاً عن الإسلام ، واسم هذه العجوز الَّتي تحدَّثت بشكل رائع : سارة بـالابي عـاشور بيلي (انظر صورتها في دفعة ١٩٢٩) ، وهي صورة قدَّمتها لي بعد المدافعة مع كتاب عن معبد النَّار في باكو من تأليفها ، هدية تقدير وتهنئة .

ويمكننا القول إنَّ للأُستاذ بندلي ما يلي :

١ ـ ثقافته الواسعة ، وشخصيَّته المطَّلعة .

٢ ـ وهو لا يحمل خلفيّة الاستشراق الموظَّف لخدمة التّبشير .

٣ ـ دفاعه عن أُمّته ، والحنين إلى الوطن ومسقط رأسه .

٤ ـ دعوته إلى الوحدة العربيّة ، وجمع شمل طاقاتها ، وتوظيف ثروتها النّفطيّة لخدمة قضاياها التّحرُّريّة ، ورفاهية الأُمّة .

٥ ـ التّنبيه إلى الأخطار المحدقة بالأُمّة العربيّة عامّة ، وفلسطين خاصّة .

٦ ـ نقده المخلص لافتراءات بعض المستشرقين .

٧ ـ رجوعه عن الخطأ : « وهو ما يناقض في الظّاهر ما قرّرناه سابقاً .. »[١] ، « وإنّي أكره الْجَدَل الباطل ، ولا أتعامى عن الحقيقة إن بدت لي في أبحاث غيري .. »[٢] .

٨ ـ أمانته في الإحالة إلى المصادر ، ودقّته في النّقل منها .

٩ ـ إعجابه بالرّسول العربي الكريم : « المصلح العربي الكبير ، وحسن سياسته ، وعظيم ذكائه الطّبيعي .. »[٣] ، « المصلح الكبير »[٤] ، « مظاهر عبقريّته .. »[٥] .

١٠ ـ وفاؤه لأصدقائه ، ومواصلة مراسلتهم من (باكو) ، ذكر الأُستاذ محمّد علي الطّاهر ، صاحب صحيفة (الشّورى) ، والّتي كانت تصدر بالقاهرة : « كتب إلينا أنّ العلاّمة الفلسطيني الأُستاذ بندلي الجوزي ، قد وصل إلى باكو في روسية ، وأخذ يباشر أعماله التّدريسيّة في جامعاتها .. »[٦] .

---

(١) دراسات في اللّغة والتّاريخ .. ص : ١٨٠

(٢) المرجع السّابق ، ص : ٢٠٢

(٣) المرجع السّابق ، ص : ٢٢

(٤) المرجع السّابق ، ص : ٤٢/٤٢/٤٨/٥٤/٥٦

(٥) من تاريخ الحركات الفكريّة في الإسلام ، ص : ١٨

(٦) صحيفة الشّورى ، بتاريخ : ٢٦ أيلول (سبتمبر) ١٩٢٨ م

مَا عَلَيْهِ : نمهّد هنا بقولنا : إنّ التّاريخ العربي الإسلامي نشأ في كنف أهل الحديث الشّريف ، عِلْماً محقّقاً ، خضع لقواعد النّقد المعروفة (بالجرح والتّعديل) ، وهو منهج شديد الحرص على الأمانة نصّاً وروايةً وراوياً .

بعد هذا ، نذكر ما على الأُستاذ بندلي من ملاحظات :

١ ـ لجوؤه إلى التّمريض والتّضعيف في مواطن كثيرة : « فإذا صحّ .. » ، « يقولون » ، « على ما يذكرون » ، « حكاية » كما في الصّفحات : ١٩٩ / ٢٠١ / ٢٣١ / ٢٣٨ / ٢٤٣ (من تاريخ الحركات الفكريّة في الإسلام) .

٢ ـ واستعمل كلمة « الجيل » بدل « القرْن » الّذي هو عُرْفاً في كتابة التّاريخ مئة سنة ، كما في الصّفحات : ١٨ / ١٩ / ٣٠ / ٣١ / ٤٥ / ٥٥ / ٥٨ / ٧٩ / ٩٢ / ١١٥ / ٢١٨

٣ ـ الدّعوى بلا دليل : النّبيّ يسافر كلّ سنة للتّجارة ، وكان اسمه (قثم بن عبد اللاّت) ، ولا شك أنّ النّبيّ العربي لم يقصد .. ولم يفكّر ببناء مملكة ضخمة[1] ..

٤ ـ ركّز على العبارات التّالية : « مؤسّس الدّين الإسلامي ، المصلح العربي ، واضع الشّريعة الإسلاميّة ، المُشْتَرِع العربي ، كما في الصّفحات : ١٨ / ٢٢ / ٢٣ / ٢٤ / ٢٦ / ٣١ / ٣٢ / ٣٣ / ٣٥ / ٣٨ / ٤٠ / ٤٢ / ٤٤ / ٤٨ / ٥٤ / ٥٦ / ١٣٥ / ١٤٦ / ١٩٧ / ١٩٨ .. دون أن يذكر أنّ هذا المشترع يؤمن به مئات الملايين من البشر نبيّاً مُرْسَلاً .

٥ ـ ذمّ المستشرقين وانتقدهم (الصّفحة ١١ وما بعدها) ، ثمّ اعتمد على آرائهم وادّعاءاتهم ، علماً أنّ نتاجهم كان مزيجاً من قدرٍ ضئيلٍ من الحقيقة ، وقدرٍ كبيرٍ من الخيالات والافتراءات ، وهذا لا يعني أنّ كلّ مستشرق متعصّب حاقد ، فهناك عددٌ لم يتّبع الهوى ، ولم يَمِل مع الدّس والتّحامل .

---

(١) من تاريخ الحركات الفكريّة في الإسلام ، على التّوالي ، الصّفحات : ٣٢/٣١/٤٤/٢٢

٦ ـ واستخدم عبارة « كَتَبَة المسلمين » ، كما في الصَّفحات : ٣٥ / ٣٧ / ٨٩ / ٩٩ / ١٠٠ / ١٣١ / ١٤١ / ١٥٢ / ١٨٧ / ١٩٩ / ٢٠٠ / ٢١١ / ٢٢٢ / ٢٣٠ ، بدل عبارة « المؤرِّخون المسلمون » ، وفي ذلك غمط لمكانتهم كبير .

٧ ـ كما استعمل عبارةَ (الاحتلال) ، بدل عبارة (الفتح) : « اللُّغة اليونانيَّة لغة مصر وسوريَّة الرَّسميَّة قبل الاحتلال العربي .. » ، « .. سكان العراق وفارس قبل الاحتلال العربي » ، « إنَّ العربَ من يوم احتلُّوا مصر .. » .

٨ ـ ومن الهفوات في الأعلام : الرَّاهب أبو عامرة ، وصوابه : أبو عامر . إسماعيل بن جعفر الصِّدِّيق ، وصوابه : إسماعيل بن جعفر الصَّادق ...

وذكر عبدَ الله بن سبأ وعبد الله بن السَّوداء ، كشخصيَّتَيْن مختلفتَيْن ، وهما شخصيَّة واحدة . وذكر أبا الفرج وابن العبري ، وهما أيضاً شخصيَّة واحدة (الصَّفحة ٨١) .

٩ ـ واعتمد (الأغاني) في استقاء بعض أخباره ، كما في الصَّفحات : ٧٢ / ٧٤ / ٩٧ / ٩٩ / ١٧٩ / ٢٤٣ .. وهو كتاب أدب ، لا كتاب تاريخ يعتمد .

١٠ ـ والجزم في أُمور لم تثبت : بنو أميَّة خصوم النَّبيِّ والإسلام ، قتل البرامكة من مظاهر الظلم .. ، كما كان يؤكِّد محمَّد في بادئ دعوته أنَّ الله يظهر له في الرُّؤيا الَّتي كان يراها .. لأنَّ المراد هنا بالعالَمين و « بالنَّاس كافَّة » العرب فقط ..

إنَّ أحداً من أصحاب محمَّد أو أعدائه الَّذين رووا سيرته ، لم يزعم أنه ـ ﷺ ـ كان يؤكِّد في بدء دعوته أنَّ الله يظهر له في الرُّؤيا ، ولم يعتقد ذلك أحد من المسلمين قط ، أمَّا اعتقاد الأستاذ بندلي أنَّ آيات القرآن الكريم المذكورة : (العالمين .. النَّاس كافَّة) لا يمكن تأويلها إلاَّ بالمعنى الَّذي يراه ، فهو دعوى عريضة بعيدة جدّاً عن الموضوعيَّة ، وروح الحوار العلميَّة الَّتي عهدناها عند الأستاذ بندلي الجوزي .

الملحق

البروفيسور
ضياء الدين موسى بونياتوف
الباكَوِيّ[1]

ينتمي الأكاديمي ضياء الدِّين موسى بونياتوف إلى مجموعة بارزة من العلماء الَّذين كوَّنوا بأبحاثهم العميقة رصيداً حقيقياً لعلم الاجتماع في الاتحاد السُّوفييتي ، والَّذين جدَّدوا علم التَّاريخ والدِّراسات الشَّرقيَّة وراء حدود الاتِّحاد السُّوفييتي[2] .

البروفيسور بونياتوف متخصِّص في تاريخ العصور الوسطى في أذربيجان ، وتاريخ الخلافة العربية الإسلاميَّة ، ولقد حقَّق في هذا المجال اعترافاً وتقديراً واسِعَيْن لدى الأوساط العلميَّة . إنَّ طريق حياته الغني والمجيد ، والخصب والمتنوِّع العلوم ، والتَّربوي والاجتماعي والسِّياسي ، المثال الواضح للتَّفاني ونكران الذَّات في سبيل خدمة بلاده وشعبه .

ولد ضياء الدِّين موسى بونياتوف يوم الأربعاء ٢١ كانون الأوَّل سنة ١٩٢١ م ، في مدينة (استارا) الأذربيجانيَّة ، لعائلة موظَّف حكومي ، وبعد أن أنهى المدرسة المتوسِّطة سنة ١٩٣٩ في مدينة (غيوكتشاي) ، انخرط في عداد الطلاب الضُّبَّاط في كلية (باكو) العسكريَّة للمشاة .

---

(١) نسبة إلى مدينة باكو ، عاصمة جمهوريَّة أذربيجان .

(٢) هذه التَّرجمة للبروفيسور ضياء الدين موسى بونياتوف ملخَّصة عن كتاب صدر سنة ١٩٨١ م بمناسبة بلوغ بونياتوف السِّتِّين من عمره ، قدَّمه : م . ا . إسماعيلوف العضو المراسل لأكاديميَّة العلوم الأذربيجانية ، والدكتور ت . ب . غسَّانوف ، دكتور في العلوم التَّاريخيَّة ، لذلك نجد عبارة الاتِّحاد السُّوفييتي تتكرر في هذه التَّرجمة .

وبدءاً من شهر شباط سنة ١٩٤٢ ، وحتّى الاندحار الكامل لألمانية النّازيّة ، عمل بونياتوف على جبهات الحرب العالميّة الثّانية ، وشارك بشكل فعّال في معارك تحرير القفقاس ، وأوكرانية ، ومولدافية ، وروسية البيضاء ، وبولونية ، كما وشارك في عمليّة احتلال برلين ، وكان خلال هذه الأحداث قائد فصيلة ، ثمّ سريّة ، ثمّ قائد كتيبة ، ولقد وُجِدَ دائماً في أكثر نقاط الأعمال القتاليّة اشتعالاً ، جاعلاً من نفسه مثلاً وقدوة للمقاتلين في الجسارة والشّجاعة في القتال ضدّ عدوٍّ مستميت ؛ ولقد جُرِح بونياتوف خلال المعارك مرّتَيْن .

وتقديراً لشجاعته ، واعترافاً بجسارته وبطولته في تنفيذ المهام الملقاة على عاتقه من قبل قيادته ، منحه مجلس السّوفييت الأعلى في ١٩٤٥/١١/٢٧ لقب بطل الاتّحاد السّوفييتي [1] .

عمل منذ أيّار سنة ١٩٤٥ ، وحتّى أيّار ١٩٤٦ معاوناً لقائد منطقة (بانكوف) العسكريّة في برلين ، وكان ما يزال ضابطاً صغيراً بعد ، ثمّ شارك الألمان المعادين للنّازيّة والشّيوعيين في إعادة الحياة الطّبيعيّة لمدينة برلين ، ولقد قدّرت حكومة ألمانية الشّرقيّة خدمات بونياتوف عالياً ، فقلّدته وسام النّجمة الذّهبيّة (فافين برودرشافت) ، كما قلّده اتّحاد الشّبيبة الشيوعيّة الألمانيّة الميدالية الذّهبيّة (آرتور بيكر) .

وبعد تسريح بونياتوف من الخدمة سنة ١٩٤٦ ، انتسب إلى معهد موسكو للدّراسات الشّرقية ، وتقدّم سنة ١٩٥٠ للدّراسات العليا في المعهد المذكور ، وكان على اتّصال وثيق مع أستاذه المستعرب السّوفييتي ي . أ . بيليايف المشرف على دراسته ، كما بنى بونياتوف صلاتٍ وثيقةً مع غيره من العلماء البارزين الذين كان لهم التأثير الكبير في توجيهه فيما بعد ليصبح شخصيّة بارزة في ميدان الاستعراب .

---

(١) والبروفيسور بونياتوف لا يضع على صدره إلاّ هذا الوسام ، على الرّغم من كثرة الأوسمة الّتي قدّمت إليه .

وفي سنة ١٩٥٤ تقدَّم بأوَّل أبحاثه لنيل الدكتوراه ، وكانت دراسة عن : (الإمبرياليَّة الإيطاليَّة في إفريقية) ، وفي سنة ١٩٥٤ بدأ بونياتوف العمل في دائرة أكاديميَّة العلوم في جمهوريَّة أذربيجان ، وخلال عشر سنين أصبح بونياتوف كبير العاملين في معهد التَّاريخ ، وبدءاً من سنة ١٩٦٤ تولَّى إدارة قسم تاريخ القرون الوسطى والشَّرق في معهد الدِّراسات الشَّرقيَّة التَّابع لأكاديمية العلوم في أذربيجان .

ومنذ شهر نيسان ١٩٨١ ، وحتَّى شباط ١٩٨٦ تولَّى إدارة المعهد ذاته ، وفي شباط ١٩٨٦ عمل بونياتوف عميداً لقسم تاريخ القرون الوسطى والشَّرق في معهد أكاديميَّة العلوم للدِّراسات الشَّرقيَّة في أذربيجان ، وفي أيار ١٩٨٨ اختير ثانية مديراً لمعهد الدِّراسات الشَّرقيَّة التَّابع لأكاديميَّة العلوم الأذربيجانيَّة حتَّى سنة ١٩٩١ ، حيث أصبح نائباً لمدير الأكاديميَّة .

إنَّ الإبداع العلمي عند بونياتوف يتطوَّر باتِّجاهين اثنين :

١ ـ البحث التَّاريخي في العلاقات الاجتماعيَّة ـ الاقتصاديَّة لأذربيجان وأقطار الشَّرق الأوسط في القرون الوسطى .

٢ ـ ودراسة وشرح وتحقيق مؤلَّفات كُتَّاب القرون الوسطى في التَّاريخ والعلوم ، وثقافة شعوب الشَّرق الأوسط والأدنى .

إن الشُّهرة الواسعة لضياء الدين موسى بونياتوف كباحث كبير ، وعارف مختص بتاريخ أذربيجان ، جلبها إليه كتابه : (أذربيجان من القرن السَّابع حتَّى القرن التَّاسع الميلادي) ، الَّذي نُشِرَ سنة ١٩٦٥ ، فلقد كان هذا الكتاب الأوَّل من نوعه في علم التَّدوين التَّاريخي الأساسي لتاريخ أذربيجان في فترة الحكم العربي الإسلامي ، وعلى أساس دراسة متقنة ، وتحليل دقيق لدائرة واسعة من المصادر العربيَّة والفارسيَّة والتُّركيَّة والأرمنيَّة والجيورجيَّة النَّادرة ، والآثار الخطِّية المجهولة لمؤلِّفين من العصور الوسطى ، قدَّم بونياتوف لوحة كاملة للحياة الاجتماعيَّة والاقتصاديَّة والسِّياسيَّة في أذربيجان قبيل الحكم العربي وأثناءه .

ففي هذه الدّراسة تمّ بشكل عميق وشامل ، توضيح الكثير من المشكلات الرّئيسيّة في تاريخ القرون الوسطى في أذربيجان ، مثل علاقات الأراضي ونظام استثمارها ، الضّرائب ، الحياة الاجتماعيّة ، التّجارة .. غير أنّ مكاناً هاماً في هذه الدّراسة خُصّص لدراسة حركة (بابَك الْخُرَّمي) .

ومن خلال أبحاث بونياتوف قدّم سنة ١٩٧٨ عمله الهام : (دولة الأتابكة في أذربيجان في عصر نهضة الشّرق ، ولقد حاز من جراء هذا العمل جائزة الدّولة في العلمي ، والدّراسة العميقة للمشكلات الاجتماعيّة والاقتصاديّة والثّقافيّة لتطوّر أذربيجان في عصر نهضة الشّرق ، ولقد نال من جراء هذا العمل على جائزة الدّولة في جمهوريّة أذربيجان ، في مجال العلم والفن لسنة ١٩٨٠ .

إنّ الاطّلاع الواسع ، ومحبّة العمل ، مع الموهبة الكبيرة في البحث ، كل أولئك مكّن البروفيسور بونياتوف من كتابة أكثر من مئة وخمسين بحثاً منشوراً خطّها قلمه .

ومن أبحاثه العديدة ، تلك الّتي اهتّمت بالتّجمعات السّكانيّة المأهولة ، وتدقيق جداول الأنساب ، ووصف الحقائق الهامة للعلاقات التّاريخيّة لأذربيجان مع دار الخلافة ، وجورجية ، والأقطار الأخرى .

كما اهتم البروفيسور بونياتوف بالكشف عن المصادر العربيّة المتعلّقة بالطّب ، وعلم الزّلازل ، وعلم الفلك ، وضمّها في إطار علمي .

إنّ أعمال التّنقيب الدّقيقة هذه لتشهد على الاجتهاد ، والنّهج الدّقيق في البحث للبروفيسور بونياتوف ، الّذي قدّم خدمات جلّى في مجال ترجمة وتحقيق ونشر مصادر عربيّة فريدة ، تعود للقرون الوسطى في تاريخ أذربيجان وجغرافيتها في القرون الوسطى ، وفي تاريخ آسية الوسطى والقفقاس ومناطق أخرى ، ومن هذه المصادر المترجَمة والمنشورة باسم البروفيسور بونياتوف :

كتاب : (تلخيص الآثار وعجائب المَلِك القهّار) لعبد الرّشيد الباكوي ، الّذي عاش في القرن الرّابع عشر الميلادي وبداية القرن الخامس عشر ، ويعدُّ هذا الكتاب أوّل عمل جغرافي معروف لكاتب من مدينة باكو ، ولقد قدّمه البروفيسور بونياتوف سنة ١٩٧١ .

وكتاب : (سيرة السّلطان جلال الدين منكبورتي[1]) ، لشهاب الدّين النّسوي من القرن الثالث عشر ، قدّمه البروفيسور بونياتوف سنة ١٩٧٣ ، وهو يعطي صورة تاريخيّة سياسيّة لدولة خوارزمشاه ، والمناطق الدّاخلة ضمن إيران حالياً ، وأذربيجان ، وجورجية ، وأرمينية ، والعراق ، وآسية الصُّغرى قبيل الغزو المغولي .

وكتاب (أخبار الدّولة السّلجوقيّة) لصدر الدّين علي الحسيني من القرن الثالث عشر ، قدّمه البروفيسور بونياتوف سنة ١٩٨٠ ، ويعدُّ هذا الكتاب واحداً من المصادر الأساسيّة لتاريخ ماوراء القفقاس وشمال إيران في نهاية القرن الثّاني عشر الميلادي ، حيث تضمّن الكتاب معلومات دقيقة عن الأتابكة في أذربيجان من سلالة (ألديغيزيين = شعوب البحر) ، وعلاقاتهم المتبادلة مع سلاطين آل سلجوق ، والاتّحاد الجورجي الشيريثاني ضدّ القوات المسلّحة الأتابكيّة والسلجوقيّة .

واستخلص البروفيسور بونياتوف من (كتاب الفتح) لابن أسامة الكوفي ، المعلومات الجديدة المختلفة عن معلومات المؤلّفات الأخرى عن أذربيجان في فترة الحكم العربي ، وقدّمها بكتاب سنة ١٩٨١ في باكو .

---

(١) جلال الدّين منكبورتي بن محمد ، آخر شاهات خُوارزم ، تولّى سنة ٦١٧ هـ (١٢٢٠ م) ، ومنذ السّنة التّالية لحكمه اشتبك في حرب دفاعيّة ضدّ التّوسع المغولي بقيادة جنكيزخان ، الذي انتهى بالاستيلاء على خوارزم سنة ٦٢٨ هـ (١٢٣٠ م) وهي السّنة التي توفي فيها منكبورتي ، [القاموس الإسلامي : ٦٣٠/١] .

ومن (معجم البلدان) لياقوت الحموي ، و (نزهة القلوب) لحمد الله القزويني ، قدَّم البروفيسور بونياتوف سنة ١٩٨٣ المعلومات التّاريخية والجغرافية عن المدن الأذربيجانيَّة قبل وبعد الغزو المغولي .

وقدَّم البروفيسور بونياتوف مع إسكندروف سنة ١٩٨٣ ترجمة محقَّقة للكتاب جلال الدين السيوطي : (كشف السّلسلة عن وصف الزّلزلة) ، الّذي احتوى على معلومات واسعة عن علم الزّلازل العربي في القرون الوسطى .

وفي سنة ١٩٨٣ أيضاً تعرَّفت دائرة مؤرّخي الطّب في الاتّحاد السّوفييتي على التّرجمة المحقَّقة لبونياتوف لمخطوطة : (رسالة عن الجراحة وأدواتها) ، لجرّاح القرن الحادي عشر الميلادي أبي القاسم خلف بن عباس الزّهراوي .

والبروفيسور ضياء الدّين موسى بونياتوف أوّل من ترجم إلى الروسيّة الكتاب الثّمين (السّفر الألباني) ، لـ (مخيترغوش) ، والّذي يحتوي على حقائق كثيرة عن الفترة من القرن السّابع ، وحتّى القرن الثّاني عشر الميلادي ، وكتاب يوهان ديغالونيفونتيبوس : (معلومات عن شعوب القفقاس) ، وكتاب المؤرّخ التّركي الحديث بخرييه أوتشوك : (النّساء القائدات في الأقطار الإسلاميّة) .

كما قام بترجمة العديد من الكتب ، مزوّداً إياها بالتعليقات والحواشي ، مثل كتاب : (رحلة في أوربة وآسية وإفريقية : ١٣٩٦ ـ ١٤٢٤ م) ، للكاتب يوهان شيلتبرغ ، و (رحلة الأمير يشبك) لمحمود الحلبي ..

إنّ هذا الجهد ، جلب للبروفيسور بونياتوف شهرة كواحد من أكبر المؤرّخين المتميّزين بالعمق والأصالة ؛ الاستنتاجات الموثّقة ، والحجج الدّامغة ، تشهد على ذلك أبحاثه الأخيرة ، مثل : (دولة خُوارزم شاه : ١٠٩٧ ـ ١٢٣١ م) ، الصّادر سنة ١٩٨٦ في موسكو ، والّذي يغطّي مئة وأربعين عاماً من تاريخ آسية الوسطى ، ومناطق أخرى في زمن سيادة شاهات خُوارزم ، السّلالة الرّابعة .

يبحث هذا الكتاب في نشوء وتطور وسقوط هذه الدّولة ، وفيه معالجة مسائل التّاريخ الاقتصادي والسّياسي لدولة شاهات خُوارزم ، أمّا القسم الأكبر منه فمخصّص في مسائل التّاريخ والثّقافة .

وتابع بونياتوف نشاطه العلمي في التّرجمة معرّفاً القرّاء على مواد جديدة عن تاريخ أذربيجان وثقافتها ، ومناطق أخرى في العصور الوسطى ، وقد ترجم جزءاً من هذه المصادر من اللّغة العربيّة إلى الرّوسيّة ، مثل البحث الفلسفي للمؤرّخ محمد فضولي .

وإنّ لبونياتوف خدمات كبيرة في إعداد الدّارسين الحاذقين في العلوم الشّرقيّة ، فهو يعدّ المؤسّس المعترف به لمدرسة المؤرّخين المستعربين في جمهوريّة أذربيجان ، لقد لعب دوراً هاماً في إعداد كادر من العلماء في الاتّحاد السّوفييتي وخارجه ، وكان مستشاراً مناقشاً مقرّظاً لاثنتي عشرة رسالة دكتوراه[1] ، ومديراً للعشرات من رسائل الدّراسات العليا .

ونظراً لوجوده في موقع مدير معهد الدّراسات الشّرقيّة ، التّابع لأكاديميّة العلوم في جمهوريّة أذربيجان ، قام بعمل علمي كبير ، باذلاً جهوداً وطاقات كبيرة لتطوير الدّراسات الشّرقيّة في أذربيجان ، وتعزيز الاتصالات وتوسيعها مع الهيئات الاستشراقيّة في الاتّحاد السّوفييتي وخارجه .

ولما كان البروفيسور بونياتوف ممثلاً لأذربيجان في رابطة مستشرقي عموم الاتّحاد السّوفييتي (الفاف) ، وممثلاً للمجلس العلمي لمسائل تاريخ المجتمعات الإقطاعيّة والمشاعيّة في أذربيجان ، يعطي اهتماماً خاصاً لتوثيق وتوفيق الأبحاث الاستشراقيّة في جمهورية أذربيجان ، لدفع المهتمين بالدّراسات الشّرقيّة في أذربيجان إلى مواقع الطّليعة في علم الاستشراق الكبير .

---

(١) وذلك حتّى سنة ١٩٨١ م ، سنة بلوغه السّتين .

شارك البروفيسور بونياتوف في عدد كبير من الندوات والمؤتمرات المحلّيّة والعالميّة ، منها : أعمال المؤتمرات من السّادس ، وحتّى العاشر للمجمّع التّاريخي التّركي في السّنوات : ١٩٦٦ ، ١٩٧٠ ، ١٩٧٦ ، ١٩٨٦ ، والمؤتمر العالمي للمؤرّخين في بغداد سنة ١٩٧٣ ، والمؤتمر الحادي والثّلاثين للمستشرقين في طوكيو سنة ١٩٨٣ حيث تقدّم بمذكرات قيّمة عن مدة بقاء الْخَزر في أذربيجان في القرنين السّابع والثّامن ، وعن نشاط خوارزمشاه جلال الدّين منقبورني في القفقاس عام : [١٢٢٥ ـ ١٢٢٦ م] ، وعن خصوصيّات سلطان قونية في مؤلّفات ابن الفواتي ، وعن مؤلّف محمود الحلبي (رحلة الأمير يشبك) كمصدر تاريخي تركي للقرن الخامس عشر ، وعن مشاركة القفقاسيين في الاستيلاء على مدينة بغداد سنة ١٢٥٨ م ...

وتقديراً لخدماته الكبيرة في البحوث التّركيّة ، اختير سنة ١٩٨٢ عضواً مراسلاً للمجمع التّاريخي التّركي .

وشارك البروفيسور بونياتوف بشكل فعّال في الحياة السّياسيّة والاجتماعيّة لأذربيجان[1] ، وقام وراء حدود بلاده بنشاط اجتماعي علمي كبير ، وهو عضو في اللّجنة السّوفييتيّة للمحاربين القدماء ، وعضو في رئاسة جمعية الصّداقة السّوفييتيّة ـ العربيّة ، ورئيس تحرير (أخبار أكاديمية العلوم الأذربيجانيّة) ، و (الفلسفة والقانون) ، وعضو رئيسي في تحرير الموسوعة الأذربيجانيّة ، وعضو جمعيّة الصّداقة الأذربيجانيّة ـ الألمانيّة الديمقراطيّة ، وعضو في الكثير من الجمعيّات والمنظّمات العلميّة والثّقافيّة .

وكثيراً ما كان يحاضر بطل الاتّحاد السّوفييتي بونياتوف في الجنود والضّباط ، ويقوم بالمساعدة في تربية المقاتلين على الإرث البطولي السّابق ، ويعدّ منظّماً ومشاركاً

---

(١) اهتماماته اليوم بالشّؤون العلميّة أكثر من اهتمامه بالشّؤون السّياسيّة ، وسمعتُ من عدد كبير من مثقفي الجبهة الشّعبية الحاكمة في أذربيجان ، لو أراد بونياتوف لكان رئيس جمهورية أذربيجان دون منافس .

فعّالاً في جمعيّات عسكريّـة وطنيّـة كثيرة ، مثل : (درب الآبـاء ـ طريق الأبنـاء) ، (المسيرة) .. وكان في قوام ألوية الدّعاية ، وتواجد في الكثير من منـاطق الجمهوريّـة ، وحاضر في موضوعـات عسكريّـة وطنيّـة شتّى ، وكثيراً مـا كان ينزل ضيفـاً على طلاّب المدارس العليا في الجمهوريّة .

وعلى الرّغم من عدم مساومته في العلاقة السّطحية والاستهلاكيّـة مع العِلْم ، يجسّـد بونيـاتـوف النّـوع الأفضـل للعـالم الحـديث في الحبّ الكبير للعمـل دون تـأمّـل منفعـةٍ شخصيّة[1] ، والنّزاهـة والتّواضع والاهتمام في علاقـاتـه مع نفسـه ، ومع غيره من زملائـه المبدعين .

إنّ خدمات البروفيسور ضياء الدّين موسى بونياتوف تقـدّر تقـديراً كبيراً من قبل الحكومة السّوفييتيّة ، الّتي قلّدته الكثير من الأوسمـة العـاليـة والميـداليـات ، ففي سنـة ١٩٨١ قُلّد واحداً من أعلى الأوسمة (وسام ثورة أكتوبر) ، وبمناسبة مرور أربعين عامـاً على النّصر ، تمّ تقليده وسام الحرب العظمى من الدّرجة الأولى .

وعلى سنيّ العمل الطويلة في المجال العلمي الاجتماعي ، ولإعداده الكوادر العلميّـة ، وبمناسبة بلوغه السّتين في سنة ١٩٨١ ، قُلّد شهادة تكريم رئاسـة مجلس السّوفييت الأعلى لجمهوريّة أذربيجان الاشتراكيّة السّوفييتيّة ، وفي سنة ١٩٨٢ تمّ تكريمه بلقب الجـدارة في

(١) لقد أشرف على أطروحتي ، وصوّر لي معظم تراث بندلي في مخطوطات معهد التّاريخ في أكاديميـة العلوم بأذربيجان ، ولم يطلب منّي إلا طلباً وحيداً ، قـال لي : اشتريت من مصر كتـاب (نهـايـة الأرب في فنون الأدب) للنويري من الجزء الأول وحتى الخـامس والعشرين ، إن صـدرت تتمـة الأجزاء أحضرهـا معك ، فحملت له الأجزاء من ٢٦ إلى ٣١ ، فقال لي : الكتاب أثمن هديّة تقدّم لي .
وبعد المدافعة عن أُطروحتي ، الّتي دامت أكثر من ساعتين ، والّتي دُعي إليها للمناقشة اثنـا عشر دكتوراً أكاديميـاً ، وقف ينتظر نتيجـة التّصويت على منحي (الـدكتوراه في التّـاريخ الإسـلامي) ، ولمـا رأى النتيجة الموافقة على منحي الـدّرجـة بـالإجمـاع ، دمعت عينـاه ، واقترب مني يقبّلني قـائلاً : مبروك ، مبروك ، وفي ختام حفلة الوداع في معهد الاستشراق قال : لاتَنْسَني من رسالة بين آونة وأخرى تطلعني فيها على إنتاجك الجديد وأحوالك وأحوال أسرتك .

العلوم في جمهورية أذربيجان ، وعلى نجاحاته في تطوير العلوم قُلّد في سنة ١٩٨٣ الميداليّة الفضّيّة في معرض عموم الاتّحاد السّوفييتي للإنجازات الوطنيّة .

إنَّ البروفيسور ضياء الدِّين موسى بونياتوف موجود في المواقع المضيئة من الإبداع العلمي ، ممتلئاً حيويَّة ، وفِكَراً جديدة ، وخططاً خلاَّقة ، ولقد توَّج أعماله بترجمة معاني القرآن الكريم إلى الأذربيجانيَّة .

☆ ☆ ☆

أهم مراحل حياته ، والأوسمة الّتي يحملها :

وُلِدَ في ٢١ كانون الأول ١٩٢١ في مدينة (أستارا) الأذربيجانيَّة .

١٩٣٠ـ١٩٣٩	درس في المدارس المتوسّطة لمدينة (غيوكتشاي) .
١٩٣٩ـ١٩٤١	طالب ضابط في كلّية باكو العسكريّة للمشاة .
١٩٤٢ـ١٩٤٥	حارب على جبهات الحرب العالميّة الثّانية ، قائد فصيلة ، فقائد سريَّة ، ثمَّ قائد كتيبة .
١٩٤٢	قُلّد وسام النجمة الحمراء .
١٩٤٣	قُلّد وسام الشجاعة ، ووسام الدّفاع عن القفقاس ، ووسام الدّفاع عن ستالينغراد .
١٩٤٥	حاز على وسام لينين ، وميدالية النّجمة الذّهبيّة ، بطل الاتّحاد السّوفييتي ، كما قُلّد وسام الرَّاية الحمراء ، وميدالية النَّصر على ألمانية في الحرب العظمى : ١٩٤١ ـ ١٩٤٥ .
١٩٤٥ـ١٩٤٦	معاون قائد منطقة (بانكوف) العسكريّة في مدينة برلين .
١٩٤٦ـ١٩٥٠	طالب في معهد موسكو للدّراسات الشّرقيّة .
١٩٥٠ـ١٩٥٤	طالب معيد في الدّراسات العليا في المعهد ذاته .
١٩٥٤	دافع عن أُطروحةٍ لنيل الدّرجة العلميّة (مرشّح في العلوم التّاريخيّة) .

١٩٥٤ـ١٩٦٤	كبير العاملين في الأبحاث العلميّة في معهد التّاريخ التّابع لأكاديميّة العلوم في جمهورية أذربيجان الاشتراكية السّوفييتيّة .
١٩٥٨ـ١٩٥٩	مدرّس في كلّيّة كيروف للدّراسات الشّرقيّة .
١٩٦٠	كبير لجنة الوصف في وزارة التّعليم المتوسّط والعالي للاتّحاد السّوفييتي ، ومُصَدَّق بلقب كبير العاملين العلميين .
١٩٦٤	دافع عن أُطروحةٍ لنيل درجة (دكتور في العلوم التّاريخيّة) .
١٩٦٤ـ١٩٨١	مدير وحدة تاريخ القرون الوسطى والشّرق في معهد الدّراسات الشّرقيّة التّابع لأكاديميّة العلوم في أذربيجان .
١٩٦٥	كبير لجنة الوصف في وزارة التّعليم العالي والمتوسّط الخاص في الاتّحاد السّوفييتي وحاز على لقب بروفيسور . وقُلّد ميدالية مرور عشرين عاماً على الحرب العالميّة الثّانية .
١٩٦٦	تقدّم بمذكرة إلى المؤتمر السّادس للمجمع التّاريخي التّركي في أنقرة .
١٩٦٧	اختير عضواً مراسلاً لدى أكاديميّة العلوم في جمهورية أذربيجان .
١٩٦٨	قُلّد ميداليّة مرور خمسين عاماً على تأسيس القوات المسلّحة السّوفييتيّة .
١٩٧٠	رئيس أكاديميّة العلوم في أذربيجان ، وصُدّقَ مديراً لتحرير أخبار أكاديميّة العلوم في جمهوريّة أذربيجان ، وقُلّد ميدالية العمل المتفاني بمناسبة مرور مئة سنة على مولد فلاديمير إيليتش لينين .
١٩٧٤	قُلّد الميداليّة الذّهبيّة (ڤاڤين برودرشافت) ، وميداليّة (أرنور بيكر) .
١٩٧٥	ميداليّة مرور ثلاثين سنة على النّصر في الحرب العالميّة الثّانية .
١٩٧٦	اختير أكاديميّاً في أكاديميّة العلوم في جمهوريّة أذربيجان السّوفييتيّة .
١٩٧٨	قُلّد ميدالية مرور ستّين سنة على القوات المسلّحة السّوفييتيّة .
١٩٧٩	نال كتابه دولة الأتابكة في أذربيجان على جائزة الدّولة في مجال العلوم والفنون .

عضو التّحرير الأساسي للموسوعة الأذربيجانيّة .
عضو جمعيّة الصّداقة مع الشّعوب العربيّة .

١٩٨١-١٩٨٦ مدير معهد الاستشراق في أكاديميّة العلوم الأذربيجانيّة .
رئيس الوحدة الأذربيجانيّة في رابطة المستشرقين لعموم الاتّحاد السّوفييتي .
قُلّد وسام ثورة أكتوبر على نشاطاته في مجال العلوم في الخطّة الخمسيّة العاشرة .

قُلّد شهادة الشّرف لمجلس السّوفييت الأعلى في جمهوريّة أذربيجان على سنيّ العمل الطّويلة في المجال العلمي والاجتماعي ، وعلى إعداد الكوادر العلميّة ، وبمناسبة بلوغه السّتين .
ترأس بعثة وجهاء العلوم والثّقافة في أذربيجان إلى الأردن .

١٩٨٢ قُلّد وسام عالم حائز على لقب الجدارة في جمهوريّة أذربيجان ، ولخدماته الكبيرة في مجال البحث في التّاريخ التّركي اختير عضواً مراسلاً للجمعيّة التّاريخيّة التّركيّة .

١٩٨٣ قُلّد ميداليّة (محنّك العمل) .
شارك في المؤتمر الدّولي الحادي والثّلاثين للمستشرقين في طوكيو .
حصل على الميداليّة الفضّيّة في معرض الإنجازات الوطنيّة لعموم الاتّحاد السّوفييتي (ڤيدي إنخا) .

١٩٨٥ تقدّم في مصر بمذكرة موضوعها : تأثير نصر الشّعب السّوفييتي في الحرب العالميّة الثّانية على تطوّر عمليّة التّحرير الوطني في آسية وإفريقية .
وبمناسبة مرور أربعين سنة على الحرب العالميّة الثّانية قُلّد وسام الحرب العالميّة الثّانية من الدّرجة الأولى ، ووسام مرور أربعين عاماً على

النَّصر : ١٩٤١ ـ ١٩٤٥ ، ووسام الاستيلاء على برلين ، ووسام تحرير وارسو ، ووسام الشَّرف العسكري .

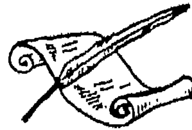
١٩٨٦ المشرف على قسم تاريخ الشَّرق في العصور الوسطى في معهد الاستشراق التَّابع لأكاديميَّة العلوم في جمهوريَّة أذربيجان .

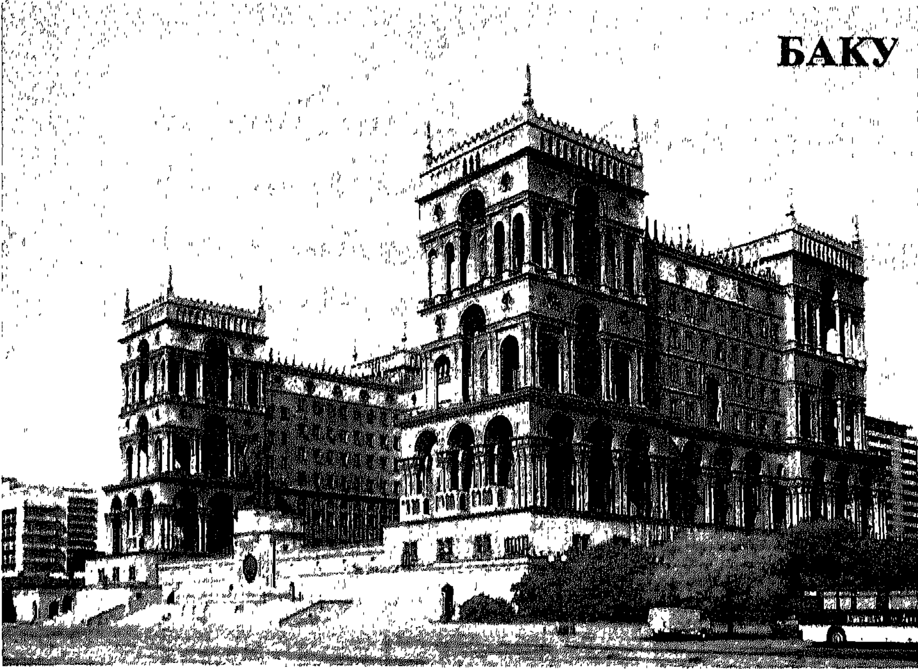
١٩٨٨ انتخب مديراً لمعهد الدِّراسات الشَّرقيَّة في أكاديميَّة العلوم الأذربيجانيَّة . اشترك في لجنة الحفاظ على بحر آرال في جمهوريَّة أوزبكستان ، وبسبب مرور ٤٣٠ سنة على تجديد مدينة (أورغنج) ، وبقرار من مجلس المدينة في ٢٤ أيلول ١٩٨٨ ، حاز على لقب مواطن شرف لمدينة أورغنج لخدماته في مجال الأدب ، ودراسة تاريخ خُوارزم ، وعلى الرَّصيد الكبير في حلِّ المشكلات البيئيَّة في بحر آرال ، وهو أوَّل من حصل على لقب مواطن شرف في مدينة أورغنج .

١٩٩١ نائب رئيس أكاديميَّة العلوم في جمهوريَّة أذربيجان .

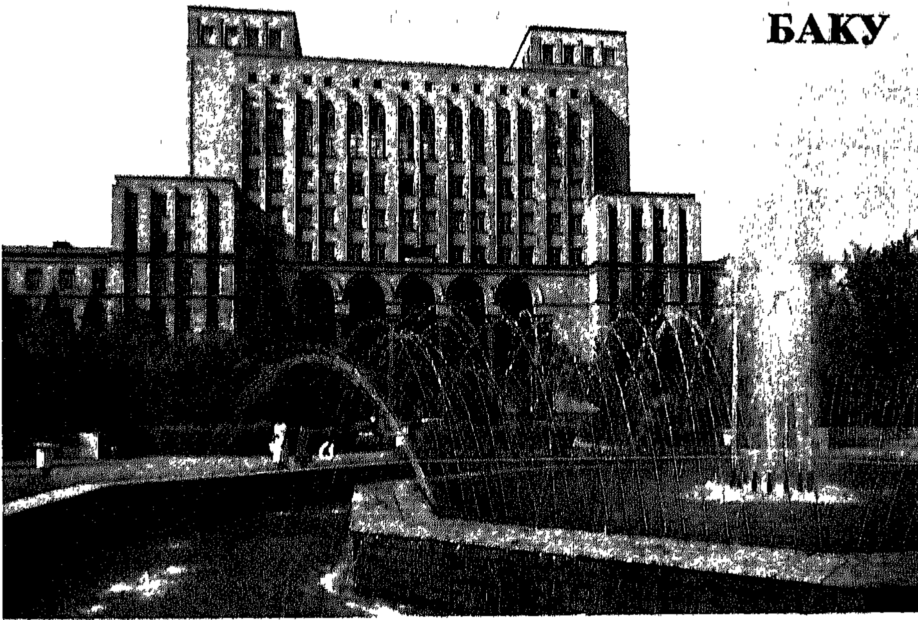
وهو اليوم في موقع الاحترام والتَّقدير من كلِّ النَّاس في أذربيجان ، ولولا الإطالة لذكرت أكثر من موقف احتجت فيه إلى توقيع رئيس الوزراء الأذربيجاني ، فَحُلَّ الأمر بهاتف واحد منه ، أمدَّ الله بعمره ، وما هذه التَّرجمة له إلاَّ من قبيل تطبيق حديث رسول الله ﷺ : « مَنْ لم يشكُرِ النَّاسَ لم يشكُرِ الله » ، فشكراً للبروفيسور ضياء الدين موسى بونياتوف ، وأثابه الله خيراً في دينه ودنياه .

☆ ☆ ☆

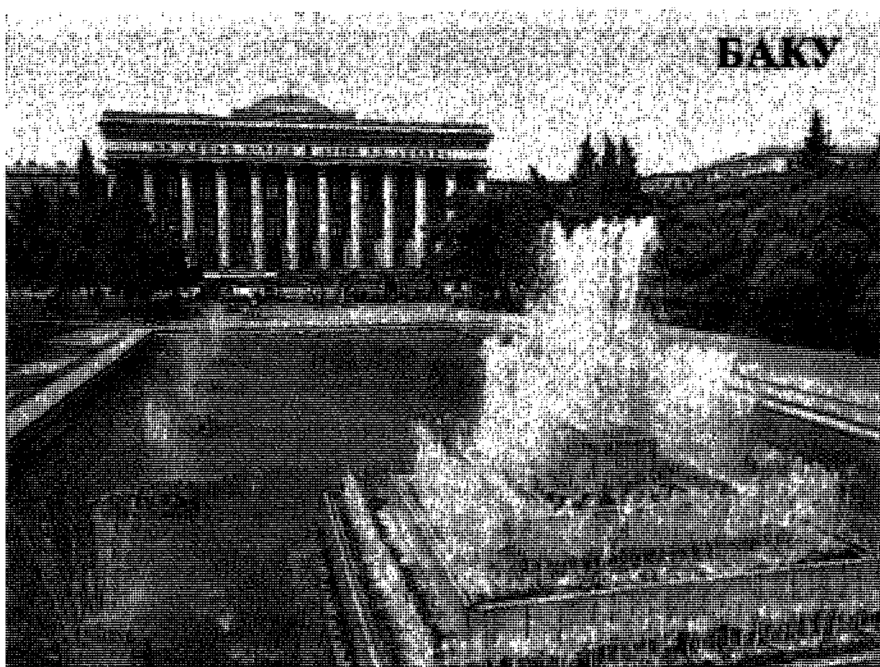




المقر الحكومي في باكو



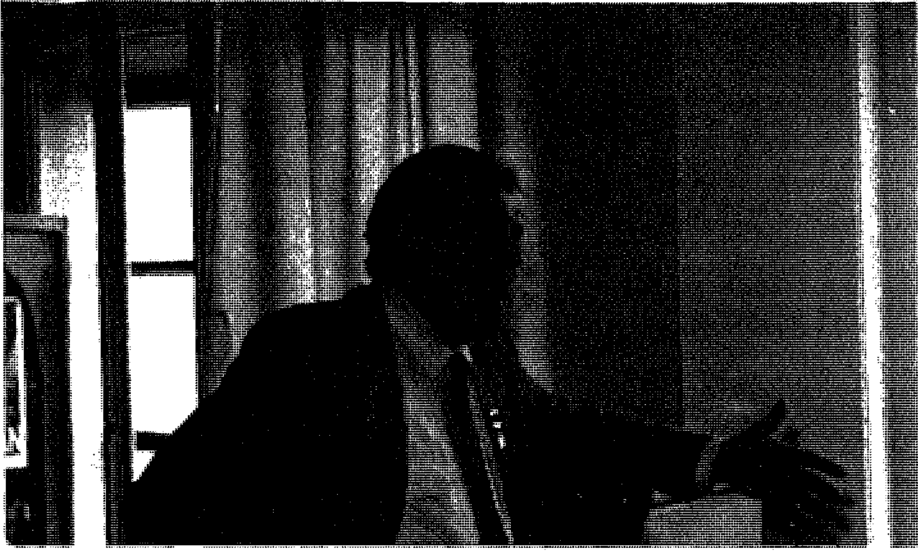
أكاديمية العلوم في باكو



متحف باكو



محطة القطارات (باكو)



البروفيسور ضياء الدين موسى بونياتوف



الأستاذة سارا بالاتبي عاشور تبْلي في حفل الدفاع عن الأطروحة

هذه هي لمحات وجيزة مشعة عن المرحوم الدكتور بندلي الجوزي
الذي كان رائداً حياً يعمل على توعية العرب بالتخلص من العادات البالية،
والخرافات المستحوذة على العقول، والثورة على النظم الفاسدة، والاستعمار
البغيض الذي كان، ولايزال يعمل على تفرقة صفوف العرب في شتى أوطانهم.

ويكفيه فخراً ان كتابه "من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام" لايزال يعتبر
مرجعاً رئيسياً للمؤرخين والباحثين وذلك بعد خمس وخمسين سنة على
طبعه وانه اي عمي قد أدى رسالة كاملة في سبيل وطنه، وقوميته، والإنسانية.

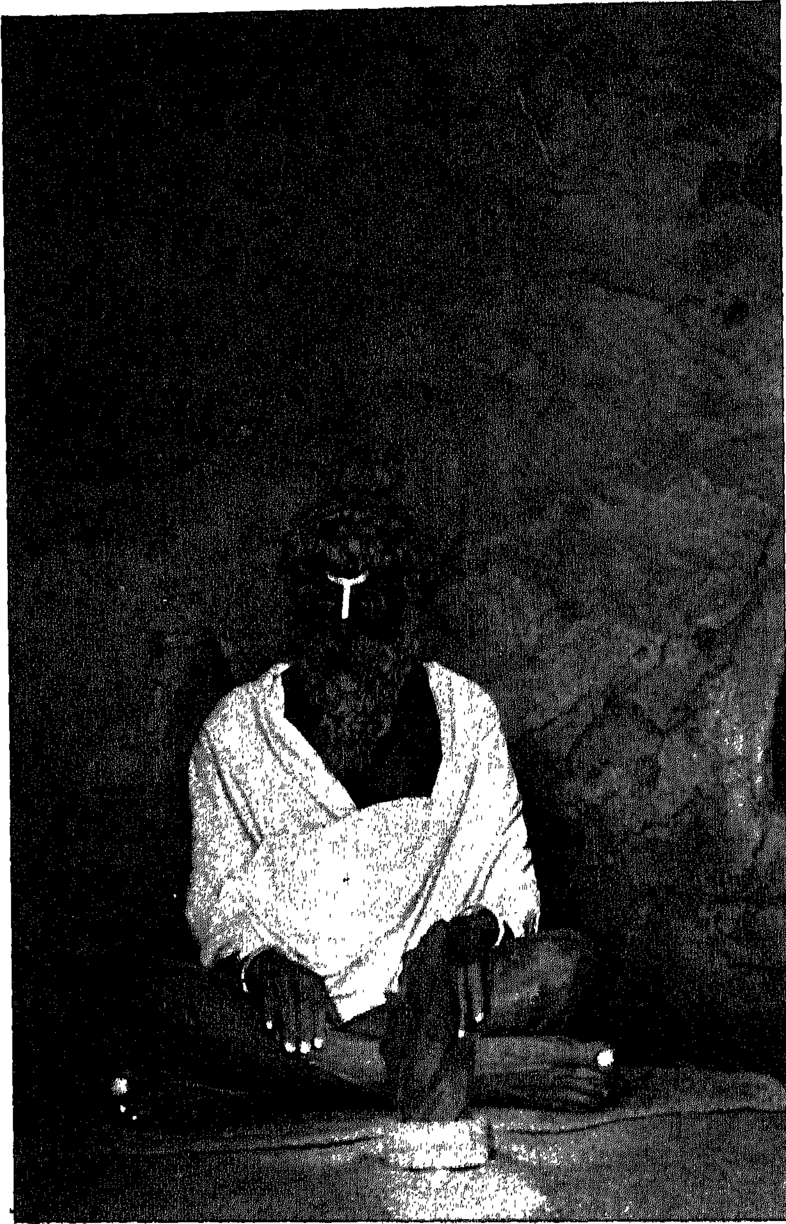
ابن اخيه: نصري

نصري الجوزي

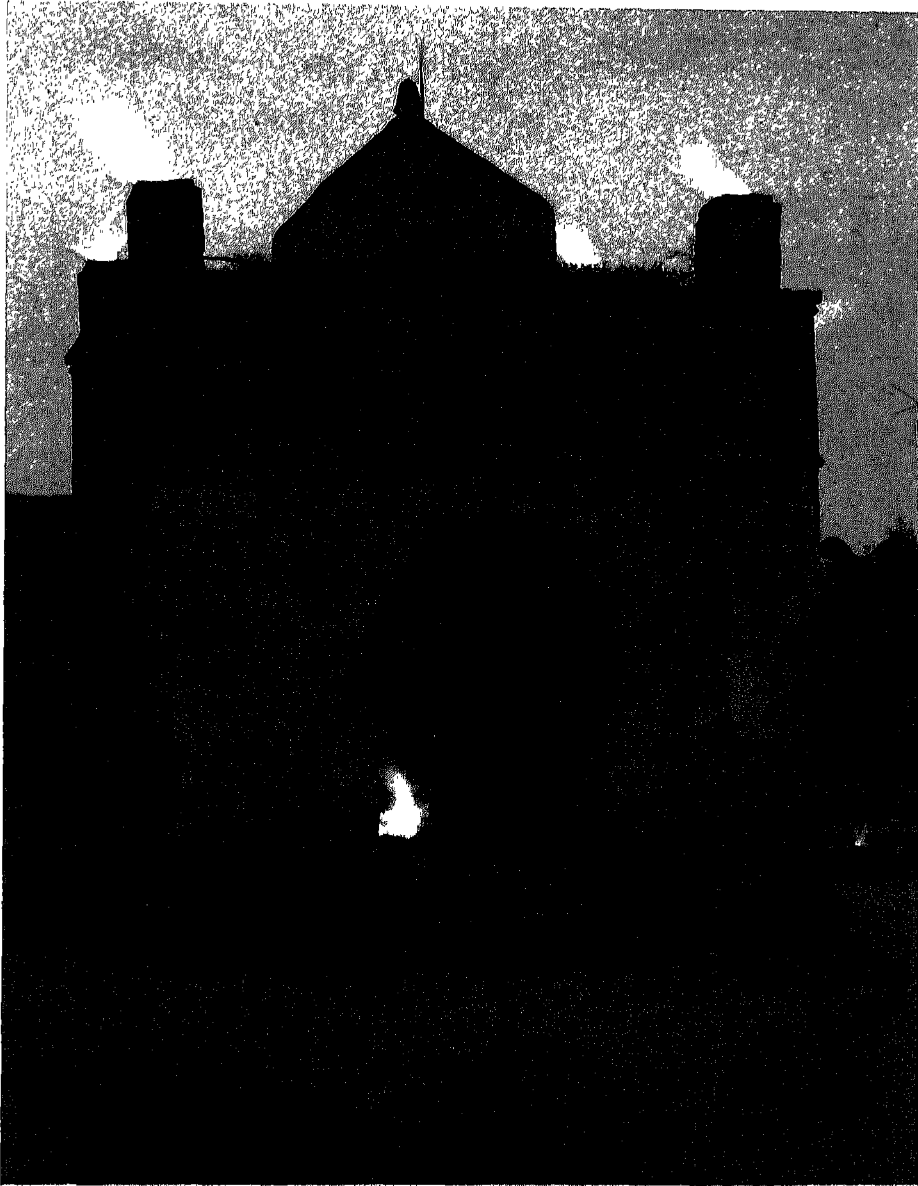
دمشق في ١٩٨٤/١/٨



معبد النار في (أتشكا) قرب باكو



متعبد في معبد النار



معبد النار (النيران المشتعلة من الغاز الطبيعي المنطلق من الأرض)

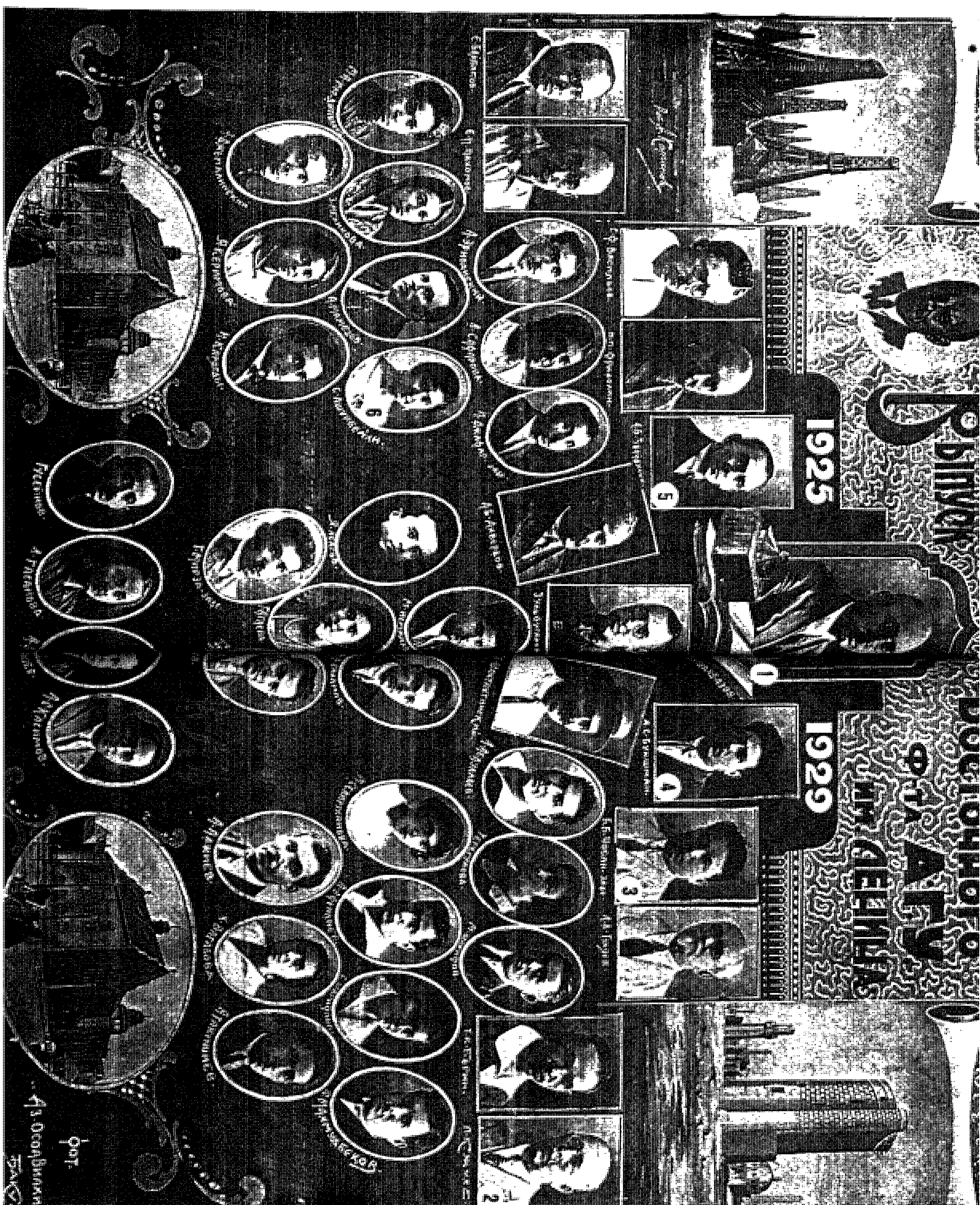
الباب الثالث (27) في تفسير ألفاظ التي يتكرر ذكرها
في هذا الكتاب. فرسخ، درجة، دقيقة
السكة ...

الباب الرابع (48) في أقوال الفقهاء في أحكام
أراضي الفتح والغنيمة وكيف
قسمة ذلك ... أراضي
عشر، أراضي خراج، خمس غنيمة

الباب الثالث (52) في جمل من أخبار البلدان

Якут не всегда, все
что написано его пред-
шественниками.
Ал-Истахри говорит:
О Хулане (30) у Якута много нет.
также Сашур (30) Кашкатус, (32)
Нувейс (32) Кашмари, (32)

نموذج آخر من خط الأستاذ بندلي



كلّيّة الاستشراق لجامعة أذربيجان الحكوميّة

(دفعة) : ١٩٢٥ ـ ١٩٢٩ م

١ ـ مدير الجامعة البروفيسور شاه بازوف .

٢ ـ البرفيسور بندلي الجوزي .

٣ ـ البروفيسور تشوبان زادة (مدير كلّيّة الاستشراق) ، تتري من القرم .

٤ ـ البروفيسور بوكشمان (موسوي من باكو) .

٥ ـ البروفيسور غوباي دولن (تتري من قازان) .

٦ ـ سارا بالاييْ عاشور بَيْلي (تلميذة الجوزي) .

أهم سلع التّصدير من ميناء يافا

(الكميّات بالكيلة ، الأُقّة ، الحبّة أو الصّندوق)

السّنة	القمح (كيلة)	الشعير (كيلة)	الذرة (كيلة)	السمسم (أُقّة)	زيت الزيتون (أقة)	الصّابون (أقّة)	البرتقال (حبّة)	صوف الغنم (أقة)	القطن (أقة)
١٨٥٧	٤٥٤٥٥٥	٢٤٥٠١١	٣٩٣٩٢	٥٠٣٠٠٠	٢٠٠٠٠	١٠٠٠٠٠٠	٦٠٠٠٠٠٠	١٠٠٠٠	-
١٨٥٨	١٨٠٠٠	١٤٣٤١٤	١٦٦٧١٢	٨٢٠٠٠٠	١٠٠٠٠٠	٨٠٠٠٠٠	٣٠٠٠٠٠٠	٤٠٠٠٠	-
١٨٥٩	٣٠٠٠٠	٣٠٠٠٠	٢٥٠٠٠	٤٠٠٠٠٠	١٠٠٠٠٠	٥٠٠٠٠٠	٦٠٠٠٠٠٠	-	-
١٨٦٠	-	-	-	١٠٠٠٠٠٠	٢٠٤٠٠٠٠	٥٠٠٠٠	٥٠٠٠٠٠٠	٥٥٠٠	٢٠٠٠٠
١٨٦٢	٧٩٩٢٨	١١٧٦٦١	٥٧٨١٠	١٨٥٦٠٧٨	١٦٧٣٦٩٦	١٠٠٠٠٠	٨٠٠٠٠٠	٢٠٠٠	٢٠٠٠٠
١٨٧٣	٣١٠٠٠٠	١١٠٠٠٠	٢٥٠٠٠	٣٠٠٠٠٠٠	٢٥٠٠٠٠	٦٠٠٠٠٠	٢٧٧٥٠٠٠٠	١٠٠٠٠٠	٤٠٠٠٠
١٨٧٤	٢١٢٠٠٠	١٢٠٠٠٠	١١٥٠٠٠	٢٠٠٠٠٠	١٣٠٠٠٠	١٠٠٠٠٠٠	٢٥٥٠٠٠٠٠	١٢٠٠٠٠	١٠٠٠٠
١٨٧٥	٤٤٨٠٠٠	٢٨٨٠٠٠	٧٠٥٠٠	٢٨٠٠٠٠	١٠٠٠٠٠	١٣٠٠٠٠٠	١٠٢٠٠٠٠٠	٥٠٠٠٠	٥٠٠٠
١٨٧٦	٤٣٠٠٠٠	٢٥٠٠	٨٠٠٠٠	٢٣٥٠٠٠٠٠	٣٥٠٠٠٠٠	٢٤٦٠٠٠	١٤٠٠٠٠٠	١٥٠٠٠٠	-
١٨٧٧	-	-	١٦٠٠٠	١٨٧٠٠٠٠	١٠٠٠٠٠٠	٢٢٠٠٠٠	١٤٢٠٠٠٠٠	١٢٠٠٠٠	-
١٨٨٠	١٨٩٥٠٠	١٠٠٥٠٠	٢٥٣٠٠	١٧٠٠٠٠٠	٨٠٠٠٠٠	١٤٥٠٠٠٠	١٤٥٠٠٠	١٠٥٠٠٠	-
١٨٨١	٤٤٠٠٠٠	٢٥٥٠٠٠	٨٠٠٠٠	١٤٢٠٠٠٠	١٦٠٠٠٠	٨٥٠٠٠٠	١٧٠٥٠٠٠	١٣٥٠٠٠	-
١٨٨٢	٤٨٢٩٠٥	١٨٢٧٠	١٤٣٣٠٢	٢٢٩٢٨٤٤	٤٠٦١١٥	١١٢٤٠٠٠	١١٦٣٥٠	١٢٩٠٠٠	-

المصدر : التقارير السّنوية للقناصل البريطانيين .

عدد السُّفن القادمة إلى يافا

١٨٥٦ - ١٨٨٢ م (بين قوسين الحمولة بالأطنان)

السّنة	السفن الشراعيّة	السفن النجاريّة	السفن السّاحلية
١٨٥٦	٣٩ (٦١١٠)	٧٢ (٣٣٦٠٠)	٩٧ (٥١٣٥)
١٨٥٧	٤٩ (١٣٠٣١)		١٦١ (٣٥٣٤٤)
١٨٥٨	٣٤ (٩٣٤٦)		٣٢٦ (٦٢٠٨٦)
١٨٥٩	١٤ (٢٤٧٧)	١٤٤	٤٣١ (١١١١٩٢)
١٨٦٠	٢١ (٤١١١)	١٤٤	٢٠٠ (١٥٠٠٠)
١٨٦٢	١٧٦ (١٣٥٥٥)	١٤٣ (٥٩٥٠٠)	
١٨٧٣	٢٢ (٣٧٩٩)	١٧١ (١٠٤٧٦٦)	١٠٣٤ (٢٩٩٤٥)
١٨٧٤	٣١ (٤٤٥١)	١٨٤ (١٦٤٧٠٠)	١٢٩٣ (١٥٩٩٧)
١٨٧٥	٧٦ (١٨٥٧٤)	١٦٨ (١٤٩٤٢٢)	١٢١٥ (٢٣٨١٢)
١٨٧٦	٣٢ (٥٩٤٢)	١٦٩ (١٧٠٢٧٢)	١٤٥٠ (٢٥٤٦٠)
١٨٧٧	٢٨ (٥٧٢٩)	١٣٣ (١٥٠٨٠٠)	١٢٠٠ (٢١٧٥٠)
١٨٧٩	٥٨ (٧٥٤٩)	١٨٤ (١٨٨٠١٦)	٧٥٣ (١٨٢٧٢)
١٨٨٠	٣٠ (٣٣٨٦)	٢٤٩ (٢١١٠٢٩)	٩٤١ (٢٩٥٥٤)
١٨٨١	٢٢ (٤١٢٠)	٢٢٧ (١٩٥٧٩٨)	٨٤٦ (٢٥٢١٧)
١٨٨٢	٢٣ (٣٧٧٣)	٢٤٢ (٢٨٨٤٩١)	٤٣٦ (١٣٥٨٩)

المصادر : Parliamentary Papers, Public Record Office, London

تحوّلات جذرية في فلسطين ، ص ١٦٥ عن المصدرين أعلاه .

تصاعد الصّادرات الرّئيسيّة من يافا

(الكميّة بالكيلة ، أو بالأُقّة ، أو بالحبّة)

السّلعة	معدّل التّصدير السّنوي للسّنوات ١٨٥٧ ـ ١٨٦٠ و ١٨٦٢ ـ ١٨٦٣	معدّل التّصدير السّنوي للسّنوات ١٨٧٣ ـ ١٨٧٧ ١٨٧٩ ـ ١٨٨٢	التّصاعد (عدّة المرات)
القمح (كيلة)	٥٨,٣٣٣	٢٧٩,١٥٦	٤,٧٩
الشعير (كيلة)	١٢١,٣٧١	١٠١,٨٦٣	٠,٨٤
الذرة (كيلة)	٦٧١١١	٦١٦٧٨	٠,٩٢
السمسم (أقة)	١٢٤٥٤٢١	٢٠٥٩٢٤٩	١,٦٥
زيت الزيتون (أقة)	٧٠٥٦٢٤	١٠٧٣٤٦	١,٤٦
الصابون (أقة)	٤٢٠٠٠٠	٩٠٤٤٤٤	٢,١٢
صوف الغنم (أقة)	١٠٠٠٣	١١٥٤٤٤	١١,٥٤
البرتقال (حبّة)[٢]	٦٠٥٠٠٠٠	١٩٦٥٠٠٠٠	٣,٢٥

(١) استناداً إلى باور ٢٢٦ ، Bauer, Das Palästinisch Arabisch فالمكاييل والأوزان :
١ أُقّة = ١,٢٨ كغ ، ١ رطل = ٢,٨٨ كغ ، ١ كيلة = ٣٦ لتراً .

(٢) معدّل السّنوات ١٨٧٣ ـ ١٨٧٧ و ١٨٧٩ فقط ، لأن المعطيات ابتداء من سنة ١٨٨٠ هي بالصندوق (انظر : تحولات جذرية في فلسطين ، ص : ١٠٩ ، اعتماداً على التقارير السّنوية للقناصل البريطانيين) .

قيمة أهم ثلاث سلع من سلع التّصدير

من يافا في كل سنة من السنوات بالقروش

وحصتها من القيمة الكليَّة للسّلع المصدّرة

السّنة	سلع التصدير	القيمة بالقروش	الحصة من مجموع التصدير
١٨٧٥	القمح	٨,٩٦٠,٠٠٠	٦٥,٢
	السمسم	٧,٠٠٠,٠٠٠	
	الصابون	٥,٥٨٠,٠٠٠	
١٨٧٦	زيت الزيتون	٢,٤٥٠,٠٠٠	٧٩,٢
	الصابون	١١,٠٣٠,٠٠٠	
	القمح	٩,٠٣٠,٠٠٠	
١٨٧٧	السمسم	٦,٠٧٧,٥٠٠	٨١,٣
	زيت الزيتون	٥,٥٠٠,٠٠٠	
	البرتقال	١,٢٣٠,٦٦٦	
١٨٧٩	زيت الزيتون	١٠,٠٠٠,٠٠٠	٨٢,٣
	الصابون	٧,٤٢٥,٠٠٠	
	البرتقال	٣,٣٨٠,٠٠٠	
١٨٨٠	الصابون	٧,٦١٢,٥٠٠	٦٢,٢
	البرتقال	٥,٨٠٠,٠٠٠	
	القمح	٥,٦٨٥,٠٠٠	
١٨٨١	القمح	١١,٠٠٠,٠٠٠	٦٨,٣
	البرتقال	٦,٨٢٠,٠٠٠	
	الصابون	٥,١٠٠,٠٠٠	
١٨٨٢	القمح	٩,٨٩٩,٥٥٢	٦٤,١
	البرتقال	٨,١٤٤,٥٠٠	
	الصابون	٦,١٨٢,٠٠٠	

(١) تحولات جذرية في فلسطين ، ص : ١٠٢

سعر الاستهلاك في القدس
في سنة ١٨٥٨ - ١٨٨٠ بالقروش(☆)

السّلعة	١٨٥٨	١٨٨٠	السّلعة	١٨٥٨	١٨٨٠
رطل جير	٠,٥	٢,٥	رطل عدس	٣	٨
حمل الجمل من الحطب	١٨ـ ٢٥	٣٠	رطل أرز	٧ـ ٩	٨ـ ٩
رطل اللّحم	٣	١,٥	ثمنية قمح(☆☆)	١٠ـ ١٢	٥ـ ١١,٢٥
رطل صابون	١٣ـ ١٥	١٢	ثمنية شعير	٦,٥	٣ـ ٦,٢٥
عباءة	٩٠ـ ١٠٠	٨٠	ثمنية ذرة	٧	٢,٧٥ـ ٦,٧٥
حذاء	٢٢ـ ٢٤	١٠	رطل طحين	٥,٥	٤ـ ١٠
رأس قرنبيط	١ـ ٢	١,٥	رطل زبدة	٥٤	٣٦
رطل ملفوف	٣	٣	رطل جبنة	١٦ـ ٢٤	١٨
رطل جزر	٢	٢	رطل لحمة خروف	١٥	١٢ـ ١٨
رطل لفت	١,٥	١,٥	دجاجة	٦ـ ٧	٨
رطل خيار	٤	٢	٤ بيضات	١	٠,٥
رطل بصل	٣ـ ٤	٣,٥	حمامة	٢	٢
رطل رمان	٠,٥	٠,٢٥	رطل ملح	٢	٣
٨ حبّات برتقال	١	١	رطل خل	٦	٣
رطل لوز	١٢ـ ١٦	١٠	رطل عسل نحل	٣٠	٣٦
رطل زبيب	١٠ـ ١٢	٦	رطل سكر	٢٢ـ ٢٣	١٦
رطل زيت زيتون	١٠	١٥	رطل نبيذ	١٠ـ ١٣	٩
رطل فاصولياء	٤ـ ٦	٧	الإيجار الشهري لغرفة واحدة	٢٠٠ـ ٣٠٠	٤٠٠ـ ٦٠٠
رطل قهوة	٢٤	٣٣	الأجر اليومي للعامل	٥ـ ٨	٤ـ ٨

(☆) Lunes 11-16 &, Toblers dritte Wanderung 331-333

(☆☆) والثمنية = ٢,٢٥ ليتر .

التّطوّر السّكّاني لمدن فلسطين

١٨٠٠ - ١٩٢٢ م

المدن	١٨٠٠	١٨٤٠	١٨٦٠	١٨٨٠	١٩٢٢
القدس	٩,٠٠٠	١٣,٠٠٠	١٩,٠٠٠	٣٠,٠٠٠	٦٢,٠٠٠
عكّا	٨,٠٠٠	١٠,٠٠٠	١٠,٠٠٠	٨,٥٠٠	٦,٤٠٠
حيفا	١,٠٠٠	٢,٠٠٠	٣,٠٠٠	٦,٠٠٠	٢٤,٦٠٠
يافا	٢,٧٥٠	٤,٧٥٠	٦,٢٥٠	١٠,٠٠٠	٤٧,٠٠٠
الرّملة	٢,٠٠٠	٢,٥٠٠	٣,٠٠٠	٣,٥٠٠	٧,٤٠٠
غزّة	٨,٠٠٠	١٢,٠٠٠	١٥,٠٠٠	١٩,٠٠٠	١٧,٥٠٠
الخليل	٥,٠٠٠	٦,٥٠٠	٧,٥٠٠	١٠,٠٠٠	١٦,٦٠٠
بيت لحم	١,٥٠٠	٢,٥٠٠	٣,٧٥٠	٤,٧٥٠	٦,٦٠٠
نابلس	٧,٥٠٠	٨,٠٠٠	٩,٥٠٠	١٢,٥٠٠	١٦,٠٠٠
النّاصرة	١,٢٥٠	٢,٢٥٠	٤,٠٠٠	٦,٠٠٠	٧,٥٠٠
طبريّة	٢,٠٠٠	٢,٠٠٠	٢,٥٠٠	٣,٠٠٠	٧,٠٠٠
صفد	(٣,٥٠٠)[1] ٥,٥٠٠ (٧,٥٠٠)[1]	٤,٥٠٠	٦,٥٠٠	٧,٥٠٠	٨,٨٠٠
المجموع	٥٤,٠٠٠	٧٠,٠٠٠	٩٠,٠٠٠	١٢٠,٧٥٠	٢٢٨,٦٠٠

المصدر : Ben Arich «Popalation of the large Towns in Palestine», 680

(١) قبل زلزلة ١٨٣٧ م .

تطوّر سكّان فلسطين

بين : ١٨٥٠ ـ ١٩١٩ م

اللواء	نتيجة التحليل		أرقام مقارنة				
	١٨٥٠ ـ ١٨٦٥[١]	١٨٨٢[٢]	١٨٨١ ـ ١٨٩٣[٣]	١٩١١ ـ ١٩١٢[٤]	١٩١٤[٥]	١٩١٥[٦]	١٩١٩[٧]
القدس	١٨٠,٠٠٠	٢٣٠,٠٠٠	٢٣٤,٧٧٠	٣٥٢,٨١٣	٣٢,٨٦٨	٣٤٣,٣٦٢[٨]	٤٢٥,٠٠٠
نابلس / البلقاء	١٠٠,٠٠٠	١٣٠,٠٠٠	١١٥,٣١٤	١٨٣,٥٧٤	١٥٤,٥٦٣	١٥٣,٧٤٩	١٦٥,٠٠٠
عكّا	٨٠,٠٠٠	١١٠,٠٠٠	٧٥,٨٨٢	١٥٩,٠٠٦	١٣٣,٨٧٧	١٣٧,١٦٤	١٥٠,٠٠٠
المجموع	٣٦٠,٠٠٠	٤٧٠,٠٠٠	٤٢٥,٩٦٦	٦٩٥,٣٩٣	٦١٦,٦٠٨	٦٣٤,٢٧٥	٧٤٠,٠٠٠

(١ و٢) Gottheil «The Population», 312

(٣) Karpat, Ottoman Population Records 262,271

(٤) Mc Carthy 21,28

(٥) Zamir 92,98 (إحصاء عثماني)

(٦) Sch'olch, Araber und Juden in Palastian 15 - 18, Ruppin 8F

(٧) تقديرات وزارة الخارجية البريطانية Zamir, 105

(٨) باستثناء بئر السّبع .

عدد السُّكّان التَّقديري لمنطقة القدس

(فلسطين الوسطى والجنوبيّة في سنة ١٨٤٧ م)

القضاء	مسلمون	مسيحيون	يهود	المجموع
القدس	٢٥,٠٠٠	١٠,٠٠٠	١٠,٠٠٠	٤٥,٠٠٠
نابلس	١٠٠,٠٠٠	١,٥٠٠	١٠٠	١٠١,٦٠٠
غزّة	٤٠,٠٠٠	٥٠٠	-	٤٠,٠٠٠
الخليل	٢٥,٠٠٠	١,٠٠٠	٢,٥٠٠	٢٨,٥٠٠
يافا	١٥,٥٠٠	٣,٠٠٠	١,٠٠٠	١٩,٥٠٠
الرّملة	٧,٥٠٠	١,٠٠٠	-	٨,٧٠٠
اللّدّ	٦,٢٠٠	٨٠٠	-	٧,٠٠٠
المجموع	٢١٩,٢٠٠	١٧,٨٠٠	١٣,٦٠٠	٢٥٠,٦٠٠

لمصدر : أرشيف وزارة الخارجية (باريس) .

Archives du Ministère des Affaires Elrangeres, Paris, 12 (Jurusdin, 1.7 1847)

تطوُّر سُكَّان القدس

بين : ١٨٤٠ ـ ١٨٩٠ م

السَّنة	المسلمون	المسيحيُّون	اليهود	المجموع
١٨٤٠	٤٦٥٠	٣٣٥٠	٥٠٠٠	١٣٠٠٠
١٨٥٠	٥٣٥٠	٣٦٥٠	٦٠٠٠	١٥٠٠٠
١٨٦٠	٦٠٠٠	٤٠٠٠	٨٠٠٠	١٨٠٠٠
١٨٧٠	٦٥٠٠	٤٥٠٠	١١٠٠٠	٢٢٠٠٠
١٨٨٠	٨٠٠٠	٦٠٠٠	١٧٠٠٠	٣١٠٠٠
١٨٩٠	٩٠٠٠	٨٠٠٠	٢٥٠٠٠	٤٢٠٠٠(☆)

المصدر : Schick «Die Bauyeschichte» 270 f

(☆) بالغ (بن أريه Ben Arich) بعدد السُّكَّان اليهود كثيراً جدّاً .

المصادِرُ والمراجِعُ

« أ »

- الأحكام السُّلطانيَّة : محمّد بن الحسين الفرَّاء ، دار الكتب العلميَّة - بيروت ، طبعة سنة ١٩٨٣
- أخبار الخوارج : الإمام أبو العبَّاس المبرد ، دار الفكر ، بلا تاريخ أو طبعة .
- أصول التَّاريخ الأوربِّي الحديث : هربرت فيشر ، دار المعارف بمصر - ١٩٦٢
- أطلس التَّاريخ الإسلامي : هاري و . هازارد ، مكتبة النَّهضة المصريَّة - القاهرة ١٩٥٤
- الأعلام : خير الدِّين الزِّركلي ، دار العلم للملايين - بيروت ، الطَّبعة ٦ - ١٩٨٤
- إيران وعلاقاتها الخارجيَّة في العصر الصَّفوي : نصر الله فلسفي ، دار الثقافة - مصر - ١٩٨٩

« ب »

- البداية والنِّهاية : أبو الفداء ابن كثير الدِّمشقي ، مكتبة المعارف - بيروت ، ط ١ - ١٩٦٦
- البعثات اليسوعيَّة : د . طلال عتريسي ، الوكالة العالميَّة للتَّوزيع ، ط ١ - ١٩٨٧
- بلاد الشَّام في القرن التَّاسع عشر : دراسة وتحقيق د . سهيل زكَّار ، دار حسَّان - دمشق ، ط ١ - ١٩٨٢

« ت »

- تاريخ أخبار القرامطة : د . سهيل زكَّار ، دار الأمانة ومؤسَّسة الرِّسالة - بيروت - ١٩٧١
- التَّاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشَّرق الأوسط في العصور الوسطى : آ . آشتور ، دار قتيبة - دمشق - ١٩٨٥
- تاريخ حوادث الشَّام ولبنان (أو تاريخ ميخائيل الدِّمشقي) : تحقيق أحمد غسَّان سبانو - دار قتيبة - دمشق - ١٩٨١
- تاريخ الخلفاء : جلال الدِّين عبد الرَّحمن بن أبي بكر السُّيوطي ، المكتبة التِّجاريَّة الكبرى - مصر ، ط ١ - ١٩٥٢

ـ تاريخ الدّولة العربيّة : يوليوس فلهاوزن ، لجنة التّأليف والتّرجمة والنّشر ـ القاهرة ـ ١٩٥٨
ـ تاريخ الرّسل والملوك : محمّد بن جرير الطّبري ، دار المعارف بمصر ـ ١٩٦٠
ـ تاريخ سوريّة في العصور الحديثة : د . نادر العطّار ، بلا تاريخ أو دار نشر .
ـ تاريخ الشّعوب الإسلاميّة : كارل بروكلمان ، دار العلم للملايين ـ بيروت ، ط ٤ ـ ١٩٦٥
ـ تاريخ العالم : جون ا . هامرتن ، مكتبة النّهضة المصريّة ـ القاهرة ، ط ٢ بلا تاريخ .
ـ تاريخ العرب الحديث [١٥٠٠ ـ ١٩١٨] : د . عبد الكريم غرايبة ، مطبعة جامعة دمشق ١٩٦٠
ـ تاريخ العرب والشّعوب الإسلاميّة : كلود كاهن ، دار الحقيقة ـ بيروت ، ط ٢ ـ ١٩٧٧
ـ تاريخ العرب العام : لويس أميلي سيديّو ، عيسى البابي الحلبي ـ القاهرة ، ط ٢ ـ ١٩٦٩
ـ تاريخ مختصر الدّول : غريغوريوس الملطي (ابن العِبْري) ، بلا تاريخ أو طبعة أو دار نشر .
ـ تاريخ اليعقوبي (أحمد بن إسحاق) ، دار صادر ـ بيروت ، بلا تاريخ أو طبعة .
ـ تحوّلات جذريّة في فلسطين [١٨٥٦ ـ ١٨٨٢] : الكزاندرشولش ، الجامعة الأردنيّة ـ عمّان ١٩٨٨
ـ تراث الإسلام : بإشراف السّير توماس أرنولد ، دار الطّليعة ـ بيروت ، ط ٣ ـ ١٩٧٨
ـ تغطية الإسلام : د . إدوارد سعيد ، مؤسّسة الأبحاث العربيّة ـ بيروت ، ط ١ ـ ١٩٨٣
ـ التّفسير الإسلامي للتّاريخ : د . عماد الدّين خليل ، دار العلم للملايين ـ بيروت ، ط ١ ـ ١٩٧٥
ـ التّفسير الاشتراكي للتّاريخ : مختارات من فريدريك أنجلز ، نشر دار النّهضة العربيّة ـ القاهرة ـ ١٩٦٨
ـ التّنبيه والإشراف : المسعودي (علي بن الحسين) ، المكتبة العصريّة ـ بغداد ، ١٩٣٨

« ج و ح »

ـ جغرافيّة فلسطين وحضارتها : (المؤتمر الدّولي الثّالث لتاريخ بلاد الشّام) ، الجامعة الأردنية وجامعة اليرموك ١٩٨٣
ـ حاضر العالم الإسلامي : لوثروب ستودارد ، دار الفكر ـ بيروت ، ط ٤ ـ ١٩٧٣
ـ الحركات السّريّة في الإسلام : د . محمود إسماعيل ، دار القلم ـ بيروت ، ط ١ ـ ١٩٧٣
ـ الحضارة العربيّة : جان س . ريسلر ، نشر الدّار المصريّة ، بلا تاريخ أو طبعة .
ـ الحضارة في الميزان : أرنولد توينبي ، عيسى البابي الحلبي وشركاه ـ مصر ، بلا تاريخ أو طبعة .

« د »

ـ دائرة المعارف الإسلاميَّة ، دار المعرفة ـ بيروت ، بلا تاريخ .
ـ دائرة معارف القرن العشرين : محمَّد فريد وجدي ، دار المعرفة ـ بيروت ، ط ٣ ـ ١٩٧١
ـ دراسات في تاريخ وآثار فلسطين ، جامعة حلب ومركز الآثار الفلسطيني بإشراف د . شوقي شعث ـ ١٩٨٤

« ر »

ـ رحلة ابن بطوطة ، دار الفكر ـ بيروت ، ١٩٦٨
ـ روح الثَّورات : د . غوستاف لوبون ، نشر المكتبة العربيَّة (عُبَيد) ، ١٩٢٤

« س وَ ش وَ ص وَ ط »

ـ سَفَرنامة : ناصرخسرو ، دار الكتاب الجديد ـ بيروت ، ط ٣ ـ ١٩٨٣
ـ سُنَن التِّرمذي (محمد بن عيسى بن سَوْرَة) ، مطبعة الأندلس ـ حمص ، ط ١ ـ ١٩٦٦
ـ سوريَّة وفلسطين تحت الحكم العثماني : قسطنطين بازيلي ، دار التَّقدُّم ـ موسكو ـ ١٩٨٩
ـ شخصيَّات قلقة في الإسلام : د . عبد الرحمن بدوي ، دار النَّهضة العربيَّة ـ القاهرة ، ط ٢ ـ ١٩٦٤
ـ صحيح مسلم بشرح النَّوَوي ، المطبعة المصريَّة ومكتبتها ، بلا تاريخ .
ـ الطَّبقات الكبرى : محمَّد بن سعد الزُّهري ، دار صادر ـ بيروت ، ١٩٦٨

« ع »

ـ العالم العربي : د . نجلاء عز الدِّين ، دار إحياء الكتب العربية (عيسى البابي الحلبي) ط ٢ ـ ١٩٦٢
ـ العِبَر وديوان المبتدأ والخبر .. (تاريخ عبد الرحمن بن خلدون) ، دار البيان ـ بيروت ، بلا تاريخ .
ـ عصر إسماعيل : عبد الرَّحمن الرَّافعي ، دار المعارف بمصر ، ط ٣ ـ ١٩٨٢
ـ عصر محمَّد علي : عبد الرَّحمن الرَّافعي ، دار المعارف بمصر ، ط ٤ ـ ١٩٨٢

ـ العقد الفريد : أحمد بن محمّد بن عبد ربه ، لجنة التّأليف والتّرجمة والنّشر ، ط ٣ ـ ١٩٦٥
ـ عيون الأخبار : عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدّينوري ، نسخة مصوّرة عن طبعة دار الكتب بمصر ، بلا تاريخ .

« ف »

ـ فتح الباري شرح صحيح البخاري : أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ، دار المعرفة ـ بيروت ، ط ٢ ، بلا تاريخ .
ـ فتوح البلدان : أبو الحسن البلاذري ، المكتبة التّجاريّة الكبرى ـ القاهرة ١٩٥٩
ـ الفرق بين الفرق : عبد القاهر بن طاهر البغدادي ، دار الآفاق الجديدة ـ بيروت ، ط ٣ ـ ١٩٧٨
ـ الفِصَل في الملل والأهواء والنِّحَل : علي بن محمد بن حزم الأندلسي ، دار المعرفة ـ بيروت ، ١٩٨٦
ـ فلسطين عربيّة : د . فؤاد حسنين علي ، معهد البحوث والدّراسات العربيّة للتّربية والثّقافة والعلوم ، ١٩٧٣
ـ في طلب التّوابل : سونياي . هاو ، مشروع ١٠٠٠ كتاب (رقم ٩٨) ، مكتبة نهضة مصر ومطبعتها ، ١٩٥٧

« ق وَ ك »

ـ القافلة المنسيّة : يعقوب العودات (البدوي الملثّم) ، المطبعة التّجاريّة بالقدس ، ١٩٤١
ـ القاموس الإسلامي : أحمد عطيّة الله ، مكتبة النّهضة المصريّة ـ القاهرة ، ١٩٦٣
ـ القرامطة : عارف تامر ، منشورات دار مكتبة الحياة ـ بيروت ، بلا تاريخ أو طبعة .
ـ القرامطة : ميكال يان دي خويه ، دار ابن خلدون ـ بيروت ، ط ١ ـ ١٩٧٨
ـ قضيّة القدس : د . خيريّة قاسميّة ، دار القدس ـ بيروت ، ط ١ ـ ١٩٧٩
ـ الكامل في التّاريخ : علي بن محمد بن الأثير ، إدارة الطّباعة المنيريّة ـ القاهرة .
ـ كتاب الأغاني : أبو الفَرَج الأصفهاني ، عن طبعة بولاق ، دار صعب ، بيروت ، بلا تاريخ .
ـ كتاب الخَراج : أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم ، المطبعة السّلفية ومكتبتها ـ القاهرة ، ط ٤
ـ كنوز القدس : تنسيق المهندس رائف يوسف نجم ، منظمة المدن العربيّة ، ومؤسّسة آل البيت ـ عمان ، ١٩٨٣

« ل وَ م »

- لسان العرب : جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري ، دار صادر - بيروت .
- محاضرات في الاتّجاهات الأدبيّة الحديثة في فلسطين والأردن : د . ناصر الدّين الأسد ، جامعة الدّول العربيّة - القاهرة ١٩٥٧
- مختصر دراسة للتّاريخ : أرنولد توينبي ، الإدارة الثّقافيّة في جامعة الدُّول العربيّة ، ط ٢ - ١٩٦٥
- مروج الذّهب ومعادن الجوهر : علي بن الحسين المسعودي ، دار الفكر ، ط ٥ - ١٩٧٣
- المسيحيّة في القدس : عارف العارف ، مطبعة دير الروم الأرثوذكس - القدس ١٩٥١
- معجم الأنساب والأُسرات الحاكمة في التّاريخ الإسلامي : زامباور ، مطبعة جامعة فؤاد الأوّل - مصر ١٩٥١
- معجم البلدان : ياقوت الحَمَوي ، دار صادر - بيروت (بلا تاريخ) .
- معجم بلدان فلسطين : محمّد محمّد شراب ، دار المأمون للتّراث - دمشق ، ط ١ - ١٩٨٧
- مع المخطوطات العربيّة : كراتشكوفسكي ، دار التّقدُّم ، موسكو ١٩٦٣
- المغازي : محمّد بن عمر الواقدي ، عالم الكتب ، بيروت (بلا تاريخ) .
- الملل والنّحل : محمّد بن عبد الكريم الشّهرستاني ، البابي الحلبي ، مصر ١٩٦١
- من قضايا الفكر الإسلامي كما يراها بعض المستشرقين : كليّة الدّعوة الإسلامية - طرابلس ١٩٨٨
- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار : أحمد بن علي المقريزي ، دار صادر ، بيروت .
- موسوعة المستشرقين : د . عبد الرحمن بدوي ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط ١ - ١٩٨٤
- الموسوعة الفلسطينيّة ، دمشق ، ط ١ - ١٩٨٤
- ميزان الاعتدال في نقد الرّجال : محمد بن أحمد بن عثمان الذّهبي ، دار إحياء الكتب العربيّة ، ط ١ - ١٩٦٣

« ن »

- النّجوم الزّاهرة في ملوك مصر والقاهرة : يوسف بن تغري بردي ، المؤسّسة المصريّة العامّة ، القاهرة - ١٩٦٣

- نحن والتّاريخ : قسطنطين زريق ، دار العلم للملايين ، ط ٥ ـ ١٩٨١
- النّقد التّاريخي : د . عبد الرّحمن بدوي ، دار النّهضة العربيّة ـ القاهرة ١٩٦٣

« و »

- الوثائق والمعاهدات في بلاد العرب ، أصدرته جريدة الأيّام ، دمشق ، بلا تاريخ .
- الوحدة العربيّة [١٩١٦ ـ ١٩٤٥] : د . أحمد طربين ، دار الهلال ، ط ٢ ـ ١٩٦٣
- وَفَيات الأعيان : أحمد بن محمد بن خَلّكان ، دار صادر ، بيروت ـ ١٩٧٧
- ولاية بيروت (ألوية بيروت وعكا ونابلس) : محمد رفيق ومحمد بهجت التّميمي ، دار لحد خاطر ـ بيروت ، ط ٣ ـ ١٩٨٧

☆ ☆ ☆

- Atlas Moderne Larousse, Donald Curron, Michel Coqueny, Paris 1969
- Atlas of Middle East, Cracc L. Powell M. Margaret Geib, Alex Spengler.
- Encyclopedia Britanica, U. S. A 1974
- Encyclopedia Americana, 1987
- Jerusalem in the 19th. Century, the Old City, Yad Ichak Ben Ariel, Jerusalem 1984
- Jerusalem, Henry Catton, Croom Helm, London.
- Historical Atlas of the Muslim Peoples, Dr. R. Roolving, Amsterdam 1957
- Larousse, Paris 1930
- Muirs Historical Atlas, Treharne and Handd Fullord, Philip, London.
- Ottoman Empire, Donald Edgar, Pritcler Lieden, E. J. Brill 1972
- Palestinians and their Society: 1880 - 1946, Sarah Graham Brown, London 1980
- The Sick Man of Europe, Charles Swallow, London 1973
- Word Atlas, Hommonds, 1963

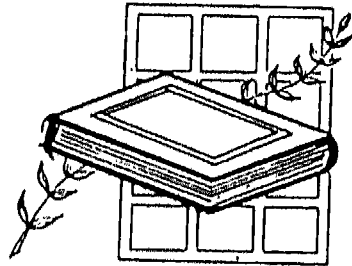
مسرد الآيات القرآنية الكريمة

الآية		الصفحة
سورة البقرة (٢)		
﴿ وقاتلوا في سبيل الله الّذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾	١٩٠	١٨٦
﴿ ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ﴾	٢٠٢	١٧٦
﴿ فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تُظلمون ﴾	٢٧٩	١٧٦
سورة النّساء (٤)		
﴿ وتحرير رقبة مؤمنة ﴾	٩٢	١٥٠
سورة المائدة (٥)		
﴿ أو تحرير رقبة ﴾	٨٩	١٥٠
سورة الأنعام (٦)		
﴿ ولا تقتلوا أولادكم من إملاقٍ نحن نرزقكم وإياهم ﴾	١٥١	١٥٠
سورة التوبة (٩)		
﴿ وفي الرّقاب ﴾	٦٠	١٥٠
سورة يونس (١٠)		
﴿ هو الذي يسيركم في البر والبحر حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنّوا أنهم أُحيط بهم دَعَوُا الله مخلصين له الدّين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين ﴾	٢٢	٢١٦-٢١٥

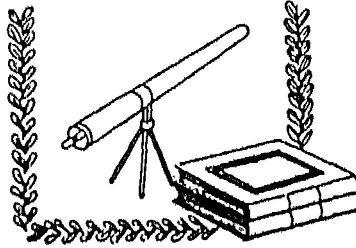
	الآية	الصفحة
سور ص (٣٨)		
﴿ إن هو إلا ذكر للعالمين . ولتعلمنّ نبأه بعد حين ﴾	٨٧ و٨٨	٢٠٩
سورة الأحقاف (٤٦)		
﴿ واصبر كما صبر أولو العزم من الرُّسل ولا تستعجل لهم ﴾	٣٥	١٨٦
سور ا المجادلة (٥٨)		
﴿ فتحرير رقبة من قبل أن يتماسَّا .. ﴾	٣	١٥٠
سورة الحشر (٥٩)		
﴿ كيلا يكون دُولَةً الأغنياء منكم ﴾	٧	١٤٩ و١٩٧
سورة التّكوير (٨١)		
﴿ وإذا الموؤودة سئلت ، بأي ذنب قتلت ﴾	٨ و٩	١٥٠
سورة المطففين (٨٣)		
﴿ ويل للمطففين . الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون . وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ﴾	١-٣	١٤٨
سورة الفجر (٨٩)		
﴿ وتأكلون التُّراث أكلاً لمّاً . وتُحبُّون المال حبّاً جمّاً ﴾	١٩ و٢٠	١٤٨
سورة المسد (١١١)		
﴿ في جيدها حبل من مسد ﴾	٥	١٤٧



مسرد الأحاديث النَّبوية الشريفة



مسرد الأعلام

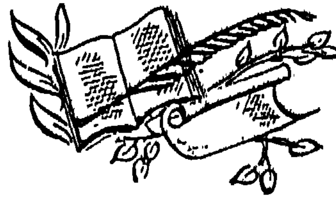


مسرد الأماكن

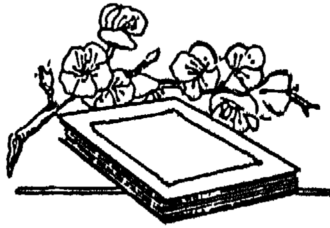
(ب)

مسرد الأقوام والشعوب والقبائل والجماعات

(أ)



فهرس الصُّور والمصوّرات



المحتوى

